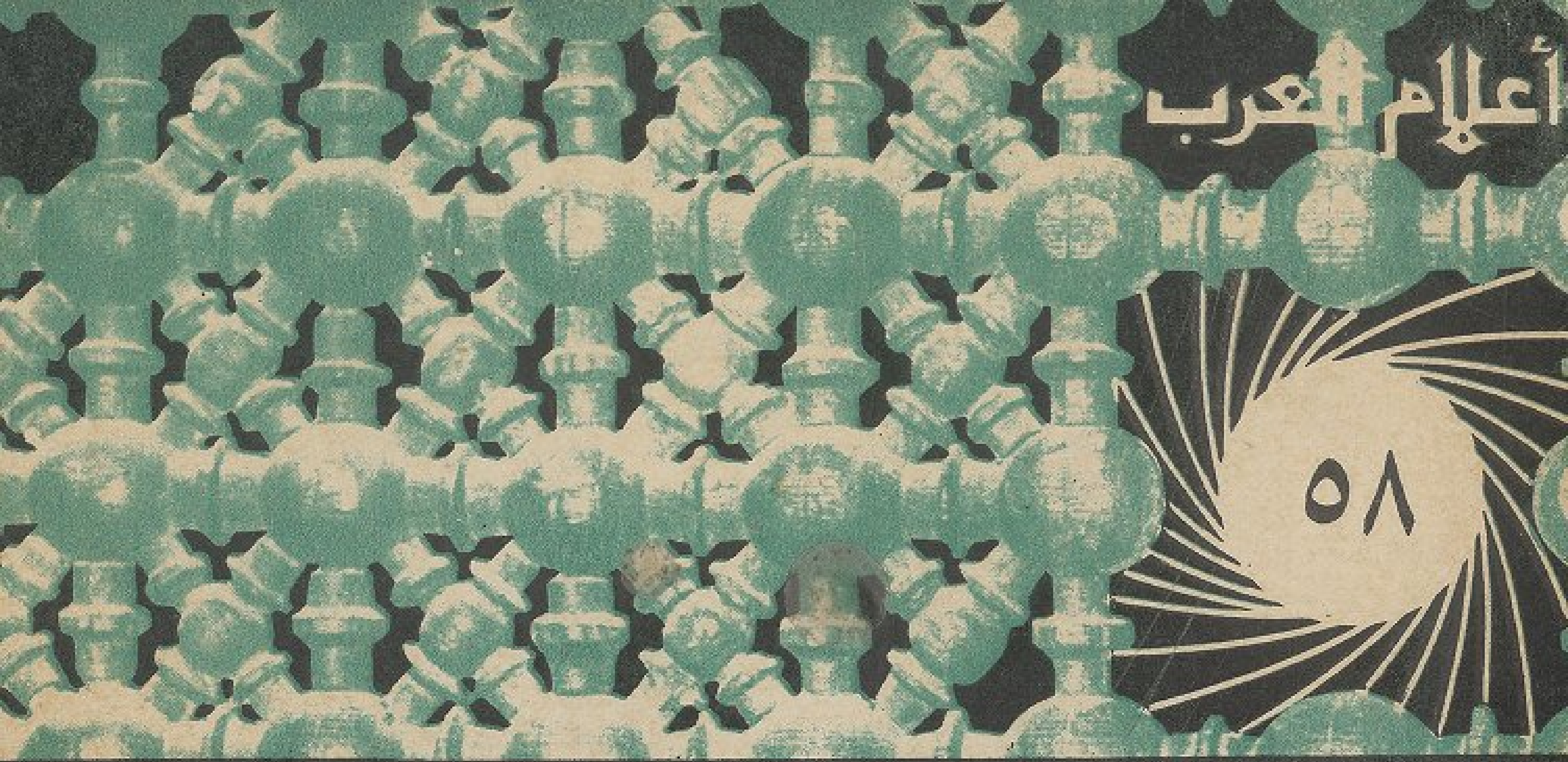


أعلام العرب

٥٨

السيد أحمد البدوى

شيخ وطريقة

بقلم

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الدار المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب

٥٨

السيد أحمد البدوى

شيخ وطريقة

تأليف

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيـــه محمد الذى جاء على لسانه فى الكتاب المبين « سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا » .

وبعد ، فان تاريخ الاسلام والعروبة حافل بجليل الأعمال ، زاخر بعظماء الرجال ، الذين نحس بحاجتنا الى استذكار سيرهم بين فينة وأخرى ، لنهتدى بهديهم ونقتفى أثرهم ، ونتخذ منهم قدوة طيبة فى مجالات العلم والخلق والعمل .

وقد سبق أن كتبت فى هذه السلسلة كتابين : أحدهما عن الظاهر بيبرس والآخر عن الناصر صلاح الدين ، وكلا الرجلين علم من أعلام الاسلام والعروبة ، برز فى ميدان الجهاد ، ووهب حياته لدفع الأخطار الخارجية ، التى هددت الوطن العربى الكبير فى عصره .

وهذا كتابى الثالث فى سلسلة أعلام العرب أعالج فيه سيرة علم جديد ، تربطه بالعلمين السابقين بعض أوجه الشبه ، وان اختلف عنهما فى نواح أخرى . أما عن وجه الشـــبه فهو أن السيد أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه كان مثل صلاح الدين

والظاهر بيبرس ، بطلا من أبطال الجهاد الذين يعتز بهم الاسلام والمسلمون . وكل ما هنالك هو أن جهاده كان من نوع غير النوع الذى كرس صلاح الدين والظاهر بيبرس نفسيهما من أجله . فالسيد أحمد البدوى لم يمتشق السيف ليحارب الصليبيين مثلما فعل الناصر صلاح الدين ، ولم ينفر مرة بعد أخرى لمطاردة التتار والصليبيين كما فعل الظاهر بيبرس ؛ وانما كان جهاد السيد أحمد البدوى من نوع آخر ربما أشد صعوبة ، أعنى به جهاد النفس ، وهو الجهاد الأكبر .

أجل ، قضى السيد أحمد البدوى حياته الطويلة كلها فى عملية جهاد شاقة هى جهاد النفس ، التى وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها أمّارة بالسوء ؛ وبذلك وضع لمعاصريه وللأجيال التالية مثلا عليا فى الزهد فى الدنيا والرغبة عن زخرفها والامعان فى التقشف ونكران الذات ... وهى مثل كثيرا ما نجد أنفسنا فى حاجة الى استذكارها والعمل بها .

هذا عن وجه الشبه بين السيد أحمد البدوى من ناحية والناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس من ناحية أخرى . أما عن وجه الخلاف فهو أن السيد أحمد البدوى جرت فى عروقه دماء عربية صريحة خالصة لا شبهة فيها ، على خلاف كل من صلاح الدين وركن الدين بيبرس . وليس معنى هذا أن هذين الأخيرين لم يكونا من أعلام العرب ، فلقد أوضحت فى مقدمة كتابى عن الظاهر بيبرس أن العروبة لم تعد فى مرحلة معينة من مراحل تاريخ الأمة العربية عروبة الدم ، وانما غدت عروبة الأحاسيس

والحضارة ، فكل من أحس بأحاسيس العرب وشاركهم آمالهم وآلامهم ، وتكلم لغتهم وعشق ثقافتهم ، وجاهد من أجل حاضرهم ومستقبلهم ، فهو عربى ... ولكننا عندما نكتب عن السيد أحمد البدوى نجد أنفسنا فى غنى عن هذا التخريج ؛ فالرجل عربى أصيل ، انحدر من أشرف البيوت العربية ، وتنتهى شجرة نسبه ــ باجماع الرواة ــ الى على بن أبى طالب ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، رضى الله عنهم أجمعين .

***

والسيد أحمد البدوى قطب كبير من أقطاب المتصوفة ، اختار طنطا بأرض مصر مقرا له حتى مات ودفن فيها ، فارتبط تاريخه بتاريخ هذا البلد عصرا طويلا ؛ وترك أثرا عميقا فى تاريخ مصر من النواحى الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية قرونا عديدة ، بحيث أننى عندما أتكلم فى هذا الكتاب عن السيد أحمد البدوى ، انما أحس فى الجزء الأكبر منه أننى أعالج صفحة مثيرة فى تاريخ المجتمع المصرى فى عصر حافل من عصور تاريخه الطويل .

على أن الظاهرة التى تبعث على الأسف حقا هى أن يتعرض تاريخ علم جليل من أعلام العروبة والاسلام ــ مثل السيد أحمد البدوى ــ لكثير من المسخ والتشويه . فالرجل فاضل طاهر ما هناك شك ، وسيرته نقية عطرة بكل يقين ؛ ولكن الذين ترجموا له وكتبوا تاريخ حياته شوهوا تلك السيرة وأساءوا اليه اساءات بالغة ، عن غير قصد .

ومن الثابت لدينا أن الكتابات المفصلة التى دونت عن السيد أحمد البدوى وحياته يرجع معظمها الى العصر العثمانى ، وهو عصر يوصف فى تاريخ مصر بالجمود والتأخر وانتشار الجهل . وعبرت هذه النواحى كلها عن نفسها أتم تعبير فى دنيا التصوف، فى ذلك العصر ؛ اذ أصبح التصوف عندئذ أداة لكسب العيش من أهون الطرق ، احترفه أدعياء استغلوا الجهل المطبق المحيط بهم فى التلاعب بعقول الناس ومشاعرهم . وفى سبيل تحقيق أغراضهم ، لجأ أولئك الأدعياء الى نشر البدع والمعتقدات الباطلة والاشاعات الكاذبة ، تحت ستار الدروشـــة حينا والكرامات أحيانا .

وشاء سوء الحظ أن يكتب تاريخ حياة السيد أحمد البدوى مفصلا لأول مرة فى ذلك العصر ، عصر الكرامات والخرافات ، عصر الادعاءات والاشاعات ؛ العصر الذى اعتاد الناس فيه أن يسمعوا كل يوم عن ولى أو شيخ أنه طار بلا جناحين ، أو طاف العالم فى لحظتين ، أو أحيا الموتى وأمات الأحياء فى برهة عين ... وكان من المستحيل على كاتبى سيرة السيد أحمد البدوى أن يدونوا سيرته العطرة خلوا من تلك الروح التى سادت عصرهم ؛ لأنهم كانوا يكتبون لأناس يعيشون حولهم ، ويقيِّمون الأولياء بمقدار ما يتهيأ لهم من كرامات ، وما يتحقق على أيديهم من معجزات ــ فى حياتهم وبعد مماتهم ــ ، لا على أساس مُثلهم وسلوكهم . لذلك جاءت سيرة السيد أحمد البدوى كما كتبها السابقون محشوة بكثير من القصص الخرافية ، وظنوا أنهم بذلك

انمـا يسترضون السيد أحمد البدوى لأنهم يظهرون عظمته ، وينسبون اليه من خوارق الأعمال ما هو كفيل بأن يعلى من قدره فى نظر العباد والمريدين . وليتهم علموا أنهم بعملهم هذا انما يسيئون الى الرجل أكثر مما يحسنون اليه ، وأنهم يفسدون سيرته الصافية من حيث لا يشعرون ، مثلهم فى ذلك مثل الدب الذى رأى ذبابة على وجه صـاحبه النـائم فأدى به الولاء والاخلاص لسيده الى أن يلتقط كتلة ضخمة من الحجر ويهوى بها على رأس صاحبه ليقتل الذبابة !

أجل ؛ ليس مما يشرف السيد أحمد البدوى ولا مما يشرف الاسلام والمسلمين أن يقولوا عنه أنه كان اذا لبس ثوبا أو عمامة لا يخلعها لغسل أو غيره حتى تذوب على جسده فيبدلونها له بغيرها . لقـد أرادوا بذلك مثلا للتـدليل على مدى تقشفه وزهده ، ولكنهم نسوا أن الدين الاسـلامى هو دين النظافة والطهر ، وأنه الدين الذى نص على أن النظافة من الايمان ، كما ورد فى القـرآن الكريم أن الله عز وجـل يحب المتطهـرين والمطهرين ، والطهر والنظافة صـنوان لا يفترقان . ولو قالوا ان السيد أحمد البدوى كان يخلع ملابسه كل شهر أو شهرين لغسلها ، لكان ذلك أدعى الى تكريمه واحترامه .

لقد كانت بعض المنظمات الديرية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى تعتبر الاستحمام ونظافة الجسد نوعا من الاقبال على الدنيا الذى ينبغى أن يظل الراهب بمنـأى عنه ، ومع ذلك لم

نسمع بوجود « مهــراش » بين مخلفات قديس من القــديسين الذين تنتشر أضرحتهم فى أنحاء غرب أوربا ، وما زال يحتفل بموالدهم السنوية حتى اليوم . هذا فى حين يفخر بعض خلفاء السيد أحمد البدوى بأن من بين مخلفاته « مهراش » زعموا أنه كان يستعمله فى هرش بدنه وحكه ، وما زال محفوظا حتى الآن فى ضريحه بطنطا ، يتمنى كثيرون لو أتيحت لهم فرصة تقبيله ، غير دارين بما فى ذلك كله من معان عديدة تسىء الى المسلمين وتاريخهم ، ويتخـــذها بعض المستشرقين حتى اليوم أداة لغمز التاريخ الاسلامى ، ولا أقول طعنه . والله يعلم ويشهد أن تاريخ أجدادنا أنظف وأنصع من أن يتعرض لغمز أو لطعن ؛ ولكن سامح الله الأدعياء الذين نسبوا اليه ــ بجهلهم ــ ما ليس فيه ، ولصقوا به ما هو برىء منه ... وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وليس مما يشرف السيد أحمد البــدوى ، ولا مما يشرف الاسلام والمسلمين أن يقول الشعرانى عن نفسه انه لما تزوج زوجته فاطمة أم عبد الرحمن مكثت معه بكرا خمسة شهور ، الى أن رأى السيد أحمد البدوى وقد جاءه وأخذه ومكنه من ازالة بكارتها داخل ضريحه وفوق ركن القبة الذى على يسار الداخل ؛ وكان أن تم ذلك الأمر فعـــلا فى تلك الليلة بفضل كرامة السيد أحمد البدوى وبركته . ولو علم الشعرانى مكانة هذا الموضع فى قلوب المسلمين لحفظ له قدســيته وطهارته ،

ولأشفق من ذكر قصته هذه ، ولكنه أراد أن يتخيل كرامة من كرامات السيد أحمد البدوى ــ أو بمعنى أدق أراد أن يختلق له كرامة ترضى ذوق معاصريه ــ فحقق غرضه عن أسوأ الطرق . وبذلك أساء من حيث لا يدرى الى ولى كبير من أولياء الله الصالحين .

وهذه الأمثلة قليل من كثير ...

***

وكان أن واجهت هذه الأوضاع عندما شرعت فى وضع كتابى هذا عن السيد أحمد البدوى ، وعندئذ أدركت عظم الأمانة ، وأحسست بأن سيرة هذا الرجل الكبير ــ كما كتبها الرواة ــ فى حاجة الى كثير من التنقية والتهذيب . وأحب أن أؤكد للقارىء أننى فى هذا الكتاب عندما أنتقد بعض الأوضاع ، فلا أنتقد السيد أحمد البدوى رضى الله عنه ، وانما أنتقد الخرافات والافتراءات والكرامات المبالغ فيها التى دست على سيرته دساً ، وألصقت بها الصاقا متقنا ، فمسختها وشوهت صورتها ، وربما أظهرته على غير حقيقته ، وهو الرجل العف النقى السيرة ، الذى أعرض عن زخرف الدنيا وزينتها ، ووهب نفسه وقلبه لله عز وجل ، وضرب للأجيال مثلا فريدا فى صفاء القلب والقدرة على جهاد النفس .

والله نسأل أن يمكننا دائما من أن ننطق كلمة الحق ، فما أكثر من يعرفون الحقيقة ويرونها ، ويجبنون عن مواجهتها .

والله ولى التوفيق .

كلية الآداب بجامعة القاهرة فى :

جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ

أكتوبر ١٩٦٦ م

سعيد عبد الفتاح عاشور

الفصل الأول

عُزلة وَعبادة

طول التعــــاشر بين الناس مملول

ما لابن آدم ان فتشت معقـــول

الانسان اجتماعى بالطبع على حد قول ابن خلدون ؛ خلق ليعيش فى مجتمع يتفاعل معه : يتأثر به ويؤثر فيه . والفرد الذى يستسيغ العزلة التامة والحياة الانفرادية لا يمكن أن يكون انسانا طبيعيا ، لأنه فى هذه الحالة ـــ كما قال أرسطو ـــ اما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو الهاً أسمى من مستوى البشر .

على أنه من الثابت أن ثمة حالات يحب فيها الانسان أن يخلو بنفسه والى نفسه ، اما ليستريح من جلبة المجتمع وصخبه ، واما ليراجع نفسه وضميره فى عمل أقدم عليه ، واما لاحساسه بالضيق وعدم الرضا عن بعض الأوضاع القائمة فى المجتمع الذى يعيش وسطه .

والملاحظ فى التاريخ أن هذا الاتجاه كثيرا ما يرتبط بالدين والشعور الدينى . ورب أفراد بلغوا من النضج العقلى والروحى ما جعلهم يستنكرون عبادة الأوثان والأصنام ، ويتجهون نحو عبادة الله الذى أبدع كل شيء وسواه ؛ فاذا صادفوا من قومهم اعراضا اعتزلوهم وآثروا راحة الفكر والضمير بعيداً عن مجتمع أبى الا الشرك والضلال . وها هو القرآن الكريم يحدثنا عن أبى الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام الذى ضاق بقومه ذرعا وساءه أن لا يهتدى أبوه الى الطريق القويم ، فلما أعياه الأمر نظر الى أبيه فى أدب ورفق و « قال سلام عليك سأستغفر لك

ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » .

وها هم أهل الكهف الذين يقص القرآن الكريم نبأهم بالحق ، فيصفهم بأنهم « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . وكان من دواعى الايمان والهدى أنهم استنكروا ما فعله قومهم من اتخاذهم آلهة من دون الله « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » . ولم يجد هؤلاء الفتية المهتدون حلا سوى اعتزال القوم الضالين « واذا اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » ! .

وهكذا نجد أمامنا شواهد واضحة فى سير الأنبياء والمصلحين الذين وصفوا بالزهد وآثروا فى فترات من حياتهم العزلة والعبادة . واستوى فى ذلك موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام من الأنبياء ، أو بوذا ومانى وغيرهما من أرباب الفلسفات الدينية وغير الدينية . واذا كان التاريخ قد حفظ لنا شيئا عن سلوك عبّاد بنى اسرائيل وعن رهبان النصرانية ، فان التاريخ نفسه هو الذى يحكى لنا الكثير عن متصوفة الاسلام . وبعبارة أخرى فان الشواهد التاريخية تثبت أن الرغبة فى الزهد والعزلة للانقطاع للعبادة والتأمل ، هذه الرغبة ظهرت فى جميع الأديان السماوية وغير السماوية . واذا كانت الرهبانية والديرية ارتبطتا بالمسيحية ، فان الخصائص العامة لهاتين الظاهرتين أقدم من المسيحية نفسها . وكذلك اذا كان

التصوف ارتبط فى التاريخ بالاسلام ، فان الخصائص العامة لهذه الظاهرة ترجع الى ما قبل الاسلام . انها فى حقيقة أمرها ظواهر نفسية بشرية أقدم فى أصولها من المسيحية والاسلام جميعا ، ونستطيع أن نجد سوابق واضحة لها قبل ظهور المسيحية بقرون طويلة ، وخاصة فى الهند حيث يبدو أن البيئة والطبيعة ساعدت كثيرا على حياة الزهد والتأمل .

على أننا لا نريد فى هذه المقدمة أن نبتعد بالقارىء بعيدا فى عصور سحيقة ، وخاصة أننا نعالج فى هذا الكتاب موضوعا مرتبطا بالتصوف الاسلامى بالذات . وربما كان أجدى لبحثنا أن نبدأ بالاشارة الى هذا اللون من ألوان الحياة الدينية فى ظل المسيحية ، فهى أقرب الديانات السماوية الى الاسلام ، فضلا عما أثبته الباحثون من وجـــود مؤثرات مسيحية واضحة فى التصوف الاسلامى ؛ الأمر الذى يجعلنا نشعر بضرورة الكلام فى ايجاز عن حياة الرهبانية والديرية فى المسيحية لنأخذ فكرة عن أقصى ما بلغته حياة الزهد والعبادة من سمو قبل الاسلام من ناحية ، ولنســـتطيع أن نتتبع ما عســـاه يكون هناك من مؤثرات نصرانية ظهـــرت فى التصوف الاســـلامى من ناحية أخرى .

الرهبانية والديرية :

والواقع أن تعاليم المسيحية حوت كثيراً من بذور الزهد والرغبة عن الدنيا ، مما يعتبر نواة لحياة الرهبانية والديرية فى

المسيحية . ففى العهد الجديد أكثر من اشارة تحبذ حياة الفردية وتحض على الانصراف للعبادة [1] . على أن حياة الرهبانية لم تنتشر وتصبح شيئا مألوفا فى العالم المسيحى قبل القرن الرابع الميلاد . وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار حياة الرهبانية بين المسيحيين فى ذلك الوقت ، أهمها ما تعرضوا له من اضطهادات وحشية من جانب الحكومة الرومانية وعملائها فى الولايات ، وهى الاضطهادات التى بلغت ذروتها على عصر الامبراطور دقلديانوس ، والتى جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم « عصر الشهداء » ، كما اتخذ أقباط مصر سنة اعتلائه العرش (٢٨٤ م) بداية للتقويم القبطى . وهكذا اضطر كثير من المسيحيين الى الفرار بعيدا عن أعين الحكام لينقطعوا لمباشرة طقوس ديانتهم الجديدة فى أمان وسلام . فاذا أضفنا الى ذلك أن بعض المسيحيين المخلصين فى القرن الرابع للميلاد تلفتوا حولهم ليجدوا الفجوة واسعة بين تعاليم المسيحية وروحها وبساطتها ومثلها من ناحية ، وبين المجتمع الرومانى المحيط بهم والذى اتصف عندئذ بالانحلال والفساد والجشع من ناحية أخرى ، مما جعلهم يطمعون فى حياة جديدة يحققون فى ظلها المثل الروحية للديانة المسيحية .. اذا أضفنا ذلك الى رغبة المسيحيين فى الخلاص من العذاب الوحشى الذى تعرضوا له فى عصور الاضطهاد ، أدركنا فى

---

(١) انظر مثلا انجيل متى ، الاصحاح التاسع عشر ؛ ١٢ . وكذلك رسالة بولس الرسول الاولى الى أهل كورنثوس ــ الاصحاح السابع ؛ ١

نهاية الأمر العوامل الأساســـية التى ساعدت على مولد حياة الرهبانية فى المسيحية .

ومهما يكن من أمر ، فان ظاهرة الرهبانية بدأت لأول مرة فى أرض مصر بالذات ، وذلك باجمـــاع آراء المؤرخين . ولا ندرى بالضبط السبب فى ظهور الرهبانية المسيحية فى مصر قبل غيرها من البلاد الأخرى التى عرفت المسيحية ووجدت فيها جاليات مسيحية فى وقت مبكر ، وان كان يبدو لنا أن جو مصر المعتدل من ناحية وكونها جزءاً أساسيا من المسرح الأول للديانة المسيحية من ناحية ثانية ، وتعرض المسيحيين فيها بالذات لموجة من أعنف موجات الاضطهاد الدينى التى شهدها العالم الرومانى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من ناحية ثالثة ... هذه وغيرها كانت دون شك من العوامل الرئيسية التى جعلت أرض مصر تربة صالحة لنمو ظاهرة الرهبانية .

ويعتبر القديس بولس الطيبى أول مثل نعرفه عن رهبان مصر ، وان كان المتأخرون قد أضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل انه قضى بضعا وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بصعيد مصر (حوالى ٢٥١ ــ ٣٥٦ م) . وربما كانت شخصية القديس أنطون أقرب الى الواقع والتاريخ ، اذ من الثابت أن هذا الرجل اختار لنفسه حياة العزلة للعبادة حوالى سنة ٢٧٠ م فانقطع فى مكان ما فى مصر الوسطى لمدة خمس عشرة سنة ، آثر بعدها أن ينتقل الى قلعة مهجورة على الضفة الشرقية للنيل

فى مقابلة الفيوم ، حيث عزل نفسه تماما عن المجتمع البشرى . وعندما قضى أنطون فى مكمنه الجديد قرابة عشرين سنة ، ذاعت شهرته فى البلاد فقصده بعض المسيحيين المخلصين من الناقمين على المجتمع الفاسد المحيط بهم ، وطلبوا منه أن يرشدهم الى الى الحياة المثالية فى نظرهم . وهكذا أخذ القديس أنطون ينظم أول مجموعة من الرهبان ليحيوا حياة دينية خالصة ، ويبدو أن هذه الخطوة تمت فى أوائل القرن الرابع للميلاد . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا أن الحياة المثالية فى نظر القديس أنطون قامت على أساس فكرة العزلة الانفرادية والتعبد الفردى لا الجماعى ؛ وقد ساد هذا النظام معظم أنحاء مصر الوسطى والدلتا — أى من أسيوط الى شاطىء البحر المتوسط شمالا — حتى منتصف القرن الخامس . ووجدت أكبر مجموعة من الرهبان اتبعت النظام الأنطونى فى وادى النطرون ، حيث عاش الرهبان للعبادة اما منفردين ؛ واما مثنى أو ثلاث أو رباع وفق رغبتهم ، ولكن دون أن ينتظمهم جميعا نظام واحد ، ودون أن يلتزموا كلهم باتباع قواعد أو قوانين معينة ، مما جعل حياتهم أقرب الى الرهبانية الانفرادية منها الى الديرية الجماعية .

ولكن اذا كان أولئك الرهبان قد قسوا على أنفسهم واختاروا بمحض ارادتهم أن ينتبذوا من أهلهم مكانا قصيا ليواصلوا حياة العبادة ، فان ما يؤخذ عليهم هو أنهم تطرفوا فى حرمان النفس بل تعذيب الجسد طلبا لمزيد من الثواب فى الآخرة . وسرعان ما اتضح أن هذه الرهبانية الانفرادية تحوى

قدرا كبيرا من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية . فليس من التقوى فى شيء أن يبتعد الفرد كلية عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد ، ولا يرتدى سوى أسمال بالية ، وبذلك يحرم نفسه من كثير من أسباب الحياة التى أنعم الله عليه بها . لذلك كان لا بد للعقلاء الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام جديد يحقق رغبتهم دون أن يتعارض مع طبائع البشر . ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من ناحية وبين النزعة الاجتماعية عند الانسان من ناحية أخرى .

وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر . أما عن القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش الامبراطور قنسطنطين حتى اهتدى الى اعتناق المسيحية ، فانسحب الى الصحراء ليباشر حياة الرهبانية الانفرادية ، متبعا مذهب « العزلة عبادة » . وكان أن اكتشف باخوم عيوب هذه الطريقة ، فأسس أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى سنة ٣١٥ ـ ٣٢٠ م ، وتأثر عند اقامته هذا الدير بما لمسه من ترتيب المعسكرات الرومانية ، حتى جاء ديره شبيها الى حد كبير بمخيمات الجيش الرومانى . هذا فضلا عن النظم شبه العسكرية التى وضعها القديس باخوم للرهبان داخل ديره ،

اذ فرض عليهم الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، الى جانب العبادة والصلاة .

وما أسرع ما اتضحت للمعاصرين مزايا هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ؛ فالراغبون فى العزلة يحققون رغبتهم لأن الأديرة كانت عبارة عن مستعمرات من الرهبان تقام عادة بعيدة عن العمران ، وتختار لها مواقع نائية فى جوف الصحراء أو بين الجبال ؛ وفى الوقت نفسه يحيا الرهبان داخل الدير حياة اجتماعية ، اذ يشتركون سويا فى العمل وفى الصلاة وفى العبادة. لهذا أقبل المعاصرون على الحياة الديرية اقبالا شديدا ، ساعد عليه أن الامبراطور قسطنطين اعترف سنة ٣١٣ بالمسيحية كاحدى الديانات المرخص لها بالوجود داخل اطار الامبراطورية ، ومن ثم لم يعد المسيحيون فى حاجة الى التخفى والتستر على نشاطهم الدينى ، وأقبلوا على الأديرة يقيمونها فى جرأة وينضمون اليها فى غير تستر . وعند وفاة القديس باخوم سنة ٣٤٦ كانت هناك بمصر تسعة أديرة خاصة بالرجال ودير خاص بالنساء . ويبدو أن هذا العدد من الأديرة الباخومية ازداد بعد وفاة مؤسسها حتى أن المؤرخ بلاديوس الذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع قدر عدد رهبان الأديرة فيها ببضعة آلاف راهب ، عاشوا جميعا على هيئة مجموعات ديرية تخضع لنظام جماعى دقيق يحدد مواقيت الصلاة والعبادة الجماعية ، وأساليب العمل لانتاج ما يحتاج اليه أهل الدير من غذاء وكساء وغير ذلك .

ومع مرور الوقت انتشرت الرهبانية الانفرادية والديرية

الاجتماعية خارج حدود مصر ، فبلغت أرض الحبشة جنوبا وبلاد الشام وآسيا الصغرى والبلقان شمالا . ولم يلبث أن عرف الغرب الأوربى حياة الديرية فى القرن الخامس للميلاد ، فقامت كثير من المنظمات الديرية التى نهضت بدور خطير فى الحياة الأوربية فى العصور الوسطى[1] .

التصوف فى الاسلام :

ثم كان أن ظهر الاسلام فى القرن السابع للميلاد ، واتسعت حركة الفتوح الاسلامية ، لتجعل الوطن العربى الاسلامى يمتد من المحيط الى الخليج . والمعروف عن معظم أراضى الدولة الاسلامية وأقطارها فى المشرق والمغرب ـ مثل شمال العراق والشام ومصر وشمال افريقية والأندلس ـ أن المسيحية كانت قد سبقت اليها واستقرت فيها قبل أن يفتحها المسلمون ويدخل أهلها فى دين الله أفواجا . وهكذا وقف المسلمون فى هذه الأقطار على نماذج واضحة لأديرة مزدهرة ورهبان آثروا الانقطاع للعبادة وفضلوا حياة العزلة والزهد والتقشف على زخرف الدنيا وزينتها .

ولا نريد أن نقول ان التصوف الاسلامى يدين بنشأته الى الرهبانية والديرية ، فقد سبق أن أوضحنا أن الرغبة فى العزلة

---

(١) عن الرهبانية والديرية بالتفصيل انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ؛ الجزء الأول الباب السابع ، والجزء الثانى ـ الباب الأول .

والانقطاع للعبادة ظاهرة نفسية لا ترتبط فى أساسها بدين معين ، سماوى أو غير سماوى . وحسبنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام عندما ضاق ذرعا بأوضاع قومه فى الجاهلية اعتاد أن يقتطع بعضا من وقته يذهب فيه الى غار حراء لعبادة الله عز وجل . هذا فضلا عن أن القرآن الكريم أشار أكثر من مرة الى الرهبان والرهبانية بطريقة تجعل أسلوبهم غير محبب الى المسلمين . من ذلك ما جاء فى سورة التوبة من اشارة الى أن البعض « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » . كذلك ورد فى نفس السورة ما نصه « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » . حقيقة ان الآية الأخيرة يفهم منها عدم التعميم بالنسبة للرهبان ، وحقيقة ان ثمة آية أخرى وردت فى سورة المائدة تصف النصارى جميعا بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . » ؛ ولكن القرآن نفسه وصف أسلوب الرهبانية بأنه من ابتكار أتباع السيدالمسيح عليه السلام ، وأن الله عز وجل لم يفرضها عليهم ولم يأمرهم بها فى كتابهم ولا على لسان رسولهم ، ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومرضاته ، فما قاموا بها حق قيام ، وانما ضموا اليها بعض المعتقدات غير السليمة وخرجوا بها عن جادة الصواب . وجاءت هذه المعانى كلها فى سورة الحديد ؛ « ثم قفينا علي آثارهم برسلنا ، وقفينا

بعيسى بن مريم ، وآتيناه الانجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » [1] .

وعلى ذلك فان حياة الرهبانية لم تكن بالحياة المثالية المحببة لدى المسلمين ليبادروا بمحاكاتها ، لا سيما وأن الرهبانية جاءت فى المسيحية مرتبطة الى حد كبير بالعزوبة والاضراب عن الزواج. وقد قرر ثلاثة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يصوم أحدهم ولا يفطر ، وأن يقوم الثانى طول الليل ولا ينام ، وأن يضرب الثالث اضرابا كاملا عن الزواج . فرفض النبى ذلك وقال : « اننى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى !! » . وهذا المثل بالذات يوضح لنا حقيقة هامة ، هى أنه وجد فى زمن الرسول من المسلمين من أمعن فى التقشف والتصوف .

والواقع أن ثمة شواهد عديدة تشير الى أن العرب عرفوا حياة الزهد والتنسك فى جاهليتهم ، أى قبل الاسلام ، وأن هذه الحياة تأثرت بالمؤثرات المسيحية التى تسربت فعلا الى شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية . من ذلك ما ذكره ياقوت الحموى فى معجم البلدان من عديد الأديرة التى نسب بعضها الى العرب ، مثل دير حنظلة « وكان قد نسك فى الجاهلية وتنصر وبنى هذا

---

(١) انظر تفسير هذه الآية فى النسفى والخطيب الشربينى « السراج » .

الدير فعرف به الى الآن » . وعند ظهور الاسلام وانتشاره ، وجد المسلمون فى الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا ساميا فى الزهد وعدم التهالك على الدنيا ، وكل ما هنالك هو أن الرسول كان معتدلا فى زهده وتقشفه ، بعيدا عن التطرف الذى أراد البعض أن ينزلق اليه امعانا فى الزلفى وطلب الثواب . وحاكى الصحابة رسول الله فى زهده وتقشفه ، وظهر بين الصحابة حذيفة بن اليمان الذى استرعى الانتباه بكلامه فى المعانى الوجدانية ؛ وعن حذيفة أخذ الحسن البصرى المتوفى سنة عشر ومائة للهجرة ، والذى تكلم فى التصوف كلاما جعل الصوفية يتخذونه اماماً لهم ينهجون نهجه ويقتفون أثره .

ومن المعروف أن اتساع الدولة العربية الاسلامية ترتب عليه انحراف واضح عن المثل العليا السامية التى تحلى بها المسلمون فى الدور الأول من تاريخ دولتهم . وظهر هذا الانحراف بوضوح منذ القرن الثانى للهجرة عندما ازداد الترف والتهالك على الدنيا وزينتها ، الأمر الذى أخاف بعض المخلصين ، فأقبلوا على التصوف لينجوا بأنفسهم من الانحراف ويقاوموا اغراء الحياة الدنيا . والى ذلك العصر بالذات يمكن أن ننسب ظهور لفظ التصوف بمعنى الاتجاه فى الحياة نحو الزهد والنسك والعبادة . وقد اختلفت الآراء حول اشتقاق لفظ « تصوف » ، وان كان أهم هذه الآراء هو الرأى القائل بأنه مشتق من الصوف ـــ وهو لباس الصوفية المفضل ـــ ، والرأى القائل بأنه

مشتق من الصفا لتصفية القلوب [1] . ونحن نرجح كفة الرأى الأول ، حيث أن الصوف اتخذ دائما دليلا على التخشن فى الملبس بعكس الحرير ، وثبت أن الزهاد من أقدم العصـــور اتخذوا الصوف لباسا لهم اشارة الى تقشفهم . والمعروف أن الرهبان فى المسيحية كانوا ــ وما زالوا ــ يفضلون لبس الصوف اقتداء بالمسيح عليه السلام ، بل ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان يحب ارتداء الصوف لما فى ذلك من معانى الزهد .

ومهما يكن من أمر ، فان التصوف فى الاسلام سلك طريقا مشابها للطريق الذى سلكه فى المسيحية . فبدأ المتصوفة يعتزلون المجتمع فرادى لينقطعوا للعبادة فى صـــورة شبيهة من بعض النواحى بالصورة التى رأيناها عند كلامنا عن الرهبانية الانفرادية فى المسيحية . ثم ظهر بعد ذلك التصوف الجماعى ، بمعنى أن يعيش الصوفية فى منازل خاصة ــ أشبه بالأديرة ــ لينقطعوا للذكر والعبادة بعيدين عن متاع الحياة الدنيا . وكل ما هنالك هو أننا لا نجد فى منازل الصوفية ذلك التطرف فى البعد عن المجتمع كما هو الحال فى أديرة المسيحية ، بمعنى أننا لا نجــد الصوفية يحرصون على الذهاب بعيدا فى جوف الصحراء أو بين أحضان الجبال بحيث لا يصل اليهم انسان فى سهولة . ولا نجد منزلا للصوفية يشابه فى موقعه دير سانت كاترينا أو دير وادي النطرون ، وانما أقصى ما نصادفه هو أن يحاول الصوفية

---

(1) انظر : ابن حبيب : درة الأسلاك جـ ٢ ص ٢٦٠ ؛ ومقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢ ، والسيوطى ، اتمام الدراية ص ٢٠٣

أن يتخذوا مغارة فى جبل المقطم قرب أبواب القاهرة ليقيموا فيها . ويستثنى من ذلك طبعا الربط التى بناها المسلمون على أطراف دولتهم وحدودها ، وكان الغرض منها الجهاد وغزو بلاد الأعداء وصد خطرهم ولكن المرابطين فيها جمعوا بين حياة الجهاد والحياة الدينية ، مما جعلها تتحول فى دور معين الى منازل للصوفية .

ومن الصعب أن يعالج كاتب موضوع التصوف فى الاسلام دون أن يتطرق الى نقطتين حساستين ، الأولى هى علاقة التصوف بالتشيع والشيعة ، والثانية هى الآثار المسيحية فى التصوف الاسلامى . أما عن المسألة الأولى وهى العلاقة بين التصوف والتشيع فيميل بعض الباحثين الى القول بأن الصلة وثيقة بين الجانبين ، بل ان ابن خلدون يقولها فى صراحة ان الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع ، حتى أن الصوفية « لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه الى علىّ رضى الله عنه »[1] ويدلل الدكتور زكى مبارك على هذه الصلة بقوله ان أهل فارس هم أكثر الناس تصوفا بين الأمم الاسلامية ، وهم كذلك أشد الشعوب الاسلامية تشيعا . هذا الى أن كلا من الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ، ولهم مصطلحاتهم الخاصة ، ويبحثون عن النجاة فى عالم غير العالم المحسوس الذى يعيشون فيه . على أننا لا نريد أن نتمادى كثيرا مع الدكتور زكى مبارك فى قوله ان الهزيمة ربطت بين التشيع

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٣

والتصوف لأن الشيعة انهزموا فى ميدان السياسة والصوفية انهزموا فى ميدان الحياة ، والهزيمة تجعل المرء يتصوف لأنه يفقد سنده فى عالم المادة فيلتمس الغوث فى عالم الروح ... [1] ويكفى أن نشير الى أن بعض أئمة الشيعة اتخذهم الصوفية أئمة لهم ، وعلى رأس هؤلاء يأتى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وزين العابدين بن الحسين رضى الله عنه ، مما يجعلنا لا نستطيع أن ننفى الصلة بين التصوف والتشيع فى الاسلام .

وأما عن المسألة الثانية الخاصة بأثر المسيحية فى التصوف الاسلامى فان هناك ثمة أدلة تجعلنا لا نستطيع أن ننكر هذا الأثر . واذا كنا قد ذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام قد حارب مبدأ العزوبة ودعا الى الزواج لما فيه من معان خلقية واجتماعية كريمة ، فاننا لا نستطيع تفسير اصرار غالبية الصوفية على تفضيل حياة العزوبة الا فى ضوء تأثير الرهبانية المسيحية . ويقال ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال لعكاف بن وداعة : يا عكاف : ألك امرأة ؟ قال : لا . فقال له النبى : فأنت اذا من اخوان الشياطين ، ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وان كنت منا فمن سنتنا النكاح . وقد ورد فى رسائل اخوان الصفا حوار طريف بين صوفى مسلم وراهب مسيحى [2] . ومن الواضح أن ورود هذا الحوار فى تلك الرسائل التى تعتبر دائرة معارف ضخمة للفكر الاسلامى فى عصر من أنشط عصوره ، انما هو

---

(١) زكى مبارك : التصوف الاسلامى ، جـ ٢ ، ص ٣٤ – ٣٥

(٢) رسائل اخوان الصفا ، جـ ١ ص ٢٦٤ وما بعدها .

دليل عما أحس به المعاصرون فى ذلك الدور المبكر من أدوار حركة التصوف من تقارب بين الرهبانية المسيحية والتصوف الاسلامى . وأخيرا — وليس آخرا — فانه اذا كان الصوفية اعتبروا زين العابدين بن الحسين اماما من أئمتهم ، فانه من بين الأدعية الشهيرة التى اشتهر بها زين العابدين مناجاة عرفت باسم المناجاة الانجيلية لأن فقراتها شديدة الشبه ببعض فقرات الانجيل ... [1]

واذا كنا لا ننكر وجود مؤثرات واضحة شيعية ورهبانية مسيحية فى التصوف الاسلامى الا أن هذه الظاهرة ينبغى ألا تجعلنا نعتقد أن التصوف الاسلامى يدين بنشأته الى نظم الشيعة أو نظم الرهبان . ومرة أخرى نكرر أن الرغبة فى العزلة والانقطاع للعبادة والتأمل انما هى نزعة طبيعية كثيرا ما تعترى الانسان فى ظروف معينة . ويمكن أن نقول ان الظروف النفسية التى أحاطت بالشيعة ، وشعورهم بأنهم خدعوا وظلموا وغرر بهم ، كل ذلك استثار فى نفوسهم النزعة المشار اليها فأقبلوا على التصوف منذ وقت مبكر . ولكن ليس معنى ذلك أنه ما كان هناك تصوف فى الاسلام لو لم يكن هناك تشيع . ومن جهة أخرى ظهرت عوامل حركت نزعة التصوف فى العالم الاسلامى ، وعندئذ وجد المسلمون أمامهم أمثلة سابقة لجماعات يدينون بدين سماوى وأقاموا مؤسسات ديرية لها مثلها ونظمها وتقاليدها الراسخة ، فكان من الطبيعى أن يفيد المسلمون من

---

(١) زكى مبارك : التصوف ؛ جـ ٢ ص ٦٨

هذه التجارب السابقة وأن يتأثروا بما صادفوه فى العراق والشام ومصر وشمال افريقية من نماذج حية لجماعات من الرهبان آثروا حياة العزلة والعبادة . ولكن ليس معنى ذلك أنه ما كان هناك تصوف فى الاسلام لو لم تكن هناك رهبانية فى المسيحية .

ولكن ، اذا كانت ظاهرة التصوف قديمة ، عرفها المجتمع الاسلامى منذ القرن الثانى للهجرة تقريبا ، فما السر فى هدوء تيار التصوف فى العصر الأول للاسلام ، ثم اشتداد ذلك التيار بعد ذلك وبخاصة منذ القرن السابع الهجرى ؟؟ الواقع أن ثمة حقيقة نحب أن نؤكدها دائما هى أن الرغبة فى العزلة والعودة الى الله لا تقوى الا فى ظلال الضعف . فقليل من الناس من يتذكر الله فى قوته وصحته وشبابه وثرائه ، وكثيرا ما يذكر الناس ربهم فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم . ولا جدال فى أن المسلمين فى ضحى دولتهم أحسوا بقوتهم وعزة جانبهم . وهل هناك قوة أعظم من أن يتمكن المسلمون من محو دولة الفرس وكسر شوكة دولة الروم ، وهما أعظم امبراطوريتين عرفهما العالم وقت ظهور الاسلام ؟ أجل ، هل هناك قوة أعظم من أن تصبح الدولة الاسلامية وحدة واحدة تمتد من المحيط الأطلسى غربا حتى الخليج العربى وحدود الصين شرقا ؟ وماذا أعظم من أن يجلس الخليفة فى حاضرة دولته فى دمشق ويصدر الأوامر فتلبى مشيئته على الفور فى قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب والبصرة وهمذان وصنعاء وغيرها من حواضر الأقاليم وأمهات المدن غربا وشرقا ؟؟ لا شك فى أن المسلمين أحسوا فى ذلك

الدور بقوتهم وثروتهم ، وفى ظل ما اتصفت به الدولة الاسلامية عندئذ من أمن واستقرار ، أخذ المسلمون يواصلون نشاطهم الحضارى المتعدد الجوانب والأطراف دون أن يشعروا أنهم أفرطوا أو فرطوا ، ودون أن يحسبوا أنه قد صدر عنهم ما يدعو الى الاسراف فى التوبة والمبالغة فى الاستغفار .

على أن الأوضاع لم تلبث أن أخذت تتبدل ، وبخاصة منذ أواخر القرن الثالث للهجرة عندما ظهر فى وضوح ضعف الدولة الاسلامية وانقسامها وقيام دويلات كثيرة مستقلة بين ربوعها ، وانتشار الثورات والفتن بين أنحائها ، وضياع هيبة الخلافة العباسية فى بغداد . بل لقد وجدت فى القرن الرابع للهجرة ثلاث خلافات تتنازع ولاء المسلمين ، فى بغداد والقاهرة وقرطبة . ولا شك فى أن الانقسام فى حد ذاته انما هو مظهر من مظاهر الضعف ، فأخذ الوهن يدب حثيثا فى المجتمع الاسلامى ، وأدت كثرة المال والثروة الى تخلى كثير من المسلمين عن روح البساطة والأخلاق الكريمة التى تحلى بها أسلافهم . ولعل أوضح مظاهر الضعف الذى أخذ يستشرى فى جسم الدولة الاسلامية هو تحول المسلمين من الهجوم الى الدفاع ، وتحول أعداء المسلمين التقليديين من الدفاع الى الهجوم . فالروم الذين طالما ذاقوا الأمرين من هجمات المسلمين البرية داخل آسيا الصغرى وهجماتهم البحرية على القسطنطينية نفسها ، والذين حرص أباطرتهم على دفع الأموال للمسلمين ثمنا لمسالمتهم ؛ هؤلاء الروم أخذوا فى القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) يهاجمون

المسلمين فى شمال العراق حينا وفى بلاد الشام أحيانا . وفى القرن الخامس الهجرى اشتدت هجمات المسيحيين على المسلمين فى الأندلس ، وأخذت دولة المسلمين فى أسبانيا تنكمش انكماشا مضطرداً . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد تعرض المسلمون فى شمال افريقية لهجمات عدوانية مستمرة من جانب الأساطيل الأوربية ، فى الوقت الذى اعتقد الغرب الأوربى أن ساعة الانتقام قد حانت ، فخرجت الأساطيل والجيوش الصليبية فى أواخر القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر للميلاد) قاصدة أجزاء معينة من الوطن الاسلامى ، ولم يجد الصليبيون صعوبة كبيرة فى التغلب على القوى الاسلامية المتنافرة فى الشرق الأدنى ، وبذلك قامت امارات صليبية كبيرة فى الشام وشمال العراق ، وصارت هذه الامارات فى حقيقة أمرها قواعد استعمارية ضخمة للغرب الأوربى فى جوف الوطن العربى الاسلامى .

وأخيرا أفاق المسلمون وفتحوا أعينهم على تلك الحقائق المرّة والأوضاع الجديدة التى أمسوا فيها . يا لله ! ما الذى بدل أمنهم خوفا وأحال قوتهم ضعفا ؟ أين عظمة جيوشهم التى زلزلت أراضى ثلاث قارات وأرهبت الأعداء وجعلت رؤوس الأباطرة والأكاسرة تطأطأت من خشيتها ؟ كيف جرؤ أعداء المسلمين على استباحة بلادهم واستحلال أرواحهم وأملاكهم ، حتى لقد شردوهم من بيوتهم واستضعفوا رجالهم وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم ؟ هنا توقف بعض كتاب المسلمين وقالوها فى صراحة « انا لله وانا اليه راجعون ! » . أجل ، لم يجد كثير

من مفكرى المسلمين عندئذ تفسيرا لذلك الوضع الذى انحدروا اليه سوى أنه مظهر لغضب الله ، وأن الخلاص لا يكون الا بالرجوع الى الله والامعان فى التوبة ، والمحافظة على حدوده والابتعاد عما نهى عنه . وفى رأى هؤلاء أن المسلمين لم ينحدروا الى الهوة التى وصلوا اليها عندئذ ، الا بعد أن تخلوا عن طريق الله ، فتخلى الله عنهم ...

وفى وسط تلك الغمة أخذ تيار التصوف يشتد ويقوى فى العالم الاسلامى مشرقه ومغربه . على أنه يبدو أن تيار التصوف اشتد فى المغرب فى ذلك الدور بصورة أقوى وأسرع مما كان عليه فى المشرق . وربما كان السبب فى ذلك هو قرب المغرب العربى من مركز الهجوم الأوربى على بلاد المسلمين ، مما جعل أهل المغرب أكثر احساسا بالخطر وبالتالى أكثر حماسة ورغبة فى التوبة والاستعداد الروحى والمادى . من ذلك ما نسمعه عن عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين ، وهى الدولة التى قامت فى المغرب العربى على أسس من التصوف الروحى والجهاد الدينى ، ولها صفحات مشرفة فى الدفاع عن كيان المسلمين بالأندلس وشمال افريقية . ذلك أن عبد الله بن ياسين أقام دولته على أسس من التقشف والزهد والعبادة ، فدعا أصحابه الى الاقامة فى الربط لعبادة الله بعيدا عن حياة الفساد ، ومن ثم سميت الدولة بدولة المرابطين . والمعروف أن الرباط فى الاسلام هو المكان الذى يرابط فيه المسلمون اما للعبادة والمحافظة على

انتظام الصلوات واما للجهاد ودفع الأعداء [1] . ولهذا السبب روعى فى اقامة الربط فى المشرق والمغرب الاسلاميين أن تكون قريبة من حدود الدولة . ويبدو — كما يقول مارسيه — ان الوظيفة الأساسية للرباط كانت فى أول الأمر حربية ولكن حدث مع انتشار التصوف أن فقد الرباط طابعه الحربى تدريجيا وتحول الى دار الصوفية [2] .

ومهما يكن من أمر ، فان جهود المرابطين — ثم الموحدين من بعدهم — لم تفلح فى وقف تدهور أحوال المسلمين فى المغرب — وخاصة فى الأندلس — الأمر الذى جعل كثيرا من أعلام المتصوفة فى المغرب يوجهون وجوههم شطر المشرق ؛ وبصفة خاصة فى القرن السابع الهجرى . وفى مصر بالذات وجد أولئك المشايخ المسرح معدا لنشاطهم الواسع الخطير .

التصوف فى مصر :

والواقع أن مصر عرفت حياة الزهد والتقشف من عصور قديمة . واذا كان هيرودوت قد وصف المصريين بأنهم قوم يخافون الله ، فان خوفهم الله جعلهم دائما أقرب الى احترام الدين والامتثال لأوامره . وما زالت آثار الفراعنة وكتاباتهم تؤكد ان المصريين القدماء جعلوا للدين المقام الأسمى فى تفكيرهم

---

(١) انظر تفسير الامام الطرطوشى للآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . (سراج الملوك ؛ ص ٩٧) .

(٢) انظر ما كتبه «مارسيه» فى دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة «رباط» . وكذلك الدكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٢٧ — ١٤٠

ونشاطهم . ولم يكن عجبا بعد ذلك أن تكون مصر بشعبها الدين وطبيعتها السهلة وجوها الدافىء أولى بلاد العالم التى شهدت مولد حركة الرهبانية والديرية فى ظل الديانة المسيحية ، كما سبق أن ذكرنا .

ثم كان التحول العظيم فى تاريخ مصر وأهلها فى القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) ، عندما ترتب على حركة الفتح العربى أن تحولت مصر وأهلها الى الديانة الاسلامية واللغة العربية . وكان من الطبيعى أن يظهر استعداد المصريين الدينى ظهورا واضحا فى ظل الاسلام ، فنسمع عن اتجاه بعض المصريين نحو حياة الزهد والتصوف منذ وقت مبكر . ومن هؤلاء ذو النون المصرى ـ وهو من أهل اخميم بصعيد مصر ـ اختار حياة التصوف ، حتى ظهر من دس له عند الخليفة العباسى المتوكل ، فاتهمه بالزندقة واستدعاه الى بغداد ، فلما مثل بين يدى الخليفة وعظه ، فتأثر المتوكل من كلامه ومنطقه ، وعفا عنه وفك قيوده ، وأعاده مكرما الى مصر .

ويبدو أن ظاهرة التصوف ازدادت شيوعا فى مصر على عصر الدولة الفاطمية . وقد سبق أن أشرنا الى الصلات الواضحة بين التصوف والتشيع ، الأمر الذى يثبته وجود بعض اصطلاحات استعملها الصوفية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، وثبت أنها استعملت من قبل فى العصر الفاطمى . ولكن الحقيقة التى نميل الى تأكيدها هى أنه اذا كان المجتمع المصرى الاسلامى قد عرف التصوف قبل عصر المماليك ، فانه ظل عندئذ تصوفا هادئا

قليل الأثر فى المجتمع ، ولم يشتد تياره ويصبح خطير الأثر فى حياة المصريين الا فى عصر المماليك بالذات .

على أن التصوف ظل ظاهرة فردية فى مصر حتى أواخر القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) عندما أقام صلاح الدين الأيوبى أول بيت للصوفية بعد أن تمت له ازالة الخلافة الفاطمية من مصر . وفى ذلك يقول المقريزى ما نصه : « ولما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد (الفاطمى) وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد ، عمل هذه الدار (خانقاه سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة ... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية » [1] . وهكذا يبدو أنه اذا كان الفاطميون قد استغلوا التصوف لنشر مذهبهم الشيعى ، فان صلاح الدين استغل نفس الظاهرة فى محاربة المذهب الشيعى عن طريق تشجيع « التصوف السنى » .

ولا شك فى أن المصريين أحسوا فى القرن السابع الهجرى بنفس شعور المرارة والأسى الذى أحس به عامة المسلمين عندئذ فى مشارق الأرض ومغاربها . فها هم التتار يطعنون الوطن الاسلامى فى أقصى مشرقه وها هم الأوربيون يطعنون الوطن

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ٤ ص ٢٧٣

الاسلامى فى أقصى مغربه ، وبين هذا وذاك يحرص الصليبيون على أن يصيبوا من المسلمين مقتلا بطعنهم فى مكان هو بمثابة القلب من وطنهم الكبير . وبذلك وجد المسلمون أنفسهم وسط جو لم يألفوه منذ قيام دولتهم ، الأمر الذى جعلهم يتدبرون موقفهم — كما سبق أن أشرنا — ويفكرون فى النجاة عن طريق العودة الى الله . وخير ما يعبر عن هذا الشعور ما ذكره المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ هـ اذ يقول : « لم ينل المسلمون أذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل ما دفعوا اليه الآن . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها . والعدو الآخر الفرنج قد ظهر فى بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ... فانا لله وانا اليه راجعون ! ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !! »[1] .

واذا كان هذا هو شعور المسلمين جميعا وبخاصة فى منطقة الشرق الأدنى ، فان أهل مصر بالذات كانوا أكثر احساسا بالأسى والضيق . ذلك أن الأمر لم يقف عند حد نزول الصليبيين فى دمياط وزحفهم حتى المنصورة من ناحية ، ثم وصول التتار الى غزة على أبواب مصر الشرقية من ناحية أخرى ؛ بل ضاعف من كمد المصريين فى القرن السابع الهجرى احساسهم بالخضوع لنوع جديد من الحكام هم طائفة المماليك . ومهما يقال فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ؛ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

المماليك واعتناقهم الاسلام وجهودهم فى سبيل حماية الوطن الاسلامى من الأخطار التى ألمت به ؛ فان الحقيقة المرة التى كان يصعب على المصريين أن يتناسوها فى سهولة ، هى أن المماليك أغراب عن البلاد وأهلها وأنهم جميعا كانوا رقيقا فى يوم ما ، وأنهم حكموا مصر وأهلها بوصفهم أرستقراطية متعالية فصلتها فجوة واسعة عن أهل البلاد ، وأنهم استحوذوا على أرض البلاد وثروتها ، فقسموا أرض مصر الى أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة للسلطان وعشرة لأمراء المماليك وعشرة لأجناد المماليك . أما أصحاب البلاد الشرعيين من المصريين فقد حرم عليهم حتى ركوب الخيل [1] .

وفى وسط ذلك الجو المشبع بالأسى والحزن والضيق لم يجد المصريون سوى التصوف منفسا للتعبير عن آلامهم ، فازداد عدد المقبلين على التصوف زيادة كبيرة . وقد أطلق على الصوفية اسم الفقراء « لأن الفقر شعار الصالحين » . وكان أن وفد على مصر ــ وبخاصة من المغرب ــ كثير من مشايخ الصوفية ، مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى .. وفى مصر وجدوا المسرح معدًا لنشاطهم ، والناس مهيأين لتلقى تعاليمهم والتربة صالحة لاستنبات آرائهم ومذاهبهم .

وعلى رأس أولئك المشايخ الصوفية الذين وفدوا على مصر فى القرن السابع الهجرى وصار لهم شأن كبير فيها ، يأتى اسم السيد أحمد البدوى ...

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٧٣ ،

الفصل الثاني

من فاس إلى طنطا

مولدي الغـــرب والحجاز بلادي
وَرِيَاضي ومـــكة مـــرباتي
لي مقـــام بأرض طنت شريف
فيه حكمي وسطوتي ورضـــائي

من الظواهر الأساسية التى يلحظها المشتغلون بالدراسات التاريخية هى أن معظم المشاهير والأبطال والعظماء فى التاريخ ، تتصف الأدوار الأولى من سيرهم بالغموض وتضارب الآراء وعدم التحديد . وغالبا ما تظل السنة التى يولد فيها البطل أو العظيم موضع حدس وتخمين ، فى حين أن المعول عليه دائما هو عام وفاة ذلك البطل أو الكبير . ذلك أن الفرد لا يولد بطلا ولا عظيما وانما يولد طفلا صغيرا ضعيفا شأنه شأن مئات الأطفال الذين يولدون كل يوم فى وطنه ، ثم يشب ويترعرع فلا يسترعى انتباه أحد لأنه لا يختلف كثيرا عن غيره من الفتية الذين يترعرعون بين أحضان القرية أو الناحية التى يعيش فيها . فاذا ما دخل فى دور النضج وهيأ له التاريخ فرصة للظهور فى ميدان السياسة أو الحرب أو الدين أو غير ذلك ... أخذت الأضواء تتسلط عليه وأسرع الكتاب والمؤرخون الى استقصاء ما فاتهم من سابق سيرته ، فتكثر القصص وتتضارب حول مولده ونشأته ، فمن قائل انه ولد سنة كذا ، ومن مرجح أنه ولد قبل أو بعد ذلك التاريخ ... وهنا يأتى دور المؤرخ الحصيف ليمحص الحقائق ويقارن القرائن حتى يصل الى الحقيقة أو يقترب منها أكبر قدر مستطاع . وهذا هو السر فى أن سنة الوفاة دائما فى التاريخ القديم والوسيط أثبت من سنة المولد ، الا أن يكون المولود ابن ملك أو عظيم ، وولد بين رحاب

القصور وأحضان العز والجاه ، فعندئذ تتسلط عليه الأضواء منذ مولده — بل قبل مولده — ويكون تاريخ ميلاده فى هذه الحالة أقرب الى الحقيقة والواقع .

وفى ضوء هذه الحقيقة الكبرى اتخذت كتب التراجم سنة الوفاة — لا المولد — أساسا للترجمة لمشاهير الرجال فى عصر معين ، فنسمع عن وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر وقد ترجم فيه لمشاهير الرجال الذين توفوا فى القرن الثامن الهجرى ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى وقد جمع فيه تراجم المبرزين من الرجال والنساء الذين ماتوا فى القرن لتاسع لهجرى ...

واذا كنا الآن بصدد الترجمة لرجل من مشاهير الرجال ، الذين تركوا أثراً واضحا فى الحياة الاجتماعية والفكريةوالدينية بل والاقتصادية فى مصر طوال عدة قرون ، فان علينا أن تنبه القارىء من بداية الأمر الى أن كثيرا من الآراء والمعلومات التى وردت عن السيد أحمد البدوى فى الكتب التى اعتمدنا عليها —مخطوطة ومطبوعة— يغلب عليها طابع الحدس والمبالغة ، وان كان هذا لايعفينا بحال من الأحوال منمسئولية تمحيص هذه الآراء ومناقشتها لتحويلها من مجرد أقوال وآراء الى حقائق تاريخية علمية ثابتة .

نسبه ونشأته :

أجمع جمهرة الكتاب على ربط سلسلة نسب السيد أحمد البدوى بالامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ثم امتدت هذه السلسلة حتى وصلت الى معد وعدنان .

وقد ترجم للسيد أحمد البـدوى رضى الله عنه كل من المقريزى وابن حجر العسقلانى والسيوطى فى عصر المماليك ، والشعرانى وابن أزبك الصوفى وعبد الصمد زين الدين ونور الدين على الحلبى فى العصر العثمانى ، ثم على باشا مبارك وعبده حسن راشد المشهدى فى القرن التاسع عشر للميلاد (الثالث عشر للهجرة) . على أننا لاحظنا خلطا واضحا وتضاربا ملموسا فى مختلف الروايات السابقة ، فضـلا عن الأخطاء الظاهرة ، وخاصة فيما يتعلق بشجرة نسب العلويين .

ولا نريد هنا أن نطيل على القارىء بمناقشة كل رواية من الروايات السـابقة ، وانمـا نكتفى بمقـارنتها وتصـحيحها ، واستخلاص الحقيقة منها ، وبناء على ذلك نستطيع أن نحدد سلسلة نسب السيد أحمد البدوى بأنه : أحمد بن على بن ابراهيم بن محمد بن أبى بكر بن اسماعيل بن عمر بن على بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن عيسى بن على بن محمد بن حسن بن جعفر بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب ابن هاشم بن مناف .

ويذكر المقريزى أنه شهد بصحة نسبه جماعة من آئمة المعاصرين منهم القاضى عبد الوهاب بن التلميذ والسيد عبيد بن محمد الشريف الحسنى الحاكم بالمدينة المنورة ، والشريف أحمد ابن محمد القرشى الحسنى ، والشريف عبد الحكيم المجاور بالمدينة المنورة والفقيه على المنادى ... وأودعت نسخة من هذا النسب بدار الرصاص بالمدينة المنورة .

وثمة رأى تواتر فى المراجع التى بين أيدينا يقول ان أجداد السيد أحمد البدوى من العلويين هجروا الحجاز وانتقلوا الى المغرب الأقصى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهو الرجل الذى حرص فى سبيل تثبيت ملك سادته من بنى أمية على التنكيل بالعلويين والقسوة عليهم . وأخذ بهذه الرواية الشعرانى ، ومن العلماء المتأخرين زمنيا على باشا مبارك ، فقال فى الخطط التوفيقية ان محمد الجواد بن حسن العسكرى انتقل الى فاس بالمغرب ومعه جمع من بنى عمه أيام الحجاج [1] . وهذه الرواية تحتاج منا الى وقفة قصيرة وتصحيح للحقيقة والتاريخ : أولا — لأن محمد الجواد هو ابن على الرضا وليس ابن حسن العسكرى ؛ وثانيا — لأن السيد أحمد البدوى ليس من نسل حسن العسكرى ، وانما هو من نسل أخيه جعفر بن على الهادى . وبعد ذلك نجد فى هذه الرواية خطأ تاريخيا واضحا ، اذ أنها

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٣ ص ٤٨ (بولاق) . وكذلك الشعرانى : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٢٠٢

تنص على أن أجداد السيد أحمد البدوى انتقلوا الى مدينة فاس بالمغرب سنة ٧٣ هـ على أيام الحجاج بن يوسف الثقفى . ولكن اذا كان الحجاج قد توفى فى أواخر القرن الأول للهجرة فان مدينة فاس نفسها لم تؤسس الا فى أواخـــر القرن الثانى للهجرة ، أى بعد وفاة الحجاج بقرن من الزمان تقريبا [1] . فاذا حاولنا أن نلتمس لأصحاب هذه الرواية بعض العذر وقلنا انهم ربما قصدوا أن أجداد السيد أحمد البدوى هاجروا الى المغرب عموما ـــ دون تحـــديد لمدينة معينة ـــ على أيام الحجاج بن يوسف ، فان هذا يتعارض تاريخيا مع ما هو معروف من أن على زين العابدين توفى بالمدينة المنورة ودفن فيها سنة ٩٤ هـ ، وكذلك دفن فيها كل من الامام محمد الباقر ســـنة ١١٨ هـ ، والامام جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ !!

ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو لنا أن على باشا مبارك وغيره من الكتاب السابقين واللاحقين ، أخذوا هذا الرأى عن الشيخ يونس بن عبد الله المسمى بابن أزبك الصوفى ، وهو من المصادر الأولى التى روت نسب السيد أحمد البدوى ، وقد

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ـ مادة فاس ـ ج ٤ (طبعة بيروت) ، وقد كتب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال أكثر من بحث حول مدينة فاس والمشاكل التاريخية الخاصة بتأسيسها ، كما بحث هذا الموضوع بحثا وافيا الدكتور السيد عبد العزيز سالم (المغرب الكبير ـ العصر الاسلامى : ص ٤٨٧ وما بعدها) . ونخرج من هذه الدراسة بأن فاس العربية التى ولد فيها السيد أحمد البدوى انما أسسها ادريس الثانى حوالى سنة ١٩٠ هـ وهى على مقربة من فاس الأولى التى أسسها أبوه ادريس بن عبد الله سنة ١٧٢ هـ والتى كانت بربرية الطابع .

حدد دخول أجداده فاس بسنة ٧٣ هـ ؛ وقال انهم عندما دخلوا فاس عندئذ « أحبهم أهلها وكذلك السلطان واعتقدوا فيهم اعتقادا زائدا » . ولا ندرى أى سلطان هذا الذى كان بالمغرب فى ذلك الوقت المبكر ، لأن هذا اللقب بالذات لم يستعمل فى المغرب الا فى وقت متأخر [1] . وهكذا يبدو لنا أن ابن أزبك الصوفى رأى الأحـــدث بعين العصر العثمانى الذى عاش فيه لا بعين العصر الذى يؤرخ له فعلا .

وربما كانت الرواية التى رواها عبد الصمد فى كتابه الجواهر السنية أقرب الى الصواب ؛ اذ يقول على لسان الشريف حسن أخى السيد البدوى : « قدمنا على مدينة فاس وأقمنا بها سنة خمس وثلاثين وخمسمائة » ؛ أى أن أسرة السيد أحمد البدوى استقرت فى فاس فى القرن السادس للهجرة ؛ وهذا لا يتعارض مع فكرة وجود الأسرة بالمغرب قبل هذا التاريخ الذى يحدد انتقال الأسرة الى مدينة فاس بالذات [2] .

وكانت مدينة فاس فى ذلك الوقت قد أخذت تزدهر لتصبح حاضرة المغرب الأقصى ومقصد العلماء والتجار . ومن مدارس فاس أخذت تنتشر المؤثرات الثقافية والدينية ــ فضلا عن اللغة العربية ذاتها ــ فى المغرب الأقصى بأجمعه [3] . ويفهم من أقوال

---

(١) صار لقب « السلطان » لقبا عاما لكل من يدعى ولاية عامة مستقلة فى العالم الاسلامى ، ويرجح أنه ظهر لأول مرة فى المغرب العربى على أيام بنى حفص فى القرن السابع الهجرى ــ انظر : (حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٣٢٩)

(٢) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٢٠

(٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٧٠

الذين ترجموا للسيد أحمد البدوى أن أجداده وآباءه استقروا فى فاس حيث حظوا برضاء الحكام وعطفهم . ولا شك فى أن هذا الرضاء والعطف وجد تعبيرا فى العطاء المادى ، شأنهم شأن بقية الأشراف من بيت الرسول صلى الله عليه وسلم الذين حظوا فى البلاد التى استقروا فيها بمقررات ومعونات مادية مكنتهم من الحياة فى مستوى لائق كريم . من ذلك ما ورد فى بعض الروايات من أن أجداد السيد أحمد البدوى تملكوا « أموالا وعقارا ، وكذلك سائر الأشراف ، وسكنوا بمدينة فاس » . بل ان أكابر المغرب وحكامه كانوا يجدون شرفا عظيما يتفاخرون به عندما يصاهرون الأشراف ، فعقدت سلسلة من الزيجات بين الطرفين . حتى أن الشريف ابراهيم — جد السيد أحمد البدوى — تزوج بابنة أخى « السلطان » فولدت له علياً ، الذى تزوج بدورة « ابنة جليلة المقدار عالية ظاهرة الفخار » ؛ هى فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبد الله بن مدين بن شعيب المزنية ، وأمها أسماء بنت عثمان بن أبى بكر المزنية . وقد أنجب الشريف على من زوجته السيدة فاطمة ستة أبناء وبنات هم : حسن ومحمد وفاطمة وزينب ورقية وأخيرا أحمد الذى لقب فيما بعد بالبدوى . وهكذا جرت فى عروق السيد أحمد البدوى دماء ، هى خليط من دماء العرب الخالصة ودماء المغاربة البربر فى شمال افريقية .

وكان مولد السيد أحمد البدوى — على قول الروايات — فى مدينة فاس سنة ست وتسعين وخمسمائة هجرية (١٢٠٠ م) ؛

وهو سادس اخوته . ويقال ان أمه رأت فى المنام عند ولادته من قال لها : « أبشرى فقد ولدت غلاما ليس كالغلمان !! » . ولم تمـدنا المراجع بشىء عن حياة السيد أحمـد البدوى فى طفولته ، ويبدو أنه عاش فى دار الأسرة بزقاق « الحجر البلاط » فى فاس ؛ وفى تلك البيئة الطيبة نشأ نشأة دينية خالصة تركت أبلغ الأثر فى مستقبل حياته . ويقال ان ميوله نحو الزهد أخذت تظهر منذ ذلك الدور المبكر ، حتى لقبه قومه فى طفولته بالزاهد ، كما يقـال انه لبس خرقة التصـوف فى فاس على يد الشيخ عبد الجليل النيسابورى ، وكان الشريف حسن ـ شقيق السيد أحمد البدوى ـ قد أخذ خرقة التصوف عن ذلك الشيخ ، فجمع أخاه أحمد عليه ليلبسه هو الآخر خرقة التصوف [1] .

الرحيل الى مكة :

ولم يكد السيدأحمدالبدوى يتم من العمر سبع سنوات حتى أقدم أبوه على خطوة هامة كان لها أخطر الأثر فى مستقبل الفتى الصغير ؛ أعنى بهذه الخطوة الهجـرة من المغرب والعودة الى الحجاز للاستقرار بمكة . ولا ندرى بالضـبط الدافع الحقيقى الذى دفع الشريف على ـ والد السيد أحمد ـ الى الاقدام على هذه الخطوة الجريئة ذات الأثر البـالغ فى مستقبل تاريخ أسرته . واذا كنا لا نسـتطيع أن نقبـل الرواية المتواترة فى المراجع ، والتى تؤكد أن عليا رأى هاتفا فى المنام يأمره بالرحيل

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٢٠

الى مكة ، ويقول له : « ارتحل من هذا المكان الى مكة ، فان لنا فى ذلك شأنا » ؛ فان هذا يدفعنا الى محاولة الوقوف على الدافع الحقيقى وراء تلك الخطوة . لقد أعلن الشريف على عندما اتخذ قراره بالهجرة الى الحجاز أنه انما يرغب فى تأدية فريضة الحج ، ولكن هل رغبته فى اداء هذه الفريضة تبرر اصطحابه زوجته وأولاده جميعا معه فى تلك الرحلة الشاقة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يفكر فى العودة الى فاس بعد اداء الفريضة ؟؟

الواقع ان الأمر يبدو فى نظرنا أكثر عمقا وأشـــد ارتباطا بالتاريخ السياسى للمغرب العربى فى ذلك الدور . ذلك أن آباء السيد أحمد البدوى عاشوا فى فاس وحظوا بعطف الحكام من المرابطين ، كما سبق أن رأينا . وكان المرابطون الى حد بعيد يدينون بالمذهب المالكى ، وهو المذهب الذى انتشر عندئذ فى المغرب العربى ونجح نجاحا كبيرا فى الاحتفاظ للمجتمع المغربى بوحدته وقوته . ومن أتباع هذا المذهب كانت أسرة السيد أحمد البدوى ، الذى تفقه نفسه على مذهب الامام مالك . ولكن حدث فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر للميلاد) أن دالت دولة المرابطين فى المغرب العـــربى وحلت محلها دولة الموحدين . وقد أقام الموحدون دولتهم على أساس فقه المعتزلة ، فاضطهدوا أهل السنة ، وكفروا الفقهاء ، وأحرقوا كتبهم ، وشردوهم فى الآفاق . وفى ذلك الجـــو العـــدائى المشـــحون بالاضـــطراب والقلق ، كان من الصـــعب ـــ ان لم يكن من المتعذر ـــ على الأشراف أن يستمروا فى معيشتهم الهادئة الآمنة ،

فأخذوا يتسللون من المغـــرب الى المشرق . وما زال الشريف علي ـــ والد السيد أحمد البدوى ـــ يتحين الفرصة للخلاص ، حتى أتيحت له سنة ثلاث وستمائة هجرية ، فتظاهر بالخروج للحج ، وفى نيته عدم العودة . هذا فى رأينا هو التفسير الحقيقى لتلك الخطوة التى ترتبت عليها أخطر النتائج بالنسبة لتاريخ السيد أحمد البدوى .

وتروى الأساطير أن أهل فاس حزنوا لفراق الشريف على وأسرته ، وخرجوا لوداعهم « فبكت علينا العبـــاد والزهاد ، وقالوا لنا قد أظلمت علينا لفراقكم البلاد ؛ ولما خرجنا من مدينة فاس حزن علينا أهلها حزنا شديدا وخرجنا من عند أهلها بالرغم عليهم ... » ؛ وذلك وفقما جاء فى الأساطير على لسان الشريف على نفسه . وقد أشارت المراجع الى رحلة الأسرة من فاس الى مكة فى اقتضاب شديد ، فجاء على لسان الشريف حسن ـــ أكبر اخوة السيد أحمد ـــ : « فبينما ننزل على عرب ونرحل عن عرب حتى وصلنا الى مكة المشرفة » . وكان الشريف على رب الأسرة يتقدم الركب على هجينه ، فى حين تتبعه بقية الأسرة تحت رئاسة أكبر أبنائه الشريف حسن . ويبدو أنهم قوبلوا بالحفاوة والتكريم أينما حلوا بوصفهم من الأشراف الذين ينتمون الى بيت الرسول عليه الصـــلاة والســـلام ؛ ومن ذلك ترحيب حاكم تونس بهم وحرصه على توديعهم عند مفارقتهم بلاده .

على أنه ثمة حلقة مفقودة على جانب خطير من الأهمية فى رحلة الشريف على وأسرته من فاس الى مكة ، هى الحلقة المتعلقة

بمصر ومرورهم بها واقامتهم فيها ومدى تأثرهم بأوضاعها . فمن الثابت المقطوع به أن القوم مروا بمصر فى طريقهم من فاس الى مكة ــ وكان ذلك فى عهد السلطان العادل سيف الدين الأيوبى أخى صلاح الدين ، وكانت هــذه أول مرة يرون فيها أرض مصر وأهلها . لذلك نميل الى الاعتقاد بأن هذه الزيارة تركت أثرا عميقا فى نفوسهم جميعا ، وعلى وجه الخصوص أصغرهم سنا ــ السيد أحمد ــ الذى كان فى ذلك الدور صبيا طموحا له آماله الخاصة فى الحياة . وسنرى فيما بعد أن السيد أحمد لم يأت الى مصر ليستقر فيها نهائيا الا بعــد أن طاف ببعض البلدان العربية الأخرى فى الشرق الأدنى ، وعندئذ خرج بفكرة واضحة عن العــالم العربى الاسلامى ، مغربه الذى رآه فى صباه ، ومشرقه الذى درس أحــواله فى شبابه . ومن هــذه التجارب توصل السيد أحمد البدوى الى الحقيقة الكبرى ، وهى أن مصر أصلح البلاد التى رآها لتحقيق آماله ؛ فالحياة فيها أكثر هــدوءا واستقرارا وأهلهــا أكثر الشعوب مسالمة واستجابة ، وأحوالها العامة أكثر قابلية لنشر مبادئه وآرائه .

ثم ان الشريف على وأسرته لم يتخــذوا مصر مجرد معبر يوصلهم الى الحجاز ، ولم يمروا بها مرورا سريعا مثلما مروا ببقية البلاد التى سلكوها فى طريقهم من المغرب الى المشرق ، وانما اختاروا أن يقيموا بأرض مصر وبين أهلها بضع سنين . وربما كانت طبيعة مصر الخضراء السهلة التى اختلفت اختلافا بينا عن الأراضى الصحراوية التى سلكوها فى معظم أجــزاء رحلتهم

الشاقة الطويلة ؛ فضلا عن كثرة خيراتها وسهولة العيش فيها ، هى التى جعلت اقامة الشريف على وأسرته تطول فى مصر . واذا كانت الأسرة قد رحلت بعد ذلك الى الحجاز فان هذا كان أمرا طبيعيا بعد أن أعلنها الشريف على منذ مغادرته فاس أنه انما قصد الحج ، ولا يليق به بعد ذلك أن يتنكر للهدف الكبير الذى أعلنه . وليس هناك من شك فى أن القوم عندما تركوا مصر الى مكة ، انما تركوها آسفين .

وهناك بعض الخلاف فى المراجع حول الفترة التى قضتها تلك الأسرة فى مصر . واذا كان هناك شبه اجماع على أنهم خرجوا من فاس سنة ثلاث وستمائة للهجرة ، فان سنة وصولهم الى مكة صارت موضع نقاش وجدل . فبعض الكتاب حددوا وصولهم الى مكة بسنة سبع وستمائة ، أى أنهم قطعوا الرحلة فى أربع سنوات ، وممن قال بهذا الرأى عبد الصمد [1] . ولكننا نرجح الرأى الثانى الذى حدد وصولهم الى مكة بسنة تسع وستمائة ، بمعنى أن الرحلة تمت فى ست سنوات ، وممن قال بهذا الرأى السيوطى وابن أزبك الصوفى [2] . فاذا كانت الرحلة من فاس الى مكة لا تستغرق فى تلك العصور أكثر من عام واحد ، فمعنى ذلك أن أسرة الشريف على أقامت فى مصر نحوا من ثلاث سنوات اذا صح الرأى الأول ، أو نحواً من خمس سنوات اذا صح الرأى الثانى . وهذا الرأى الأخير الذى أخذنا به يتفق

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ١٥
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ؛ جـ ١ ص ٢٩٩

مع بعض الروايات من أن القوم أقاموا بمصر خمس سنين وأنهم سكنوا القرافة [1] . واذا كان الأمر كذلك ، فلا يمكن أن تكون هذه السنوات قد مرت دون أن تترك انطباعات معينة فى عقلية السيد أحمد البدوى ونفسيته ، وهو الفتى الطموح المتطلع للمستقبل .

وبعد ذلك ننتقل الى نقطة أخرى لم تتعرض لها المراجع ، هى ذكر البلاد والقرى التى مرت بها أسرة الشريف على داخل مصر ، سواء فى طريقها من المغرب الى القاهرة أو من القاهرة الى مكة . واذا كانت الوثائق التى تحت أيدينا لم تذكر اسم مدينة أو قرية واحدة مرت بها أسرة الشريف على ، فليس معنى ذلك أنهم لم يروا سوى مصر والقاهرة والقرافة ؛ وانما المعقول فى نظرنا أنهم مروا ببعض المدن الأخرى الكبيرة مثل الاسكندرية ، فضلا عن بعض الأقاليم وبخاصة البحيرة والشرقية ووسط الدلتا . ولا أستبعد مطلقا أن تكون الأسرة قد مرت فى طريقها — الى القاهرة أو من القاهرة — بالغربية ، وأن السيد أحمد البدوى رأى عندئذ طنطا أو سمع بها . والا بماذا نعلل اتجاه السيد أحمد بعد ذلك — عندما آن الأوان — الى طنطا مباشرة ، واصراره على اختيارها دون غيرها من مدن مصر وقراها العديدة مقرا ومقاما ؟

---

(١) نور الدين الحلبى : النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الاحمدية — تحقيق أحمد عز الدين خلف الله ؛ ص ٣٤

وقد وصف البلوى المغربى قرافة مصر فى تلك العصور بأنها « بلدة كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها » . انظر :

سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ؛ ص ١٠٩ — ١١١

حقيقة ان كتاب سيرة السيد أحمد البدوى يرجعون هذا التصرف — مثل بقية تصرفاته — الى ما يشبه الوحى ، فيقولون أن هاتفا أتاه فى المنام وأمره بالاتجاه الى طنطا فورا ؛ ولكن مثل هذا الكلام غير مقبول للعقل الحديث ، فلا بد وان كانت لدى السيد أحمد فكرة — استقاها بالبصر أو بالسمع أو بكليهما — عن طنطا ؛ ولا نستبعد أن تكون أصول هذه الفكرة وجذورها الأولى تمتد الى تلك الفترة التى قضاها السيد أحمد مع أسرته فى مصر .

وهكذا خرجت أسرة الشريف على من مصر قاصدة مكة تحمل ذكريات سنوات قليلة ولكنها عميقة ، وانطباعات عديدة عبرت عن نفسها فيما بعد تعبيرا قويا فى تصرفات أصغر أفراد الأسرة وهو السيد أحمد البدوى .

عند بيت الله :

وأخيرا وصل ركاب القوم الى مكة ، فاستقبلوا استقبالا حافلا من أهلها . وتحرص الأساطير على أن تضفى هالة براقة مصطنعة على السيد أحمد البدوى وقومه فى ذلك الدور ، فلم يقتصر الأمر على خروج أهل مكة وأشرافها وأميرها لتحية القادمين والترحيب بهم ، بل يروى الرواة أن أهل المدينة المنورة ما كادوا يسمعون بقدوم تلك الأسرة الشريفة الى مكة حتى قصدوهم متلهفين مستبشرين بقدمهم . أما أمير المدينة نفسه فقد أتى مهرولا يسأل عن صبى من أفراد الأسرة اسمه أحمد ،

وألح فى الاستفسار والسؤال عنه بعد أن وصف بعض صفاته الجثمانية وصفا دقيقا ينطبق على صفات السيد أحمد البدوى ، وادعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراه اياه فى المنام ووصفه له وصفا دقيقا « وقال يخرج من الغرب وهو ابن سبع سنين ويدخل مكة وهو ابن احدى عشرة سنة ، وأشار لى أن أسير اليكم وأجتمع بكم وأسلم عليكم وعلى الشريف أحمد الملثم ، وأسلم عليه وأتبرك به ؛ وقال لى انه سيظهر له حال وأى حال ، ويربى المريدين ويجىء منهم رجال وأى رجال !! » . ولا شك فى أن هذه المبالغة مقصودة من جانب كتاب سيرة السيد أحمد البدوى ، ليظهروا للقارىء عظم مكانته ، وكيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام بشر بظهوره ، وليعدوا عقلية القارىء أو المستمع لتقبل المعجزات التى نسبوها اليه فيما بعد . وتمشيا مع هذه الحقيقة حرص أولئك الكتاب على أن يجعلوا كل تصرف من تصرفات السيد أحمد البدوى أو اخوته فى ذلك الدور ؛ انما هو تنفيذ للمشيئة الالهية ، واستجابة لأوامر يتلقونها من الله مباشرة عن طريق هاتف !!

من ذلك أن الأسرة لم تكد تستقر فى مكة — حتى جاء الشريف حسن — الأخ الأكبر للسيد أحمد البدوى — هاتف فى المنام يأمره بالمسير فورا الى اليمن والزواج من فاطمة بنت على أبى الخير ، وهى احدى بنات الأشراف ، من نسل الامام الهادى . ولما أخبر الشريف حسن أباه برؤياه ، اتضح أن الأب رأى رؤية مشابهة بنفس المعنى ، ولكن الأب كان أكثر اطلاعا

على الغيب ، فنصحه بالتريث والانتظار وعدم السفر الى اليمن « وتجيئك بنفسها الى ها هنا ! » . وفعلا صدقت الرؤيا ــ كما يحكى الرواة ــ وأتت العروس مع أهلها الى مكة ، وكانت تشكو من مرض عضال استعصى أمره على الأطباء ــ فوعد أبوها بتزويجها من الشريف حسن اذا برأت ؛ وكان أن تم ذلك فتزوجت منه سنة سبع عشرة وستمائة للهجرة (١٢٢٠ م) وبذلك «اتصل النسب بالنسب والشرف بالشرف !!» . وبعد قليل تزوج الابن الثانى للشريف على ــ وهو الشريف محمد ــ بمرجانة بنت ابراهيم ، مما يدل على أن الأسرة الجديدة بدأت تستقر فعلا فى مكة ، وأن أفرادها أخذوا ينظمون أوضاعهم الاجتماعية فى جو مشبع بالهدوء والاستقرار . ولكن شاءت الظروف أن يحدث حدث عكر على الأسرة صفو سعادتها ، اذ توفى عميدها الشريف على سنة سبع وعشرين وستمائة ، ولحق به ابنه الثانى محمد بعد ذلك بأربع سنوات ، وبذلك لم يبق من الاخوة الذكور سوى أكبرهم حسن وأصغرهم أحمد .

وكان من الطبيعى أن يرعى الأخ الكبير مصالح أخيه الصغير ومستقبله فعرض حسن على أخيه أحمد الزواج ، ولكن السيد أحمد رفض قائلا : « يا أخى ! تأمرنى بالزواج وأنا موعود من ربى أن لا أتزوج الا من الحور العين الحسان اللائى خلقهن الرحمن وأسكنهن الجنان !! » فكف الشريف حسن منذئذ عن مفاتحة أخيه فى ذلك الموضوع « ولزمت معه الأدب ! » . ولم يكن الامتناع عن الزواج هو المظهر الوحيد للاتجاه العام الذى

اتجه فيه السيد أحمد البدوى فى ذلك الدور ، وانما جاء اضرابه عن الزواج مصحوبا برغبة شــديدة فى العزلة والعكوف على العبادة والصوم عن الطعام والكلام . وكان السيد أحمد البدوى قد غدا عندئذ رجــلا ناضجا ، تجاوز الثلاثين من عمــره ، واستطاع أن يرسم لنفسه الطريق الذى فضله . هذا الى أنه كان قد حصل قسطا لا بأس به من التعليم الدينى ، لأنه بعد أن تفقه فى صــباه على مذهب الامام مالك فى فاس وحفــظ القرآن ، استكمل تعليمه فى مكة ، فأتم دراسته على مذهب الشافعى وتعلم القراءات السبع للقــرآن . على أنه يفهم من المراجع التى تناولت سيرة السيد أحمد البدوى أنه لم يعكف فى مكة على حياة الزهد الا بعد أن عرك الحياة العامة بين ربوعها ، بدليل قول أخيه الشريف حسن عنه « ولم يكن فى مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخى أحمد ، فسميته العطاب محرش الحرب » [١] .

وهكذا اشتهر السيد أحمــد البدوى فى مكة بالشجاعة والورع والزهــد والتدين . ولكنه لم يلبث أن ضاق ذرعا بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فاعتاد أن يتردد على مغارة فى جبل أبى قبيس قرب مكة ليتعبد فيهــا وحيدا منفردا . ويبدو أن السيد أحمد لم ينصرف فى عزلته الى التأمل والعبادة فحسب ،

---

(١) عبد الصمد الجواهر السنية ، ص ١٧

بل ربما امتد تفكيره أيضا الى ذاته ومستقبله ، حتى جره ذلك التفكير فجأة الى قرار خطير ، هو الرحيل الى العراق .

السيد أحمد البدوى فى العراق :

علم الرغم من أن الشريف حسن كان الأخ الأكبر ، والشريف أحمد البدوى هو الأخ الأصغر ، الا أن الأساطير تحرص على أن تبرز أحمد فى ذلك الدور فى صورة الأكثر نفوذا والأوسع مدا . فالشريف حسن مع كونه أكبر سنا الا أنه التابع والمستشار ، والشريف أحمد هو المتبوع وصاحب الرأى . وكان أن فاتح أحمد أخاه الأكبر فى نية السفر الى العراق ، وعندئذ تخوف حسن من المشروع ونهى أخاه عنه . ولكن يبدو أن السيد أحمد أظهر اصرارا لم يستطع الحسن مقاومته ، فأذعن لرأى أخيه ، وتوكل الأخوان على الله وشرعا فى الرحيل الى العراق عام ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) .

وهنا نجد أنفسنا فى حاجة الى وقفة قصيرة لمحاولة تفسير العوامل الكامنة وراء رحلة السيد أحمد البدوى الى العراق . ذلك أن البعض رأى فى رحلة السيد البدوى الى العراق ضرورة حيوية ، لأن العراق غدا منذ أمد بعيد مركزا من مراكز التصوف فى المشرق الاسلامى ، واشتهر به من زعماء المتصوفة فى القرن السادس الهجرى أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى اللذان شغف بهما وبسيرتهما السيد أحمد البدوى ، ورآهما فى المنام

أكثر من مرة [1] . لذلك كان من الطبيعى أن يسعى السيد أحمد الى العراق ليستكمل تأهيله الروحى فى دنيا التصوف ، ويحاول أن يقف على مزيد من أخبار أهل الطريق . هذا فضلا عن أن العراق كان عندئذ لا يزال مركزا للخلافة العباسية ، ومن ثم فقد كان له وضع دينى خاص فى نظر المسلمين جميعا ، فلا أقل من أن يفكر أى مسلم طموح فى ذلك العصر فى زيارته ، لأن الفكرة السائدة عندئذ هى أنه حيث توجد الخلافة يوجد الدين والعلم . ثم انه اذا كان السيد أحمد البدوى قد تصوف فعلا ، فان الرحلة كانت ركنا أساسيا فى حياة الصوفى ، لأن السفر بما فيه من شدائد وتجارب وتحصيل معارف ، مدرسة يتعلم فيها المريد ويربى استعداداته الخلقية وينمى مواهبه ومداركه . أما بالنسبة للقطب فان الرحلة تمكنه من تقويم الفساد المنتشر فى الأرض ، ومن اكتساب الأعوان والمريدين الذين يصبحون عونا له فى اصلاح ذلك الفساد ؛ — وأهم من هذا وذاك — من اختيار المسرح الملائم لنشاطه وجهوده ونشر رسالته [2] .

ويؤدى بنا هذا الرأى الأخير الى تفسير — يبدو فى نظرنا صحيحا — لرحلة السيد أحمد البدوى الى العراق . ذلك أن الدارس لسيرته — رضى الله عنه — لا يستطيع أن ينكر حقيقة هامة ، هى أنه كان طموحا وطموحا جدا ؛ وأنه سمع عن

---

(١) ابراهيم أحمد نور الدين : حياة السيد أحمد البدوى ص ٣٢
(٢) الحلبى : النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الاحمدية ؛ ص ٤٠

السابقين من كبار الأئمة ، فأراد أن يحاكيهم ، بل أن يتزعمهم ويتفوق عليهم بزهده وتقشفه وقدرته على اكتساب الأتباع . وكان أن سلك السيد أحمد مسلك الزاهد المتعبد فى مكة ، وقصد غارا فى أحد جبالها للانقطاع للعبادة حتى تحدث بذكره الناس . ولكن ذلك كان أقل بكثير مما يتسوق اليه . وأخيرا أدرك السيد أحمد أن مكة مع عظم مكانتها أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله ، ففكر فى الهجرة منها الى بلد واسع الامكانيات البشرية والمادية ، وليكن ذلك البلد هو العراق ، أرض الأئمة والأقطاب . يؤيد رأينا هذا أن الرواة عللوا رحلة السيد أحمد البدوى الى العراق برؤية رآها قيل له فيها « لا تنم ! فمن طلب المعالى لا ينام .. وحق آبائك الكرام سيكون لك حال ومقام » . اذن فقد كان السيد أحمد البدوى فى ذلك الدور يطلب المعالى ويرجو أن يكون له حال ومقام . وهذا أمر كان يتعذر أن يتحقق فى مكة ، لأن من يقصد مكة أو يعيش فيها كان يستحيل عليه أن يولى ظهره للكعبة وهى بيت الله الحرام ، ليوجه وجهه شطر السيد أحمد البدوى ومقامه ...

ويبدو لنا أن السيد أحمد البدوى اعتقد عندما شرع فى رحلته الى العراق أنه سيتمكن بفضل شخصيته وسلوكه ونسبه من تزعم الحركة الصوفية بالعراق ، واجتذاب ولاء الناس اليه فينصرفوا عن مشايخهم ، الأحياء منهم والأموات . يدل على ذلك ما روى عنه أنه رأى فى المنام أكثر من مرة أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى ــ وهما من أقطاب المتصوفة بالعراق ــ

يلحان عليه فى زيارة العراق وتسليمه مفاتيح البلاد . ولم يكن الشريف حسن ـ أخو السيد أحمد ـ على ذلك الرأى ، وهذا سر تمنعه فى أول الأمر عن مرافقة أخيه ؛ لأنه كان يعلم تماما أن لكل بلد أقطابه ومشايخه ، وأنه ليس من السهل زحزحة الناس عن عقيدتهم الراسخة فى شيخ معين من أجل ولى وافد جديد .

وقد عبر الشريف حسن عن هذه المعانى عندما قال لأخيه أحمد « اعلم يا أخى يا أحمد أن كل بلاد لهـا رجال ، ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى ، واذا دخل بلادهم أحد من الرجال من أرباب الأحوال أمرهم قطبهم بالرواح اليه والاجتماع عليه ، فان كانوا أقوى منه رجعوه ، وان لم يتأدب معهم قتلوه وسلبوه ، وان كان أقوى منهم زجرهم وبددهم وفرق شملهم يمينا وشمالا ... وانى أخاف عليك من بلاد العراق ، فانها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين !! » .

ولكن السيد أحمد أصر على رأيه ، وروى أن الهاتف عاوده أكثر من مرة ، وقال له : « يا أحمد يا بطال [1] ، ما يخاف من الرجال الا من ليس وراءه رجال ، وأنت وراءك رجال وأى رجال ! » . ثم روى بعد ذلك أن السيدين أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى حضرا اليه فى المنام وقالا له : « يا أحمد قد جئناك ببشارة عظيمة » قال « وما هى » قالا « يا أحمد قد جئناك بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق

---

(١) البطال : لقب من ألقاب السيد أحمد البدوى ـ نتعرض له بالشرح فيما بعد .

والمغرب بأيدينا ، فان كنت تريد أى مفتاح شئت أعطيناكه » . فرد عليهما السيد أحمد البدوى عليهما قائلا « أنا منكما ، ولكن أنا ما آخذ المفتاح الا من يد الفتاح » . وعندئذ قال له السيد أحمد الرفاعى « يا ابن عمى يا أحمد ، هذا السيد عبد القادر قد صرفه الله تعالى فى وفيك وفى سائر الأحوال ، وقد خصصناك من بين سائر الرجال ، وهى هدية من الكبير المتعال ، ونحن وأنت فى عصر واحد ولم يدخل بيننا دخيل ، تزداد بنا شرفا ونزداد بك تجملا ، فخذ أى مفتاح شئت ، فانا أعطيناك مفاتيح البلاد والعباد بأمر الله تعالى ، ولا بد أن تزورنا ونوجهك فى أمر فيه مجال ، فان جميع الأولياء نظروا فى تواريخ الرجال فما رأوا كفؤا لهذا الأمر الا أنت يا فحل الرجال ، فانهض وزرنا وخذ فتوحك منا ، وهذه الاشارة التى بيننا وعليها اتفقنا !! » [1] .

هذه خلاصة الأحلام التى قيل ان السيد أحمد البدوى رآها قبيل الشروع فى رحلته الى العراق ، وهى توضح لنا مدى طموحه ، وما كان يعلقه من آمال فى الاستحواذ على السيادة الروحية التى كانت لمشايخ العراق ، وبخاصة أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى . وكان أن خرج السيد أحمد البدوى صحبة أخيه الشريف حسن الى العراق سنة أربع وثلاثين وستمائة للهجرة ، الأول يدفعه الأمل ، والثانى يمسكه الشك

(١) الخفاجى : النفحات الاحمدية ؛ ص ٢٣٨ — ٢٤١

والخوف . وقبل أن تتكلم عما أصابه السيد أحمد البدوى فى رحلته الى العراق من نجاح أو فشل ، يصح أن نشير الى خط سيره والأماكن التى حرص على زيارتها .

اتجه الأخوان أولا نحو بغداد قاعدة الخلافة العباسية ، فزارا قبر الحسين بن منصور الحلاج ، وهو أحد كبار صوفية المسلمين ، عرف بميوله الشيعية ، ونادى بوحدة الوجود ، واستشهد فى سبيل آرائه المتطرفة [1] . وبعد أن زارا ضريح الشيخ الجيلانى ، قصدا الكاظمية لزيارة مقابر أئمة الشيعة ، وعلى رأسهم موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وحفيده محمد الجواد . ومن بغداد اتجه الأخوان الى الجنوب الشرقى حيث وادى قوسان ، وبه قبر تاج العارفين الشيخ أبو الوفاء ، وهو كما يرجح الشيخ على اليثربى بن موسى بن جعفر ، ويعتبر من كبار الأولياء فى تلك الناحية . وقد قضى الأخوان الليل فى ضريح أبى الوفاء ، فرأيا فى المنام السيد أحمد الرفاعى يأمرهما قائلا « لا تذهبا من هذا المكان حتى تزورا كل الصالحين ، وارجعا الى الشيخ مسلم الذى تفرقت منه الرجال وزوراه ، وتعالى عندى يحصل لكما الشرف الأعلى » . وكان أن نفذ الأخوان رغبة السيد الرفاعى فزارا الشيخ مسلم والشيخ موسى الزوالى والشيخ على بن وهب وغيرهم . ويبدو أن السيد أحمد البدوى صحب أخاه الشريف حسن الى شمال العراق ــ شمالى الموصل

---

(١) زكى مبارك : التصوف الاسلامى ؛ جـ ١ ص ٢٠٩ وما بعدها .

ــ حيث تجولا فى منطقة الهكارية ، وهى منطقة معظم أهلها من الأكراد ، طبيعتها جبلية صعبة ، الأمر الذى عرضهما لكثير من المصاعب والشدائد ، وخاصة بعد أن ضـــلا الطريق فى بلاد الأكراد .

وقد اعترف الرواة الذين عالجوا سيرة السيد أحمد البدوى بالصعاب التى صادفها فى ذلك الدور ، فروى على لسانه أنه قال : « وتهنا فى بلاد العراق وبقينا كالأعمى لا نعـــرف ملجأ نلتجأ اليه » . هذا الى أن الأكراد لم يحسنوا معاملتهم على ما يبدو ،فأحدقوا بهم وقالوا لهم : « ارجعوا يا عرب قبل أن يحل بكم العطب ! » . هذا وان كانت الروايات تحرص دائما على أن تحتفظ للسيد أحمد البدوى بمكانته ، فتظهره فى صورة القوى القادر الرحيم ، الذى توفرت له من أسباب القـــدرة ما مكنه من الانتصار دائما على خصومه . من ذلك أن الأكراد الهكارية ما كادوا يتطاولون على السيد أحمد البدوى وأخيه ، حتى قال لهم الشريف حسن : « يا قوم الزموا الأدب ، فنحن من أهل الحسب وأعلى النسب ، من قبل أن يقع عليكم الغضب ويحل بكم العطب وتسكنوا التراب !! » . ثم أومأ اليهم الحسن بيده وقال لهم : « موتوا باذن الله تعالى » فوقعوا جميعا على الأرض موتى . ثم التفت الشريف حسن الى أخيـــه وقال : « يا أحمد ! هذا فعل الرجال بالرجال !! » ولكن السيد أحمد البدوى حرص على التحلى بخلق العفو عند المقدرة ، فقال لأخيه: « يا أخى ، الفتوة ! الفتوة !! » وعنـــدئذ رد عليه الشريف

حسن « يا أحمد أنت أكبر الفتيان » ثم التفت الى الأكراد الموتى وقال لهم : « قوموا باذن من يحيى الموتى ويميت الأحياء » فدبت فيهم الحياة ، ونهضوا جميعا يقبلون أقدام السيد أحمد البدوى وأخيه . ثم تستمر الرواية فتقول ان أولئك القوم عادوا الى قطبهم وأخبروه بما حدث لهم ، فقال لهم : « نعم ! يطأ هذه الأرض رجال من العرب من أهل الحسب وأعلى النسب ، من سلم لهم سلم ، ومن عاداهم عطب ، فقوموا بنا الى لقائهم ونحن فى أوائلكم ! » . وكان أن رحب قطب الهكارية بالسيد أحمد البدوى وأخيه ، واستضافوهم بضعة أيام ، وبنوا لهما زاوية ، حتى حانت لحظة الفراق ، فرحل الأخوان [1] .

هذه القصة فى حد ذاتها تدل على ما لاقاه السيد البدوى وأخوه من صعاب وشدائد فى شمال العراق . واذا كان الرواة قد حاولوا أن يلصقوا بها شيئا عن قدرة الأخوين على التنكيل بأعدائهما ، فان هذا كان من باب التستر ورغبة فى الاحتفاظ لهما بمكانتهما . وهكذا أدرك السيد أحمد البدوى أنه يصعب عليه تحقيق شىء من آماله فى شمال العراق ، فلم يبق أمامه الا الجنوب . وفعلا ترك الأخوان اقليم الموصل واتجها جنوبا الى أم عبيدة — الى الشمال الشرقى من البصرة — حيث ضريح السيد القطب أحمد الرفاعى .

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ، ص ٤٦ — ٤٨ — الخفاجى : النفحات الأحمدية ص ٢٤٢ — ٢٤٣

ويبدو أن الشريف حسن بدأ يعتريه التعب والكلل من هذه الرحلة غير المثمرة ، لا سيما وأن المسافة من شمال العراق الى جنوبه طويلة يحتاج مسافرها الى مزيد من الجهد . وكان أن التفت الحسن الى أخيه أحمد وقال له : « يا أخى أحمد ! أتدرى كم بيننا وبين أم عبيدة ... بيننا وبينها مسيرة أربعين سنة للراكب المجد !! » . ولكن كرامة السيد أحمد البدوى ظهرت عندما دعا : « اللهم اطو لنا البعيد وهوّن علينا كل صعب شديد » ! وبفضل هذا الدعاء وصل الأخوان الى أم عبيدة بعد سبعة عشرة خطوة !! .

وكانت أم عبيدة مركز الطريقة الرفاعية ، فشاهد الأخوان فيها عددا كبيرا من الخيام المنصوبة والأعلام المرفوعة ، والصوفية هناك يصومون النهار ويسهرون الليل . وتروى الأسطورة كيف خرج الرجال والنساء والأطفال من أم عبيدة لملاقاة السيد أحمد البدوى وأخيه ، مرحبين بهم هاتفين : « مرحبا وأهلا وسهلا بأسيادنا وسادتنا وأحبابنا وقرة أعيننا ونسمات أحوالنا » . ولكن الشريف حسن نهاهم عن هذا الملق وقال لهم فى تواضع الأخيار : « يا قوم كفوا الألسن وأقلوا الكلام ، فلا نفرح بشىء يقال ، فان شكركم لنا مذمة !! وهذا نقص بين أرباب الأحوال ، ولا يفرح بالمدح والتفخيم الا ابليس الرجيم ! » وبعد ذلك دخل الأخوان ضريح السيد أحمد الرفاعى حيث قضيا ثلاثة أيام عادا بعدها الى بغداد .

هكذا طاف السيد أحمد البدوى وأخوه بالعراق شماله

وجنوبه ، فحققا أحد أهدافهما وهو زيارة بعض أولياء الله . أما الهدف الأساسى بالنسبة للسيد أحمد البدوى وهو العثور على مسرح ملائم لطموحه وآماله ونشاطه ، فيبدو أنه لم يتحقق . ذلك أن السيد أحمد البدوى لم يجد قبولا فى شمال العراق ، كما يتضح من موقف الأكراد الهكارية منه وأخيه . ولا أدل على استياء السيد أحمد البدوى مما صادفه فى شمال العراق من قوله : « وبقينا كالأعمى لا نعرف ملجأ نلتجأ اليه » . أما جنوب العراق فكان فيه من الأئمة والأولياء ما كان يتعذر على السيد أحمد البـــدوى فى ذلك الدور مناظرتهم ، وعلى رأس هؤلاء الأئمة على بن أبى طالب بالنجف والحسين بن على بكربلاء ثم السيد أحمد الرفاعى فى أم عبيدة . وأما وسط العراق ــ بما فيه بغداد ــ فكان مقرا للخلافة العباسية ونفوذها الروحى من ناحية ، ولعدد كبير من مشاهير الأئمة مثل موسى كاظم ومحمد الجواد من ناحية أخرى ؛ فضلا عن بعض مشايخ الصوفية مثل القطب عبد القادر الجيلانى من ناحية ثالثة .

وربما جاءت الأوضاع التى عاش فيها العراق وقت زيارة السيد أحمد البدوى وأخيه لأراضيه عاملا جديدا ، أقنع السيد البدوى بأن تلك البلاد ليست المسرح الملائم لنشاطه وآماله . ذلك أن السيد أحمد البدوى وأخاه زارا العراق قبل سقوط بغداد فى قبضة التتار بعشرين عاما تقريبا ، أى فى الوقت الذى انحطت فيه أحوال البلاد ، وغدا الخليفة العباسى رمزا لا أكثر بعد أن خضعت خلافته طويلا لسلطان البويهيين ثم السلاجقة .

وجاء ذلك الانحلال مصحوبا بصراع مذهبى بشع بين الشيعة والسنة ، وخاصة فى بغداد والكرخ . وحدث ذلك كله فى الوقت الذى أخذ شبح الخطر المغولى يقترب تدريجيا من المشرق العربى ، مما جعل أوضاع العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية تبدو عندئذ فى صورة لا تبشر بخير .

ويبدو أن الشريف حسن كان أكثر احساسا بهذه الأوضاع فبدأ يدرك عقب رجوعه مع أخيه أحمد من أم عبيدة أنه بذل كثيرا من الجهد فى التجول بين شمال العراق وجنوبه دون جدوى ، وأخذ الحنين الى بيته وأولاده يغلب عليه . لذلك عزم على أن يتجه من بغداد الى مكة مباشرة ، ولما لم يجد أذنا صاغية من أخيه أحمد قال له : « أنا اشتقت الى أهلى . وأى شىء يقول الناس : خلّوا أهلهم وعيالهم وساحوا فى الأرض !! » وفعلا ما كاد الأخوان يصلان الى بغداد ، حتى ودع الشريف حسن أخاه واتجه مباشرة الى الحجاز .

أما السيد أحمد البدوى فلم يرافق أخاه فى عودته الى الحجاز ، وانما اختار أن يتجه الى شمال العراق لزيارة ضريح عدىّ بن مسافر الهكارى صاحب الطريقة العدوية ، ويقع هذا الضريح على مقربة من الموصل . ومن الواضح أن تخلف أحمد البدوى عن العودة مع أخيه الحسن يثير كثيرا من التساؤل . فهل كانت زيارة عدى بن مسافر من الأهمية بمكان بحيث جعلته يضحى بصحبة أخيه ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يقم بها عندما قصد شمال العراق فى المرة الأولى فى بداية رحلته ؟ ان

الأمر فى نظرنا لا يعدو أن السيد أحمد البدوى لم يكن مقتنعا بنتيجة رحلته الى العراق ، وأشفق أن يختتم تلك الرحلة على ذلك الوجه الصامت ، فأراد البقاء بعض الوقت بالعراق عسى أن يحقق نجاحا يختتم به رحلته . وفعلا نجد الرواة يتحدثون بالتفصيل عن صراع حدث بين السيد أحمد البدوى وامرأة قادرة اسمها فاطمة بنت برى . ويرى بعض المستشرقين فى هذه القصة كثيرا من المعانى التى تعبر عن شخصـــية السيد أحمد البدوى ذاته [1] .

السيد البدوى وفاطمة بنت برى :

كانت عشيرة برى احـــدى العشائر البدوية التى انتشرت عندئذ فى شمال العراق قرب الموصل . وقد اشتهرت من هذه العشيرة فاطمة بنت برى ، وهى امرأة ذات جمال عظيم ومال وفير ، عرف عنها قدرتها على استمالة الرجال الأعراب وسلبهم أحوالهم ، حتى الأولياء والمتصوفين لم يستطيعوا مقاومة اغرائها . وبينما كان السيد أحمد البدوى فى أم عبيدة يقضى ليلته الأولى ومعه أخوه الشريف الحسن نائمـــا فى ضريح السيد الرفاعى ، اذا بالرفاعى يأتى فى المنام ليقول للسيد البدوى : « يا أحمد يا بطال ، ما هكذا فعل الرجال ، فنحن أهل الاحتمال برسم المحبة والاستدلال ، فمنك يقبل حسن المقال ، ولا يصطلى لك

(١) انظر ما كتبه المستشرق فولرز فى دائرة المعارف الاسلامية ـــ مادة أحمد البدوى .

بنار ، فخل عنك الهزل والمحال ، فان الذى تقدم مع أخيك من اتفاق الرجال ، لما أتيناك وأعلمناك بجميع الأحوال ، فان جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تواريخ الرجال فما وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر الى النساء بشهوة الا أنت يا فحل الرجال ، فخل عنك الهزل والمحال ، وسر الى فاطمة بنت برى فى أسرع وقت بلا اهمال ، فانها صاحبة حال ، وقد أعجبت بنفسها فى الفعال ، وبجمالها تسلب الرجال وتقتل الأبطال ، فسر اليها وأدبها وتعال ، فما وجدنا خصما يقهرها فى حومة المجال ، الا أنت يا صاحب الفعال ومربى الأبطال ، وكن عفوا عند القتال ، فأنت البطل الشديد النزال ، ولا تؤاخذنا يا أبا الرجال ، وسر الى مكة فى أسرع حال !! » .

هذه هى الرسالة التى قيل ان السيد أحمد البدوى تلقاها فى منامه من السيد أحمد الرفاعى ، ومنها نخرج بالمعانى الآتية :

١ ــ الرغبة فى تأكيد زهد السيد البدوى وقوته . فهو الوحيد بين الرجال الذى لا ينظر الى النساء بشهوة ، وهو الوحيد القادر على تأديب فاطمة بنت برى .

٢ ــ وجود علاقة مباشرة بين السيد أحمد البدوى من ناحية وكبار الأقطاب أمثال السيد الرفاعى من ناحية أخرى ، بحيث ان الرفاعى مع صيته ومدده استعان فى بعض أموره بالسيد أحمد البدوى .

٣ ــ أن السيد الرفاعى هو الذى طلب من السيد أحمد البدوى مغادرة العراق والعودة الى مكة « فى أسرع حال » .

وبعبارة أخرى فان هذه الرســالة فيها بعض التقدير ورد الاعتبار للسيد أحمد البدوى فى ختام رحلته بالعراق ، فضلا عما فيها من تبرير لخروج السيد البدوى من العراق وعودته من حيث أتى على أساس أن السيد البدوى فعل ذلك لا لأنه لم يجد مجالا لنشاطه وطموحه فى العراق ، بل لأن قطبا كبيرا مثل أحمد الرفاعى هو الذى طلب منه العــودة الى مكة فورا . وهكذا نجد الأساطير تصور مجىء السيد أحمد البدوى الى العراق بناء على تعليمات من الرفاعى ، ثم خروجه من العراق بناء على تعليمات من الرفاعى .

ومهما يكن من أمر ، فان السيد البدوى عزم على تنفيذ ما طلبه منه السيد الرفاعى ، فلم يكد يصل الى بغداد صحبة أخيه الشريف حسن عائدين من أم عبيدة حتى سأل حسن أخاه «الى أين ؟» فأجاب السيد البدوى : « الى فاطمة بنت برى » . فقال الشريف حسن : « أما أنا فطالب مكة ان شاء الله تعالى » . وبذلك ودع الأخــوان بعضهما وافترقا ، فاتجــه حسن الى مكة واتجه أحمد شمالا الى ناحية العشائر السبع ، حيث عشيرة برى .

وكانت فاطمة بنت برى قد رأت فى المنــام السيد أحمد البدوى وقد أتى اليها ، فأسرعت الى حشد ألفى بنت من أتباعها وأوصتهن بأن يأتين اليها بكل غريب يصل الى الناحية . ولكن السيد أحمد البدوى احتاط لنفسه ووضع خطة ماهرة ، فتظاهر بالخرس والطرش ، ولما اجتمعت حوله البنات وحاولن اغراءه

على الحديث معهن امتنع ، حتى أدخلنه على فاطمة بنت برى . وعندما دخل السيد أحمد على فاطمة هبت واقفة على قدميها ، وصرخت صرخة عظيمة وقالت : « أهلا وسهلا ومرحبا بقطب الرجال الفتى القتال فى حومة المجال ، جئت يا شريف أحمد تأخذ منى ثأر الرجال ، لا تفعل هذا يا بطال ، فانى أريد أن أتزوج بك فى الحلال ، وأعيش بك بين الرجال ، وتكون لى عونا على الأهوال ، فانظر الى حسنى والجمال ، فقد تطاولت الى خطبتى أجاويد الرجال ، من أصحاب الأحوال ، فلحظتهم بطرف واحد من النبال ، فسلبوا وقتلوا بغير قتال » . ثم حاولت فاطمة بنت برى بعد ذلك أن توقع بالسيد البدوى ، كما أوقعت بغيره من الصالحين والصوفية من قبـــل ، فأسفرت عن وجهها الجميل ، فكان «كالبدر عند الكمال» وأسبلت شعرها ، فكان « كالحبال الى الأرض طال » ، وبدت فى صـــورة كلها فتنة واغراء وقد ارتدت ثيابها الحريرية الناعمة ، وهمت به « كما كانت تفعل بالرجال » !! .

ولكن السيد أحمد البدوى تمالك نفسه وقال فى خاطره : « هذا شىء لا يشغل لى بال » وقد أدركت فاطمة بنت برى أن الشخص الواقف أمامها هو بعينه أحمد الذى رأته فى المنام ، فأخذت تناديه : « يا أحمد ! يا أحمد ! » وهو واقف أمامها متظاهر بالخرس لا ينطق بكلمة واحدة ، الأمر الذى جعلها تعجب ، فالتفتت الى من حولها من الفقراء وقالت : « يا سبحان الله ! الشخص شخص أحمد ، فسبحان من ليس له شـــبيه !

يا فقراء عجبا ان نظرى يخيب !! » فقال لها الفقراء والنقباء الذين حولها : « الله ! الله ! يا مولاتنا ! هذا أخرس أخرس وأطرش وأبله ، والناس تتشابه والخلق يتشابه » . فصاحت قائلة : « ما أخوفنى أن يكون هو الذى رأيته فى المنام ! » . وبعد ذلك جلست فاطمة بنت برى ونظرت الى أتباعها وقالت : « خلوا سـبيله » . فانفض الناس وذهب كل منهم الى حال سبيله .

وبينما فاطمة بنت برى فى حيرة من أمر ذلك الرجل ، اذا بالنقيب الكبير ــ وكان رجلا خيرا اسمه أحمـد العراقى ــ يقترب منها ويهمس فى أذنها : « يا مولاتى ! جمالك سائبة فى البرية بغير راع ، وشغلت الناس بمحبتهم فيك » فقالت له : « يا نقيب ، انظر لها من يرعاها » فقال لها : « يا مولاتى والله ما خليت لأحد بال ، لا لشغل ولا لجمال ، ولا عندنا أحد فاضى البال الا هذا الغريب ! » فقالت : « يا نقيب شاور على ذلك » . فالتفت النقيب الى السيد أحمد البدوى وقال : « يا أخى ، ترعى الجمال ؟ » فتظاهر السيد البدوى مرة أخرى بالطرش ولم يجبه . وعندئذ اضطر النقيب الى أن يكرر السؤال على السيد البدوى بعد أن وضع فمه على أذنه وصاح بأعلى صوته ، فأومأ السيد البدوى برأسه اشارة بالموافقة . فقالت فاطمة بنت برى : « يا نقيب ، بالله شيعه عنى للجمال ، فان قلبى خائف منه ! » .

ويستمر الرواة فى القصة بعد ذلك على لسان السيد أحمد البدوى فيحكون كيف أن الجمال لم تكد تتشمم رائحته حتى

أقبلت من كل ناحية تهرول اليه ، وتقبل قدميه ، وتظهر حنينها اليه عن طـــريق سكب الدموع ... كل ذلك والنقيب واقف يشاهد بنفسه تلك الأمور العجيبة . وكانت عدة الجمال سبعة آلاف جمل ، فأشار اليها السيد البدوى بأن تسير الى المرعى فسارت ، وظلت على هذا الحال ستة أيام تنتشر ترعى فى الليل وتأتى اليه فى النهار . وفى اليوم السابع قرر السيد البدوى أن ينهى مهمته مع فاطمـــة بنت برى ، فالتفت الى الجمال عندما اجتمعت عنده وقال لها : « موتى باذن من يحيى الموتى ويميت الأحياء » . فماتت الجمال جميعا ! . ثم قبض السيد البدوى قبضة فى الهواء وقال : « على قلب فاطمـــة بنت برى ! تعالى عندى ! » . وفى الحال صعقت فاطمة بنت برى وشعرت بضيق فى التنفس وانقباض فى القلب وأخذت تصيح فى ألم ؛ وأمرت باحضار فرسها .

وكان قد بلغ من سطوة فاطمة بنت برى أنها كانت تركب فرسها بغير لجام وتتجه الى أى جهة تريد . ولكنها عندما ركبت فرسها فى تلك المرة لم يتحرك الفرس وكلما وجهته الى ناحية أبى ، حتى اتجهت بفرسها الى ناحية الابل حيث السيد البدوى وعندئذ سار الفرس وأسرع الخطى . وعندما اقتربت فاطمة بنت برى من السيد البدوى لم تستطع أن تخفى مخاوفها عمن حولها من رجالها وقالت : « ما أخوفنى أن يكون هو الذى رأيته فى المنام ، فبالله يا نقيب اسأله أن يرفق بى» . ولكن السيد البدوى

أشار اليها بيده فغاصت فى الأرض هى وفرسها وأخذت تستغيث وتصيح : « يا آل برى ! يا آل نعيم ! اقبلوا الىَّ » .

ولم تكد فاطمة بنت برى ترسل استغاثتها فى الفضاء حتى أقبل فرسان آل برى وآل نعيم من كل جانب ، وعندئذ تخوف السيد أحمد البدوى وأيقن بالهلاك ، ولكنه رفع ثيابه وشمر أكمامه وصاح : « يا آل محمد ! يا آل على ! يا آل الحسن ! ياآل الحسين ! يا آل على زين العابدين ! يا آل محمد الباقر ! يا آل جعفر الصادق ! يا آل موسى الكاظم ! يا آل محمد الجواد .. » وما هى الا لحظات حتى أقبل فرسان نجد وفرسان العراق كالبحر المتلاطم بالأمواج ؛ وعندئذ لم يستطع فرسـان آل برى وآل نعيم الثبات وولوا الأدبار ، وصاحوا معتـذرين « يا سادتنا عفوكم يسعنا ، وحلمكم يحملنا ؛ واذا حضر الماء بطل التيمم ، ونحن وفاطمة فى تصريفكم وغلمان حضرتكم ، والأمر الى الله تعالى ثم بعد ذلك اليكم » . أما فاطمة بنت برى فقد نظرت الى السيد أحمد البدوى مستعطفة ، وقالت له : « يا أحمد ، أنتم أهل العفاف والانصاف ، والماضى لا يعاد بين الفقراء ، وأنا أستغفر الله العظيم بداية ونهاية وفرضا عن كفاية ، وأنتم أهل الاحتمال ، وقد قال جدك على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « عجبت لمن يشترى العبد بماله ولا يشترى الحر باحسانه وعفوه وامتنانه واحتماله » . وبينما السيد أحمد البدوى يفكر فى أمر فاطمة بنت برى ، تدخل فرسان نجد والعراق شافعين لها فقالوا : يا أحمد انا لا نؤذى من كان اسمها فاطمة ، كرامة لجدتك فاطمة

الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعف عن فاطمة يا أحمد » . وهنا قال السيد أحمد البدوى : « قد عفوت عنها بحضرتكم بشرط أن لا تعود تتعرض لأحد من الرجال من أرباب الأحوال ، وتعيش برأس مالها ، ولا تأخذ من فتوحها شيئا » . فردت فاطمة بنت برى قائلة : « نعم ! اشهدوا علىّ يا جميع من حضر ، أنى ما عــدت أتعرض لأحــد من الرجال من أرباب الأحوال ، وأنا أستغفر الله بداية ونهاية وفرضا عن كفاية » .

وما كادت فاطمة بنت برى تفرغ من تقديم اعتذارها واعلان ندمها حتى خرجت وفرسها من الأرض ، وأقبلت على السيد أحمد البدوى تقبل قدميه وهى تقول : « يا شريف أحمد ! كنت أظن أنه ما على وجه الأرض أفرس منى ، ووجدتك أنت الفارس الهمام ، فخذ الآن علىّ العهد أنى محبتك وفقيرتك ومريدتك والماضى لا يعاد بين الفقراء ، وأنا أستغفر الله بداية ونهاية . وفرضا عن كفاية ، ولا كبيرة بعد الاستغفار . فهل طاب خاطرك علىّ ؟ » . فرد عليها السيد أحمد البدوى بالايجاب ، ثم قال لها : « يا فاطمة ! أقسم بحق الملك الخــلاق ، خالق الأرض والسبع الطباق ، لئن لم تنصفى وتتكلمى بكلام يكون للعارفين ترياق ويذرف الدموع من الآفاق ، والا يمح اسمك من ديوان العشاق والرفاق ، ولا يكون معنا نصيب ولا اتفاق الى يوم التلاق ! » . ثم أنشدت فاطمة قصيدة طويلة تروى فيها قصتها مع السيد البدوى ، جاء فيها :

أهـــلا وســـهلا بمن جاء يسألنى
يا أحمد الخير لا تكشف لنا ســترا
لا تأخذ الثأر والأسرار فتحرمنى
لذيذ عيش مع الســادات والفقرا
وقلت يا ســيدى أنت المراد لنا
وأنا المــريدة يامن عــزمه ظهــرا
ختمت قولى بتقبيــلات نعلكم
يا ســيدى وأمير الناس والفقــرا

ثم ان فاطمة بنت برى طلبت من السيد أحمد البدوى أن تتزوجه فى الحلال ويعيش معها ليكون لها عونا وذخرا . ولكنه اعتذر فى رفق وطيب خاطرها ، وانتهز فرصة انشغال الفقراء بالذكر « وغطس من بينهم » فلم يشــعروا به ، واتجــه الى مكة [1] ...

***

هذه هى قصة السيد أحمد البدوى مع فاطمة بنت برى كما رواها كتاب سيرته . ورأينا فى هذه القصة أنها من نسج الخيال ، كما يتضح من تفصيلاتها أنها أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة . ونستطيع أن نقرر فى صراحة أن كتاب سيرة السيد أحمــد البدوى أرادوا أن يحيطوه بهالة من المجــد الموهوم

---

(١) الخفاجى : النفحات الاحمــدية ص ٢٤٥ ــ ٢٥١ ــ عبد الصمد : الجواهر ص ٥٠ ــ ٥٥

ويظهروه فى صورة المصلح القادر الجبار ، الذى يستطيع أن يجند الجيوش فى برهة عين من نجد والعراق وغيرهما ، والذى يسانده آل البيت جميعا ويلبون نداءه اذ دعاهم ، والذى يستطيع أن يحيى الموتى ويميت الأحياء ... وبعبارة أخرى فان كتاب سيرة السيد أحمد البدوى أرادوا بهذه القصة أن يمهدوا للدور الكبير الذى أعدوه له فى طنطا . وكأن هؤلاء الكتاب عز عليهم أن تنتهى رحلته فى العراق مثلما تنتهى رحلة أى فرد عادى ، فى بلد من البلاد ، فوضعوا هذه الخاتمة ليعوضوا ما قد يكونون قد أحسوا به من تعرض السيد أحمد البدوى فى رحلته لشىء من النكران ، أو على الأقل عدم الاحتفال والتقدير .

عودة السيد أحمد البدوى الى مكة :

عاد السيد أحمد البدوى الى مكة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) فنزل على أخيه الحسن ، واستقبل استقبالا حافلا من اخوته ومعارفه وأهل مكة عموما . ويبدو أن الرحلة التى قام بها السيد أحمد البدوى الى العراق أثرت فى نفسه تأثيرا كبيرا « واتجه وجدانه الدينى اتجاها جديداً » على قول المستشرق فولرز [١] . ذلك أنه عقب عودته من العراق أمعن فى حياة الزهد والورع وأخذ يكثر من القيام بالليل والصوم بالنهار .

على أنه ثمة آثار أخرى ترتبت على رحلة السيد البدوى الى العراق ، هى أثر هذه الرحلة فى تكوين شخصيته وفى مستقبل

---

(١) فولرز : مادة أحمد البدوى فى دائرة المعارف الاسلامية .

تصرفاته . ذلك أن الفرق واضح بين زيارة السيد أحمد البدوى للعراق هذه المرة وزيارته مصر عند مروره بها مع أهله فى طريقه الى الحجاز من قبل . فالسيد أحمد البدوى عندما زار مصر صحبة أهله كان صغير السن ، لم تتبلور آماله بعد ، ولم يوغل فى طريق التصوف الى مدى بعيد ، وعلى ذلك فقد كانت التجارب التى اكتسبها وأفاد منها خلال السنوات القلائل التى قضاها فى مصر محدودة . أما زيارة السيد أحمد البدوى للعراق فقد تمت فى وقت أصبح فيه الفتى الصغير رجلا ناضجا كاملا اكتملت مشاعره وأحاسيسه وتفكيره ، ونضجت عقليته ، واختمرت فى ذهنه المثل العليا التى ينشدها لنفسه ... وبالتالى فقد رسم لنفسه الطريق الذى عزم على المسير فيه والذى سار فيه فعلا . لذلك لا نستطيع أن ننكر أن السيد أحمد البدوى أفاد من رحلته الى العراق فائدة جمة ، فقد رأى أمثلة لأقطاب ومشايخ دان الناس لسلطانهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، ولا شك فى أن السيد أحمد البدوى أخذ يتمنى لو يصبح فى يوم ما قطبا مثل الجيلانى أو الرفاعى . ولم يستطع السيد البدوى أن يخفى دهشته عندما وصل مع أخيه الشريف حسن الى مشارف أم عبيدة ، فرأى الخيام الوفيرة والناس يتزاحمون فقال أحمد لأخيه حسن « يا أخى ! كأن هذا ملك من بعض ملوك العرب نزل فى هذا المكان ونصب خيامه ونشر أعلامه ! » ولكن الحسن أفهمه أن هذه الخيام انما هى خيام المريدين الذين التفوا حول ضريح السيد أحمد الرفاعى ، فقال لأخيه أحمد « يا أخى ! هذه

أم عبيدة ، وهذه الخيام خيام السيد أحمد بن الرفاعى وأعلامه ، وليس يكشف هذا السر الا القليل من الناس ، وهذه الخيام والأعلام تحتها رجال قيام قد سهروا فى الظلام وجاهدوا أنفسهم بالصيام والقيام فى الدياجى والناس نيام فى طاعة الملك العلام ! » .

واذا كانت هذه المظاهر التى أحاطت بأقطاب العراق ومشايخه قد بهرت السيد أحمد البدوى ، فانها دون شك حركت فيه الرغبة ليستمر فى نفس الطريق حتى يصبح قطبا كبيرا ، وعندئذ يلتف حوله المريدون فى حياته وبعد مماته . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ لقد كان فى استطاعة السيد أحمد البدوى أن يمعن فى طريق الزهد والتصوف مثلما أمعن غيره من المشايخ الذين سمع بهم ، ولكن لم يكن من السهل عليه أن يعثر على البيئة الصالحة لنشاطه ليضمن التفاف أهلها حوله وايمانهم به فى حياته وبعد مماته . ولقد صدق أخوه الحسن عندما قال له قبل رحلتهما الى العراق « ان كل بلاد لها رجال ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله تعالى » ؛ ومعنى ذلك أن كل منطقة وكل ناحية لها شيخها أو أشياخها الذين استأثروا بولاء أهلها . وكما سبق أن ذكرنا لم يكن من السهل على أى شيخ جديد أن يصرف الناس عن شيخهم القديم ليحل هو محله فى الاستحواذ على قلوبهم وعقولهم .

وكان السيد أحمد البدوى نفسه خير من أدرك هذه الحقيقة اذ طاف بالعراق شماله وجنوبه ، فلم يجد المكان الخالى

ليحتله ويشغله . وفى رأينا أنه لو كان السيد أحمد البدوى وجد المكان الصالح لنشاطه فى العراق ، لما عاد الى مكة ، وبالتالى لما آتى بعد ذلك الى مصر ، ولاحتل البلد الذى أقام به السيد أحمد البدوى فى العراق مكان طنطا فى مصر . ومهما يقال فى الكتب التى ترجمت للسيد أحمد البدوى وتناولت سيرته بعد وفاته من أنه لقى ترحيبا وصادف قبولا فى العراق ، فان هذا الترحيب فى نظرنا لم يصل الى الحد الذى كان يرنو اليه السيد البدوى . لقد كان السيد البدوى عندما زار العراق يرجو الايمان به والاعتقاد فيه لا مجرد الترحيب به . أجل ، كان السيد أحمد البدوى عندما أزمع السفر الى العراق يأمل أن يرى نفسه «قطبا» مثل عبد القادر الجيلانى وأحمد الرفاعى وغيرهما . ولكن شاءت الظروف أن لا تتحقق للسيد أحمد البدوى أمنيته فى أرض العراق . حقيقة انه أصبح قطبا ، وصارت له من الشهرة ما لا يقل عن شهرة الجيلانى أو الرفاعى ... ولكن ذلك كان فى أرض أخرى غير أرض العراق . فليبق العراق قسمة بين أئمته ومشايخه ، وليبحث السيد أحمد البدوى عن بلد آخر يبنى فيه مجده .

وهكذا لا أكون مبالغا اذا قلت ان المشكلة الكبرى التى واجهت السيد أحمد لبدوى عقب عودته من العراق الى مكة كانت البحث عن المكان المناسب لنشاطه . ان مكة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ لا تصلح لهذا الغرض . وكيف يمكن أن يستحوذ ولى من أولياء الله على شعور الناس فى مكان به بيت الله الحرام

الذى يستأثر بولاء المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ واذا كان الأمر كذلك فأين يعثر السيد أحمد البدوى على مكان ــ مثل أم عبيدة ــ يتسع لآلاف الخيام وترفرف فوقه آلاف الأعلام ويصل اليه الناس فى سهولة من كل مكان ليستمدوا المدد من السيد البدوى حيا وميتا ؟؟

لا بد وأن السيد أحمد البدوى أخذ يفكر فى هذه المشكلة تفكيرا جديا وهو فى مكة عقب عودته من العراق . وأخيرا ــ وفجأة ــ توصل الى الحل . لقد تذكر السيد أحمد البدوى مصر التى رأى صورتها فى صباه . ربما كانت هذه الصورة غير واضحة ، ولكنها على أى حال ماثلة فى ذهنه . أليست مصر بأرضها السهلة ومزارعها الخضراء ونيلها العذب شبيهة بالعراق بسواده وحقوله ورافديه ؟ أليس سوء أحوال مصر عندئذ بسبب تعرضها لهجمات الصليبيين حينا والمنازعات بين الطامعين والحكام أحيانا أشبه شىء بأحوال العراق الذى لم يسلم شماله من الخطر الصليبى ولم تسلم نواحيه وجوانبه من صراع لا ينقطع بين الوزراء والعناصر الطامعة فى السيطرة على الخلافة العباسية وسلبها نفوذها ؟ ألم يكن أهل مصر فى مستواهم الفكرى والحضارى والمادى عندئذ وشعورهم نحو الماضى والحاضر والمستقبل قريبى الشبه بأهل العراق ؟ ألم تثبت التجارب أن أهل مصر وبيئتهم لا يقلون استعدادا لتلقى تعاليم الصوفية والايمان بهم عن أهل العراق ؟ ... وأخيرا ، ماذا يمنع من أن تصبح طندتا أو طنطا أم عبيدة أخرى ؟ ان لها فى موقعها وبساطة

أهلها وعدم وجود مزاحمين من كبار المشايخ والأولياء فيها ما يجعلها مركزا صالحا لنصب آلاف الخيام ورفع آلاف الأعلام ، مثل تلك الخيام المنصوبة والأعلام المرفوعة للسيد الرفاعى ، والتى رآها السيد البدوى فى أم عبيدة . واذا كان آلاف الناس يحجون الى ضريح السيد أحمد الرفاعى فى أم عبيدة ، فليحج آلاف الناس الى مقام السيد أحمد البدوى فى طنطا ...

اذن فقد عثر السيد أحمد البدوى على حل لمشكلته . وليكن الرحيل الى مصر ، والى طنطا بالذات ..

هذا هو تفسيرنا لرحلة السيد أحمد البدوى الى طنطا سنة ٦٣٥ هـ ولكنه ليس التفسير الوحيد فى نظرنا . ألا يحتمل أن يكون السيد أحمد البدوى وهو غارق فى تفكيره عقب عودته من العراق قد التقى ببعض الحجاج المصريين الوافدين من جهة طنطا ، والذين لمسوا صلاحه وتقواه ، فدعوه الى القدوم الى بلدتهم والاقامة فيها أهلا وسهلا ، فرحب السيد البدوى بالفكرة بعد أن سمع منهم كثيرا عن أحوال مصر وأهلها ؟ هناك دليل أمامنا يدعم صحة هذا الرأى الأخير ، هو أن السيد أحمد البدوى عندما قدم الى مصر اختار طنطا بالذات ودخل طنطا متجها الى أحد بيوتها بالذات ، فدخل البيت ــ كما سيلى شرح ذلك بالتفصيل ــ وعندئذ رحب به صاحب الدار وأنزله منزلا عزيزا مكرما . ان الأساطير تفسر هذه الظاهرة فى ضوء أن أحد الصالحين بطنطا بشر صاحب الدار بأنه رأى رؤيا تفيد بأن السيد

أحمد البدوى سينزل طنطا ويقيم فى داره ، ولكننا لا نريد أن نساير تلك الأساطير فى تطرفها فى محاولة تفسير كل حركة من حركات السيد البدوى فى ضوء رؤيا أو هاتف .

وسواء صح هذا الرأى أو ذاك ، فالذى يهمنا هو أن السيد أحمد البدوى توصل الى حل لمشكلته وقرر السفر الى طنطا . أما الرواة الذين دونوا سيرة السيد البدوى ، فلم يكن من الصعب عليهم أن يعثروا على تفسير لهذه الرحلة يتفق وتفكيرهم ومنطقهم . ذلك أنهم قالوا ان الهاتف عاود السيد أحمد البدوى فى المنام وقال له « قم يا همام وسر الى طندتا ولا تشك فى المنام » . فلما أصبح الصباح ، وأخبر أحمد أخاه الحسن برؤياه قال له « أخى ، قد انتهى الوعد . فسر فى هذه الليلة ولا تخف ، فقد صرفت اليك الولاية ، وبلغت النهاية . سر يا أحمد فى هذه الليلة الى البلاد التى وعدك الله بها ، وأنت فى حفظ الله تعالى ... » .

وفى الصباح ، بحث الشريف حسن عن أخيه أحمد فلم يجده ، ولم يجد أيضا كتاب النسب الذى يثبت نسب الأسرة ؛ فعرف أن السيد أحمد قد رحل الى طنطا وأخذ معه كتاب النسب ليكون بمثابة تحقيق شخصية يثبت به للملأ حسبه ونسبه وصلته بالبيت النبوى الكريم .

ولنتجه نحن أيضا مع السيد أحمد البدوى الى طنطا لنرى ما كان من أمره فيها .

الفصل الثالث

فوق السطح

أنا السطوحى واسمى أحمد البدوى
فحل الرجال أمام القـــوم فى الحرم

اختلفت الروايات فى تحديد التاريخ الذى غادر فيه السيد أحمد البدوى مكة ووصل فيه الى طنطا وان كان أكثر هذه الروايات انتشارا تقول انه غادر مكة سنة أربع وثلاثين وستمائة ووصل طنطا سنة سبع وثلاثين وستمائة ؛ وقد قال بذلك المقريزى وأخذ عنه بعض الكتاب المتأخرين زمنيا مثل الخفاجى . واذا نحن تشككنا فى صحة هذه الرواية فاننا نبنى رأينا على عاملين : أولهما أن التاريخ الذى حدده المقريزى لمغادرة السيد البدوى مكة فى طريقه الى طنطا ، وهو سنة ٦٣٤ هـ يتعارض مع موعد رحلة السيد أحمد الى العراق ؛ وقد سبق أن حددنا سنة ٦٣٤ هـ موعدا لسفر السيد البدوى الى العراق وسنة ٦٣٥ هـ موعدا لعودته من العراق الى مكة . وثانيهما أنه وفق رواية المقريزى يكون السيد أحمد البدوى استغرق ثلاث سنوات فى رحلته من مكة الى طنطا ، وهذه مدة غير معقولة ، لا سيما وأنه ليس ثمة دليل على أن السيد أحمد البدوى توقف فى مكان ما أو عرج الى جهة ما بعد خروجه من مكة ؛ وانما تشير كل القرائن على أنه اتجه الى مصر مباشرة ، والى طنطا بالذات . وعلى هذا نجد أنفسنا مضطرين اما الى الأخذ برواية الشعرانى التى تحدد تاريخ وصول السيد البدوى الى مصر بسنة خمس وثلاثين وستمائة (١٢٣٨ م) ؛ واما الى تعديل التاريخ الذى حدده المقريزى لمغادرة السيد

البدوى مكة وجعله سنة ٦٣٦ هـ بدلا من ٦٣٤ هـ ، والرأى الأخير هو الأوفق فى رأينا حيث أنه من الثابت أن السيد أحمد البدوى قضى بعض الوقت فى مكة عقب عودته من العراق وقبل سفره الى مصر .

ولا نريد هنا أن نسترسل فى مناقشة بعض الأساطير الوهمية ، التى تقول ان السيد أحمد البدوى قطع المسافة من مكة الى مصر فى احدى عشرة خطوة . فجميع الشواهد تدل على أن السيد أحمد البدوى صادف متاعب جمة فى رحلته من مكة الى مصر ، وأنه وصل طنطا متعبا منهكا ، حتى وصفه من رآه ساعة وصوله بأنه « رجل أشعث أغبر » . بل ان غبار الصحراء وقيظها آذى عينيه فأصيب بورم شديد فيهما . ولو كان السيد أحمد البدوى قطع المسافة من مكة الى طنطا فى احدى عشرة خطوة لوصل فى حال أفضل بكثير !

ومهما يكن من أمر ، فان اتجاه السيد أحمد البدوى الى طنطا مباشرة ، فور وصوله الى أرض مصر يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أنه لا بد وأن تكون له سابق معرفة بطنطا . وكانت طنطا عندئذ قرية صغيرة أشار اليها ياقوت الحموى فى معجمه اشارة موجزة فقال انها من قرى مصر وتقع فى الغربية ، وبينها وبين المحلة ثمانية أميال . وصادف أن كان بطنطا وقت وصول السيد أحمد البدوى تاجر اسمه الشيخ ركين له دكان فى سوق القرية يبيع به العسل والزيت والعلف وغير ذلك ، ولدكانه بابان : باب يبيع فيه والآخر يتوصل منه الى داخل منزله

وتروى الأساطير أنه حدث فى يوم من الأيام أن بشر أحد رجال طنطا الصالحين — واسمه الشيخ سالم — بقدوم السيد أحمد البدوى ، فاستدعى الشيخ ركين وقال له « اعلم أنه سيقدم عليك رجل اسمه السيد أحمد البدوى وينزل بطندتا فى بيتك » . وكان من عادة الشيخ ركين أن يصنع طعاما فى بيته كل أسبوع ويجتمع عنده أقاربه من النساء والرجال فيعطيهم ويكرمهم ويرحب بهم ثم ينصرفون . وفى يوم بينما أفراد الأسرة مجتمعين فى دار الشيخ ركين ، اذ برجل « أشعث أغبر ضارب اللثامين » يقتحم الدار ، فصاحت النساء فى وجهه ، وأتى الشيخ ركين مسرعا مستفسرا عن الأمر ، فقيل له « ان رجلا مجذوبا دخل البيت بغير استئذان » . فنظر الشيخ ركين الى ذلك الرجل ، وعندئذ ألهمه الله أنه البدوى الذى بشره به الشيخ سالم ، فأقبل عليه يقبل يديه وقدميه ويتبرك به ، ثم جلس متأدبا بين يديه وأكرمه غاية الاكرام ، ووصى أهل بيته بخدمته .

هذه هى القصة التى ترويها الأساطير عن وصول السيد أحمد البدوى الى طنطا ؛ وهى قصة غير مقبولة لنا حتى من الناحية الشكلية . ويكفى أنها تصور السيد أحمد البدوى فى صورة الدخيل الذى استباح لنفسه أن يقتحم دارا دون اذن من أصحابها ، ودون أن يعبأ حتى بصرخات النساء واحتجاجات أهل الدار . ومهما يقال عن اعتداد السيد البدوى بنفسه ومكانته ، فاننا نستبعد أن يسلك هذا المسلك ، وهو الرجل

الورع الذى حفظ كتاب الله ، ولا بد أن يكون بصره قد وقع على الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » . ويغلب على الظن أن الشيخ ركين ربطته بالسيد أحمد البدوى معرفة سابقة ، اما عند وجود أسرة السيد البدوى فى مصر أثناء طريقها من المغرب الى الحجاز ، واما عن طريق لقاء تم بين الطرفين فى موسم الحج فى مكة كما سبق أن ذكرنا . كذلك لا نستبعد أن يكون السيد أحمد البدوى قد اتجه حال وصوله طنطا الى مسجد القرية — كما هى عادة تلك العصور — وهناك توضأ وصلى وأرسل يطلب الشيخ ركين ، فأخذه الأخير الى داره معززا مكرما .

وقد تواتر فى المراجع أن السيد أحمد البدوى ظل مقيما فى دار الشيخ ركين حتى توفى صاحب الدار ، وعندئذ انتقل الى دار شيخ البلد المعروف بابن شحيط . ولما كان كثير من المراجع ذكر دار ابن شحيط ولم يذكر دار الشيخ ركين ، فان البعض علل هذه الظاهرة بأن المدة التى قضاها السيد أحمد البدوى فى دار ابن شحيط أطول بكثير من المدة التى قضاها فى دار الشيخ ركين . ولكن يقلل من قيمة هذه الرواية فى نظرنا ، أن ثمة اشارات تثبت أن الشيخ ركين (أو ركن الدين) حضر وفاة السيد أحمد البدوى مما ينفى أن ذلك الشيخ توفى فى حياة السيد ، مما استدعى انتقال الأخير من داره والأمر فى رأينا لا يعدو حقيقة واحدة هى أن الشيخ ركين هو

نفسه ابن شحيط ، ولا يستبعد أن يكون اسمه ركن الدين ابن شحيط . واذا كان قد حدث فعلا أن انتقل السيد البدوى من دار الى دار أثناء اقامته فى طنطا ، فما الذى يمنع أن يكون الشيخ ركن الدين بن شحيط داران ، وهو تاجر ميسور الحال فى طنطا ؟

ولم يكن السيد أحمد البدوى يحل بدار ركن الدين ابن شحيط فى طنطا حتى حملت له البركات وانهالت عليه الخيرات . من ذلك أن مير ناحية طنطا نزل بها وضرب خيامه ، وطلب عليقا لخيله ، ولم يكن عندئذ بناحية طنطا شعير الا عند الشيخ ركين ، فخاف الرجل من سطوة الحاكم ، وأسرع الى السيد أحمد البدوى يطلب مشورته ، فطمأنه السيد أحمد وقال له « لا تخف ، واذا سألوك عن الشعير فقل لهم ما عندى الا قمح زريع » . ولكن رجال الأمير لم يصدقوا الشيخ ركين فأخذوا منه مفتاح المخزن وفتحوه وعندئذ تحول الشعير الذى بداخل المخزن الى قمح زريع بفضل بركة السيد أحمد البدوى ، فانصرف رجال الأمير دون أن يؤذوه . ومرة أخرى استدعى السيد البدوى الشيخ ركن الدين وقال له « يا ركين ! ان الله تعالى أطلعنى على غلاء عظيم يقع فى الكون ، فاشتر القمح واخزنه عندك لينتفع به الناس ولا يحتاجوا الى أن يسافروا الى البلاد فى طلبه ، وترخص لهم اكراما لهم ولنبيهم صلى الله عليه وسلم » . وكان أن أخذ الشيخ ركن الدين بمشورته وأنشأ يشترى القمح بأرخص الأسعار ، حتى استنفد كل

أمواله فى شراء القمح ، بل انه باع حلى نسائه وأمتعة أقاربه ليشترى بثمنها القمح ويخزنه فى الحواصل . وما هى الا فترة قصيرة حتى اشتد الغلاء وارتفع سعر القمح وندر فى الأسواق ، وعندئذ فتح الشيخ ركين حواصله ومخازنه ، وأخذ يبيع للناس دون تشدد أو استغلال ، وجنى من وراء ذلك ربحا طيبا .

رفاق السيد البدوى :

ولم يلبث أن تم الارتباط بين السيد أحمد البدوى والسيد عبد العال ، وهو الذى قدر له أن يصبح صاحبه الأول ، ورفيقه الأوفى وخليفته بعد وفاته . ذلك أن السيد أحمد البدوى ترك دار ابن شحيط ذات يوم ، واتجه الى ناحية فيشا المنارة ـــ وهى قرية قرب طنطا ـــ وهناك اصطحب السيد عبد العال والسيد عبد المجيد ـــ ولدا الفقيه شمس الدين الأنصارى وجاء بهما الى طنطا . أما أصل معرفته بهما ، فترجع ـــ فيما ترويه الأساطير ـــ الى أن السيد أحمد البدوى كان قد مر بقرية فيشا المنارة عند مجيئه من مكة فى طريقه الى طنطا . ويبدو أنه كان يعانى عندئذ بعض المتاعب بسبب طول الرحلة وحرارة الجو حتى أصيبت عيناه بورم . واعتاد الناس فى تلك الأيام وضع بيض الدجاج على العين المتورمة لشفائها ، فأخذ السيد أحمد البدوى يبحث عمن يمده ببيضة ، حتى اذا ما رأى بعض الأولاد يلعبون بفيشا المنارة ، طلب من أحدهم ـــ وهو

عبد العال — أن يأتيه ببيضة يضعها على عينيه . وقد وافق الصبى على احضار البيضة بعد أن طلب من السيد البدوى جريدة خضراء كانت بيــده ، فأعطاها له . ويقال ان السيد عبد العال أخذ الجريدة وهرول الى أمه يقول لها : « هنا بدوى عيناه وجعة ، وطلب منى بيضــة وأعطانى هذه الجريدة » . فقالت له أمه : « ما عندنا بيض » . وعندئذ عاد الغلام الى السيد أحمد البدوى وقال له : « ما وجدت له شيئا ياعم » . ولكن السيد أحمد نظر اليه وقال : « ارجع وهات بيضة من الصومعة » فرجع الغلام وأخبر أمه بذلك فنظرت الى الصومعة التى كانت خاليــة من البيض منــذ لحظــات ، فاذا بها تجدها ملآنة بيضــا ! ! . ومنــذ ذلك الوقت لازم عبــد العال السيد أحمــد البــدوى ، وترك أهــله وبيته ، الأمر الذى أثار حزن أمه ووجدها ، فاعتبرت الســيد البدوى مســئولا عن ذلك وأخذت تردد : « يا بدوى الشوم » . وعندما سمع السيد البدوى بقولها قال : « لو قالت يا بدوى الخير كان أصدق ! » ثم أرسل السيد البدوى يقول لها : « هو ولدى من يوم قرن الثور ، ما خلصه ووضعه على المصطبة الا أنا ! » فتذكرت الأم أنها كانت قد وضعت ابنها عبد العال وهو طفل صغير فى معلف الثور ، فجاء الثور ليــأكل ، فدخلت قرونه فى قماط الطفل فحمله وشرد به دون أن يستطيع أحد تخليصه . وأخيرا رأت الأم طفلها على المصطبة دون أن يخلصه من قرون الثور انسان ! .

ومهما يكن من أمر ، فان السيد عبد العال كان أول رفاق السيد أحمد البدوى فى طنطا وأقربهم اليه وأكثرهم ملازمة له . ولكنه لم يكن الرفيق الوحيد للسيد أحمد البدوى ، وانما أقبل كثيرون على الالتفاف حوله ومشاركته حياته الروحية والأخذ عنه ، وذلك عندما شاع خبر أسلوبه وصلاحه وكراماته . وقد حفظت لنا المراجع أسماء مجموعة من رفاق السيد أحمد البدوى فى ذلك الدور ، منهم السيد عبد المجيد أخو السيد عبد العال ، ولم يلازم السيد البدوى فى أول الأمر ملازمة تامة ، وانما كان يتردد عليه بين حين وآخر ؛ ولكنه بعد ذلك « انقطع الى الله تعالى وصحب سيدى أحمد البدوى مدة طويلة ، وتأدب بآدابه وعرف اشاراته ، وكان لا ينام الليل تبعا لسيدى أحمد البدوى » . ومنهم الشيخ عبد الوهاب الجوهرى وهو من أجل أصحاب السيد البدوى ، وكان يأخذ العهد على المريدين وله نسك وعفة وزهد وورع ، وكان كل من أراد أن يأخذ العهد يقول له : « خذ هذا الوتد ودقه فى الحائط داخل الخلوة » ؛ فان ثبت فى الحائط أخذ عليه العهد ، وان خار ولم يثبت قال له : « اذهب الى حال سبيلك » . ومنهم الشيخ وهيب بناحية برشوم الكبرى ، وكان السيد عبد العال قد أرسله الى هناك وقال له : « ان بها قبرك » فلم يزل بها الى أن مات وله كرامات عديدة . ومنهم الشيخ يوسف أبو اسماعيل الانبابى ، أرسله السيد عبد العال للاقامة بناحية انبابة — أو منبوبة — تجاه بولاق ، فأقام هناك واشتهر أمره ،

وتردد عليه الأمراء والملوك وأجزلوا له العطاء حتى غدا فى سعة من العيش . ولما شاع أمره ، قال أحد رفاق السيد أحمد البدوى ــ واسمه الشيخ أحمد أبو طرطور ــ لبعض اخوانه : « امضوا بنا الى أخينا يوسف ننظر حاله اليوم » . فلما دخلوا عليه قدم لهم طعاما فاخرا من حلوى وغيرها وقال : « كل يا أبا طرطور من هذه الماوردية واغسل بها غش البسلة والعدس الذى كنت تأكله فى مقام سيدى أحمد » فغضب الشيخ أبو طرطور وامتنع عن الأكل ، وقال ليوسف الأنبابى : « لولا البسلة المذكورة ما وصلت الى ما وصلت ! » فاعتذر الشيخ يوسف وحاول استرضاء أبى طرطور فلم يقبل ، وعاد الى طنطا ليشكو للسيد عبد العال . ولما سمع السيد عبد العال ذلك قال : « نحن نأخذ الوديعة التى لنا عنده فنعطيها لولده اسماعيل » . وتمضى الأسطورة لتقول انه منذ ذلك اليوم اختفى ذكر الشيخ يوسف الأنبابى ، واشتهر بدله اسماعيل الأنبابى وغدت له كرامات كثيرة ، حتى كلمته البهائم !!

ومن أصحاب السيد أحمد البدوى الشيخ على البريدى الذى تروى كتب السيرة ــ سيرة السيد أحمد ــ أن السلطان محمد بن قلاون أرسله بريدا الى السيد أحمد بالسلام والهدية ، مع أن السيد أحمد البدوى توفى قبل أن يلى السلطان الناصر محمد بن قلاون السلطنة بأعوام طويلة . ومنهم السيد محمد الكناس وكان محبوبا من السيد أحمد البدوى بدرجة شديدة ، وهو شيخ الكناسية الذين يكنسون المقام كل سنة فى المولد .

ومن كراماته أنه كان كل يوم يقوم بكنس مقام السيد عبد القادر الجيلانى ومقام السيد أحمد الرفاعى فى العراق ، ثم ينتقل الى المغرب العربى ليكنس عدة مقامات هناك بحيث ينهى هذه العملية فى مشارق الأرض ومغاربها فى ساعة واحدة يعود بعدها الى طنطا !! وكأن العراق لم يوجد به من يصلح للنهوض بمهمة كنس مقام السيدين الرفاعى والجيلانى ، فكان يستعير كناس السيد أحمد البدوى كل يوم مدة ساعة للنهوض بتلك المهمة !!

وهكذا تحدثنا كتب السيرة الأحمدية عن عديد صحابة السيد البدوى مثل الشيخ عمر الشناوى والشيخ رمضان الأشعث ، والشيخ محمد الشيشينى ، والشيخ يوسف البرلسى ... ولكل منهم كراماته ومعجزاته الكفيلة بأن تجعل منه شيخاً له استقلاله الذاتى وكراماته ومريدوه .

ولكن ما الذى دفع أولئك الأصحاب الى الايمان بشيخهم أحمد البدوى ، وما النواحى التى أعجبتهم فى أسلوبه وسلوكه وحياته الروحية ؟ وما هى شخصية السيد أحمد البدوى التى فتنتهم وجعلتهم ينقادون اليه ويدخلون تحت لوائه ؟ هذا كله ما نحاول أن نجيب عنه فى ايجاز فيما يلى :

شخصية السيد البدوى وحياته فى طنطا :

وصفه عبد الوهاب الشعرانى السيد أحمد البدوى فقال : « كان غليظ الساقين ، طويل الذراعين ، كبير الوجه ، أكحل العينين ، طويل القامة ، قمحى اللون . وكان فى وجهه ثلاث

نقط من أثر جدرى ، فى خده الأيمن واحدة وفى الأيسر اثنتان أقنى الأنف ، على أنفه شامتان فى كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة . وكان بين عينيه جرح موسى ، جرحه ولد أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة »[1] كذلك وصفه عبد الصمد والخفاجى بأنه كان « رفيع البشرة ممشوق اللحم ، نحيف البدن »[2] .

هذه صورة الرجل الذى دخل دار ركن الدين بن شحيط ليقيم فيها . وقد ذكرنا كيف رحب صاحب الدار بضيفه وأمر أهله بخدمته وتوفير أسباب الراحة له ، ولا بد أنه أعد لاقامته خير مكان فى المنزل . ولكن السيد أحمد البدوى أبى الا أن يستقر فوق سطح الدار ، واختار هذا المكان بالذات مقاما له حتى توفى ، وصاحبه فوق السطح مجموعة من رفاقه المخلصين ، أطلق عليهم جميعا اسم السطوحيين . فما السر فى ذلك ؟ لقد فسر البعض هذه الظاهرة بأن السيد أحمد البدوى استحى أن يقيم داخل الدار فيحد من حرية صاحبها وأهله ، وكفى أن الشيخ ركين رحب به واستضافه ، فلا أقل من أن يتركه حرا فى داره ويكتفى هو بالاقامة فوق السطح . وثمة رأى آخر يقول ان السيد أحمد البدوى انما قصد بالاقامة فوق السطح أن يعيش وسط الطبيعة فيرى فى كل آن صنع الله من سماء ونجوم وشمس وقمر وحر ومطر وصيف وشتاء ؛ وبذلك يذكر

---

(١) الطبقات الكبرى ؛ جـ ١ ص ٢٤٧

(٢) الجواهر السنية ص ٣٩ ، النفحات ، ص ٢٢٢

الله فى كل حين ويسبح بحمده فى كل وقت ويتأمل قدرته ليلا ونهارا .

ومهما يكن نصيب كل من هذين الرأيين من الصحة ، فان هناك حقيقة لا ينبغى أن تغيب عنا ، هى أن أهل العراق ــ وبصفة خاصة فى جنوبه ــ يفضلون النوم فوق الأسطح ؛ لا سيما فى فصل الصيف بسبب حرارة الجو . وعندما زار السيد أحمد البدوى مقام الرفاعى فى أم عبيدة ، لا بد وأنه سمع بأن الرفاعى كان يفضل الاقامة على السطح ليراه ويسمعه ويتأثر به أهالى الجهات المجاورة [1] . ولقد سبق أن ذكرنا كيف فتن السيد أحمد البدوى بشخصية أحمد الرفاعى الى حد جعله يفكر فى أن يجعل من نفسه رفاعيا آخر . لذلك لا أستبعد أن تكون اقامة السيد أحمد البدوى فوق سطح دار ركن الدين فى قرية طنطا ، انما هى جزء من الخطة العامة التى اختطها لنفسه والتى تأثر فيها برحلته الى العراق .

وفى ذلك المكان ، وفوق سطح دار ابن شحيط ، عاش السيد أحمد البدوى بقية عمره ــ حتى وفاته سنة ٦٧٥ هـ ــ فى حالة « وله دائم » وحوله كبار مريديه من السطوحيين . وقد سأل بعضهم كيف كان حال السيد البدوى على السطح وهل كان كثير الغياب كما يقول الناس فأجاب : « نعم ؛ كان غيابه أكثر من حضوره ، وكانت تأتى عليه الأربعون يوما

---

(١) الشعرانى : الطبقات الكبرى ؛ جـ ١ ص ١٩٠

لا يأكل فيها ولا يشرب ولا ينام ، وهو شاخص ببصره الى السماء ، وعينـــاه كأنهما شحمتان . وكان اذا عرض له حال يصيح صياحا متصلا ، ويكثر الصياح ... »

ولعل هذا الوضع جعـــل الناس فى قرية طنطا والقـــرى المجاورة لا يعرفون حقيقة أمره ، وتتضارب أقوالهم فى أمره . فمن قائل انه متصوف ، ومن قائل انه مجنون ... ويحكى عن أخيه الشريف حسن فى مكة أنه كان دائما قلقا على مصير أخيه السيد أحمد البدوى ، يسأل عنه الحجاج القادمين من مصر ، حتى التقى ذات يوم بنفر من الحجاج قادمين من ناحية طنطا ، فقالوا : « يا أشراف ! عندنا رجـــل قرشي أقلقنا وأتعبنا من الصياح فى الليل والنهار . وهو يقول : عليهم ! عليهم ! وما عرفنا هل هو مجنون أو مفتون . وما نعرف له خبرا . وهو يقول انه شريف من أهل مكة . فهل تعرفونه ؟ ... »

على أنه اذا كان الناس قد تشككوا وتضاربت أقوالهم حول السيد البدوى فى أول الأمر ، فان الحقيقة لم تلبث أن تكشفت تدريجيا فأخذ كثيرون يقدرون الرجل وينظرون اليه نظرة مثالية ، وبذلك ازداد الاعتقاد فيه والايمان به . ولم يلبث أن كثر عـــدد المترددين على السيد أحمـــد البدوى ، بدليل ما يروى من أن السيد عبد العال عندما كبر صار بوابا للسيد أحمد ، فلا يسمح لأحد بالدخول اليه الا اذا استأذن أولا من السيد عبد العال ، فيستأذن له بدوره من السيد أحمد البدوى

الذى قد يسمح له بالمثول وقد لا يسمح ، « ولا يستثنى من ذلك السلاطين والأمراء ! » .

ومع أن السيد البدوى نفسه أعرض عن الدنيا وزهد فى متاعها ، الا أنه يفهم أن ثمة ممتلكات ومواشى ومزارع خصصت للسيد البدوى فى حياته بطنطا منذ وقت مبكر . ولعل التساؤل الذى يواجهنا هو من أين حصل السيد على هذه المقتنيات التى حملت اسمه ؟ يبدو أنها جاءت عن طريق تبرعات الخيرين ممن آمنوا بالسيد أحمد البدوى فوهبوا هذه الأشياء باسمه فى حياته لينفق من ريعها على نفسه وصحبته من الفقراء والمريدين . من ذلك ما ورد عن الشيخ عبد العظيم الراعى : « انه كان يرعى بهائم سيدى أحمد وغنمه » . وبلغ من رغبة المعاصرين فى احاطة كل ما ينتمى الى السيد البدوى بسياج من نقاوة الضمير أنهم قالوا عن بهائم السيد البدوى انها كثيرا ما كانت ترسل للرعى بغير راع « فتأكل من مارس سيدى أحمد البدوى ولا تتعدى للجار ، بل تخلى للجار من البرسيم نحو خط محراث ، وكانت تعرف مارس سيدى أحمد بالالهام !! » ويفهم من هذا أن السيد أحمد البدوى كانت له فى حياته بهائم وأراضى مخصصة لرعى تلك البهائم . كذلك ورد فى نفس المرجع اسم الشيخ محمد الفران « الذى كان يخبز لسيدى أحمد رضى الله تعالى عنه » . ومن كراماته أنه كان يحرك نار الفرن بيده ، ويخبز الأردب بنحو قدحين فقط من الوقيد ! وهكذا صار

للسيد أحمد البــدوى وصحابته موارد ثابتة يعيشون عليها ويوفرون منها لأنفسهم ضروريات الحياة .

ومن الواضح أن الكتاب الذين ترجمــوا للسيد أحمــد البدوى وكتبوا تاريخ حياته حاولوا دائما أن يظهروه فى صورة المتدين الى حد التزمت ، فلا حديث له الا فى الدين ، ولا تأمل الا فى الله وصنعته ، ولا قيام أو قعود الا للصلاة ، فاذا اعتراه الحال أخذ يصيح بصفة مستمرة متواصلة ... هذه الصورة الداكنة تبدو فى نظرنا مفتعلة بعيدة نوعا ما عن الحقيقة . فالسيد أحمد البدوى كان قبل كل شيء بشرا ، والبشر له طبيعته التى تجعله حينا يميل الى الترويح عن نفسه وأحيانا يميل الى العمل من أجل دنياه وآخرته . وهــل يتعارض الدين والعبــادة والذكر مع الترويح عن النفس بالمزاح المعتدل والفكاهة المهذبة ؟؟ لقد جاء فى القرآن الكريم أن قوم قارون أوصوه بقولهم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ... » كذلك عرف عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يمزح ولا يقول الا حقا .

وعلى هذا الأساس تبدو لنا الصورة المتزمتة التى وصفهــا الرواة لحياة الســيد أحمد البدوى والتى تحكمت فى العلاقات بينه وبين أصحابه من السطوحيين ، مبالغا فيها الى حد كبير . وقد ورد فى كتاب الجواهر وكتاب النفحات أن السيد أحمد البدوى قال يوما لأصحابه على السطوح : « من يقدر منكم يحملنى على ظهره ويثور به حتى يستوى قائما » . فقال عبد

العال : « أنا يا سيدى » ؛ فقام اليه السيد البدوى وركب على ظهره ، فهمّ أن يقوم به فلم يقدر على ذلك حتى كأن على ظهره جبلا عظيما . ولما تنحى السيد عبد العال قام أخوه عبد المجيد وقال : « أنا أحملك يا سيدى وأنور بك » ثم برك له وركب على ظهره ، فلم يستطع أن ينهض به ، فنزل الشيخ البدوى . ثم قام بعده السيد محمد قمر الدولة وركب السيد أحمد على ظهره فعجز هو الآخــر عن تأدية المهمة . وأخــيرا قام السيد عبد الوهاب الجوهرى وقال : « يا سيدى أنا أحملك ان شاء الله تعالى » . فلما برك وركب على ظهره ، ثار به وقام حتى قارب أن ينتصب ، فلكمه السيد أحمد البدوى لكمة بين كتفيه وقال : « اقعد غدّة كغدة البعير » . فبرك السيد عبد الوهاب ولم يقدر على النهوض بعدها ، وطلع موضع اللكمة غدة كغدة البعير [1] ...

هذه القصة فى حد ذاتها تعبر فى نظرنا عن حقيقة حاول رواة سيرة السيد أحمد البدوى اخفاءها ، هى : أنه كان هناك نوع من الترويح والمزاح المهذب فى حياة السيد أحمد البدوى وعلاقته بأصحابه ؛ وأنهم جميعا لم يقضوا وقتهم ليلا ونهارا فى ذكر وعبادة لا غير . يدل على ذلك أن رواة هذه القصة ذكروا عبارة لها مغزاها عند سرد قصتهم ، اذ قالوا ما نصه : « وكان ذلك الوقت وقت مباسطة » . كذلك تكرر هذا اللفظ

---

(١) الجواهر السنية ص ٣٩ ؛ النفحات الأحمدية ص ٢٣٣

عند كلام عبد الصمد عن الشيخ أحمد المعلوف ـــ وهو من السطوحيين الذين زاملوا السيد أحمد البدوى فوق السطح ـــ اذ يقول عنه : « وكان سيدى أحمد يباسطه [1] » . ونستخلص من ذلك كله أنه كان هناك وقت للمباسطة فى حياة السيد أحمد البدوى ورفاقه ، وأوقات للعبادة والذكر ...

واذا كانت العلاقة بين السيد أحمد البدوى وأصحابه ومريديه علاقة محبة فى الدين ، فماذا كانت يا ترى العلاقة بين السطوحيين بعضهم وبعض ؟ الواقع ان الكتاب الذين دونوا سيرة السيد أحمد البدوى لم يتعرضوا لهذه العلاقة ، ولا بد أن تكون صلة المريدين بعضهم ببعض صلة طيبة وأن يكون لهم فى أستاذهم قدوة حسنة ورباطا قويا يؤلف بين قلوبهم . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نستشف من بين السطور بعض اشارات تدل على وجود ظل ـــ ولو خفيف ـــ من التحاسد والرغبة فى الاستئثار بالنفوذ بين أصحاب السيد أحمد البدوى . وتبدو هذه النواحى على الخصوص فى تصرفات السيد عبد العال الذى كان أول أصحاب السيد البدوى فى طنطا وأكبر أعوانه ، وملازمه فى صحوته وغيابه ، ومن ثم اعتبر نفسه كبير الصحابة ، وخاصة بعد أن لقبه السيد أحمد البدوى بأنه ولده وقال عنه : « هو ولدى » . وربما دفع ذلك كله السيد عبد العال الى الحرص على ألا ينازعه منازع أو يدانيه سطوحى آخر فى

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٢٦

مكاتبه . والا فبماذا نفسر رغبة السيد عبد العال فى توزيع اخوانه من أصحاب السيد البدوى بعيداً عن طنطا ، فهو يرسل الشيخ وهيب الى برشوم بالقليوبية ويقول له « بها قبرك » أى يطلب منه أن يظل بها الى أن يموت ، ويرسل الشيخ يوسف الأنبابى الى انبابة ... وربما قيل فى تعليل ذلك أنه أراد بابعاد هؤلاء أن ينشروا الدعوة للسيد أحمد البدوى ومبادئه فى مختلف البلدان . ولكن ثمة قصة رواها عبد الصمد خلاصتها أن الشيخ قمر الدولة قام بعمل استشف منه السيد أحمد البدوى اخلاصه الكبير له ، فنظر اليه السيد أحمد البدوى وقال له : « أنت قمر هؤلاء ! » وأشار الى بقية أصحابه . ويبدو أن السيد أحمد البدوى أحس أن هذا التشريف الكبير الذى أسبغه على قمر الدولة ربما أثار حقد بقية صحابته وخاصة عبد العال ، فقال السيد أحمد لقمر الدولة : « ولكن اذهب الى ناحية نفيا فأقم بها حتى تموت ولا ترجع الى طندتا لا مهنيا ولا معزيا » . ويضيف عبد الصمد الى ذلك قوله : « خوفا عليه من سيدى عبد العال وأصحابه ! » . فلماذا اذا خاف عليه السيد أحمد البدوى من عبد العال وأصحابه ؟؟

زعامة السيد البدوى على أولياء طنطا :

يستطيع القارىء من صفحات الكتاب السابقة أن يخرج بحقيقة واضحة هى أن مشايخ المتصوفة قسموا البلاد الى مناطق نفوذ ، لكل شيخ دائرة نفوذه التى تتسع أو تضيق حسب درجة

ورعه وقوة شخصيته ومدى ايمان الناس بقدرته وكراماته ؛ ثم حسب الدعاية التى يمكن أن يقوم له بها مريدوه وأتباعه . وقد رأينا كيف أن السيد أحمد البدوى قام برحلته الى العراق وطاف شماله وجنوبه بحثا عن دائرة خالية يتخذها مركزا لنشاطه ولكنه وجد فى العراق مجموعة من كبار الأئمة والأقطاب الذين استحوذوا فعلا على قلوب الناس والذين كان يصعب منازعتهم سلطانهم ؛ وبذلك صدق كلام أخيه الشريف حسن عندما قال له قبل سفره الى العراق : « اعلم يا أخى أن كل بلاد لها رجال ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئة الله ! » بل يبدو أن السيد أحمد البدوى وأخاه الحسن تعرضا فعلا لنوع من المعارضة من بعض مشايخ العراق الذين رأوا فيهما منافسا جديدا ، بدليل ما ذكره الحلبى فى سيرة السيد البدوى « فلما وصلا الى العراق جاءهما جمع من الأولياء لمعارضتهما ، فأشار اليهم سيدى حسن فوقعوا على الأرض كالموتى » .

وقد رأينا أنه نتيجة لهذا كله ، اتجه السيد أحمد البدوى بفكره الى مصر وطنطا بالذات . فهل كانت منطقة طنطا بلا أولياء أو مشايخ عند مجيء السيد أحمد البدوى اليها ؟ واذا كان فيها بعض الأولياء فماذا كان موقفهم من السيد أحمد البدوى ، وماذا كان موقفه هو منهم ؟

الواقع ان منطقة طنطا كان لها مشايخها وأولياؤها وقت ظهور السيد أحمد البدوى فيها ، ولكن البدوى كان أقوى منهم جميعا بفضل شخصيته من ناحية والدعاية القوية التى قام بها

لنفسه أو قام له بها أصحابه من ناحية أخرى ، وهى دعاية اعتمدت على الفعل والعمل لا مجرد القول . هذا بالاضافة الى حقيقة هامة هى أن السيد أحمد البدوى كان يعتمد فى نسبه على أنه من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا ما يكفى لاكسابه قسطا من الأهمية لم يتوفر لغيره من المشايخ والأولياء الذين صادفهم فى طريقه . وقد رأينا أنه عندما غادر السيد أحمد البدوى مكة فى طريقه الى مصر ، حرص على أن يأخذ معه « كتاب الأنساب » ؛ وهو بمثابة بطاقة تحقيق الشخصية التى تثبت نسبه وحسبه . هذا الى ما نلاحظه فى كثير من أقوال السيد أحمد البدوى من حرص على ابراز صلته بالرسول فى مناسبة وغير مناسبة ، كأن يقول : « رأيت جدى رسول الله ... » و « أمرنى جدى رسول الله بأن ... » و « وحق جدى رسول الله ... » .

وهكذا استطاع السيد أحمد البدوى الانتصار على الأولياء الذين تصادف وجودهم فى طنطا وقت وصوله ؛ فمنهم من وجد السلامة فى البعد ، فترك طنطا وخرج يبحث لنفسه عن دائرة أخرى خالية يثبت فيها أقدامه وينشر نفوذه . ومنهم من استسلم للسيد أحمد البدوى وأعلن خضوعه له ، وبذلك سلم من بطشه ، ومنهم من عارضه ، وهذا الفريق الأخير حرصت الأساطير على أن تبالغ فى سوء المصير الذى تعرضوا له .

أما عن الفريق الأول فيمثله الشيخ حسن الصايغ الذى كان فى طنطا قبل وصول السيد أحمد اليها ، وعند وصول السيد

البدوى أدرك الشيخ حسن أنه لا قبل له به فقال : « ما بقى لنا اقامة ! صاحب البلد قد جاء اليها ! » وفعلا ترك طنطا واتجه الى ناحية اخنا حيث وجد مجالا لنشاطه ، فعلا ذكره هناك حيث عرف الشيخ حسن الصايغ بالأخنائى .

أما الفريق الثانى فأولهم السيد سالم المغربى الذى لم يكد يعلم بدخول السيد أحمد البدوى طنطا ، حتى « سلم له وانقاد له ، فأقره سيدى أحمد رضى الله عنه » وسمح له بالاقامة فى طنطا ، الى أن مات ودفن فى محل قريب من مقام السيد أحمد البدوى ، ولا يكاد أحد يعرف عنه الآن شيئا « لأن النجوم لا تظهر مع وجود الشمس !! » . ومن هذا الفريق أيضا الشيخ عبد الحليم المدفون بناحية كوم النجار ، الذى يحكى عنه الشعرانى أنه أسرع الى السيد أحمد البدوى ، وقال له : « يا سيدى ! شىء لله ! ! » فقال له السيد البدوى : « ان الله قد جعل فى ذريتك الخير والبركة » وقال هذه العبارة أيضا للسيد أحمد البدوى السيد عبد السلام القليبى والسيد عبد الله البلتاجى .

وأما الفريق الثالث فمنهم الشيخ وجه القمر ، وكان وليا كبيرا فى طنطا وقت دخول السيد أحمد البدوى اليها ، فغلب عليه الحسد وأبى أن ينقاد للسيد البدوى ، فسلب وأصبح مدفنه فى طنطا ــ على قول الحلبى ــ « مأوى للكلاب ليس فيه رائحة صلاح ولا مدد !! » [1] .

---

(١) الحلبى النصيحة العلوية ، ص ٤٧ ــ ٤٨

على أن الملاحظ أن السيد أحمد البدوى لم يفرط فى التساهل مع مشايخ الغربية بالذات ، فاذا كان قد حضر اليه اثنان أو ثلاثة من مشايخ طنطا وقالوا له : « شيء لله » أو « أمدنا ببعض ما أمدك به الله » وأجابهم السيد البدوى الى طلبهم وأقرهم على حالهم ، فانه لم يتبع هذا المبدأ دائما مع بقية المشايخ الذين استسلموا له واعترفوا بسمو مقامه ، وخاصة اذا كانوا من الغربية . يدل على ذلك ما رواه الخفاجى من أنه « جاء جماعة من مشايخ الغربية فقالوا : « شيء لله » . فقال لهم : « عليكم الطمس والخفاء الى يوم القيامة » فلم يشتهر أحد منهم !! » !! [1] ولا ندرى لماذا كان هذا الموقف المتشدد من جانب السيد أحمد البدوى تجاه مشايخ الغربية بالذات ؛ وربما كان التفسير الوحيد لهذه الحقيقة هو أن السيد أحمد البدوى اعتبر الغربية — بما فيها طنطا — الدائرة الأولى لنشاطه ، والنواة الأساسية لمملكته وسلطانه ، فلم يرغب فى أن يكثر بها المشايخ تمشيا مع نظرية العرض والطلب ، ولم يتساهل الا مع عدد محدود منهم سمح لهم بالبقاء لأنهم لا يشكلون خطرا كبيرا على نفوذه .

وهكذا تمت الأمور للسيد أحمد البدوى فى طنطا ، وضمن لنفسه مملكة صغيرة توافرت له كافة امكانيات النمو والاتساع على مر الأيام ؛ ولم يصطدم فى مقره الجديد بنوع من العقبات التى صادفها فى العراق ، فلا أولياء كبار مشهورون كالرفاعى

---

(١) الخفاجى : النفحات الأحمدية ؛ ص ١٦٦

والجيلانى ، ولا أهالى متشـــددون يتصـــفون بالعناد والصلابه وكرههم للغريب كالأكراد ، وانما بيئة سهلة فى طبيعتها وطبيعة أهلها . وفى هذه البيئة الجديدة أخذ صيت السيد أحمد البدوى ينتشر تدريجيا من طنطا الى الغربية ، ومن الغربية الى أنحاء مصر ومن مصر الى البلاد الاسلامية القريبة .

السيد البدوى والظاهر بيبرس :

على أن الأســـاطير لم تكتف بابراز مقـــدرة السيد أحمد البدوى فى اكتساح منافسيه من أولياء طنطا ومشايخها ، وانما حرصت أيضا على أن تظهـــر السيد البدوى فى صـــورة القوة الضخمة التى دان لها علية القوم المعاصرون وخروا أمامها سجدا وبكيا . وهل هناك فى القرن السابع الهجرى من حكام الشرق الأوســـط أعظم من الســـلطان الظاهـــر بيبرس قاهر التتـــار والصليبيين ، وصاحب الانتصارات الشهيرة فى الشام وآســـيا الصغرى وأطراف العراق فضـــلا عن النوبة ؟ أجل ، هل كانت هناك قوة معاصرة فى العالم الاسلامى مشرقه ومغربه أعظم من قوة الظاهر بيبرس ، وهو الرجـــل الذى ظلت الأجيال تتغنى ببطولته وأفعاله حتى صار له سجل حافل فى الأدب الشعبى خلد اسمه على مر القرون ؟ اذا كان هذا هو شأن الظاهر بيبرس ، فلا أقل من أن يحاول رواة سيرة السيد البدوى اقحام اسم ذلك السلطان فى تلك السيرة ليثبتوا للملأ أن الظاهر بيبرس مع قدرته وعظمته دان للسيد البدوى ، فما بالنا بصغار الحكام والأمراء !!

من ذلك ما يرويه الشعرانى والحلبى من أنه عند قدوم السيد

أحمد البدوى الى مصر « خرج الملك الظاهر بيبرس هو وعسكره من مصر يتلقونه » ، وأن بيبرس « أكرمه غاية الاكرام » . ويكفى للتدليل على خطأ هذه الرواية أن نذكر انه عندما قدم السيد أحمد البدوى الى مصر لم يكن الظاهر بيبرس قد ظهر على مسرحها بعد ، ولم تكن دولة المماليك قد قامت لها قائمة ، لأن السيد أحمد البدوى وصل الى مصر حوالى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) كما سبق أن ذكرنا ، وكان ذلك فى عهد العادل الصغير أو الثانى ، وهو أبو بكر ابن السلطان الكامل الأيوبى . ثم انه أليس فى هذه القصة تعارض واضح مع ما ذكره الرواة عن تعرف السيد أحمد البدوى بخليفته عبد العال ، ومرور السيد البدوى بناحية فيشا المنارة وقد تورمت عيناه حتى انه طلب من الصبى الصغير بيضة يداوى بها عينه ؟ فاذا كان الظاهر بيبرس قد خرج لملاقاته وأنه أكرمه ، فلماذا لم يطلب منه السيد أحمد البدوى بيضة يضعها على عينيه المتورمتين !؟؟

ثم ينساب خيال الرواة ، فيحكون قصة طريفة يدللون بها على سمو مكانة أسرة السيد أحمد البدوى وعظم كرامات أفرادها ومكانتهم عند الحكام المعاصرين . وخلاصة هذه القصة أنه حدث بعد رحيل السيد أحمد البدوى الى مصر واستقراره فى طنطا ، أن أخذ أخوه الشريف حسن يسأل عنه ويستقصى أخباره عن طريق سؤال الحجاج الوافدين من مصر الى مكة . وقد حدث ذات يوم بينما الشريف حسن جالسا مع بعض أولئك

الحجاج ، أن لمح رجلا متنكرا فى زى بدوى ملثما راكبا على هجين ، فأمر الشريف حسن بعض العبيد باحضاره . ولم تلبث أن ظهرت كرامة من كرامات الشريف حسن اذ أحس مباشرة أن الرجل ليس الا السلطان الظاهر بيبرس ، فسلم عليه ، وكاشفه بامارات خفية ، وعندئذ تبسم الرجل وقال : « نعم ! أنا الملك الظاهر بيبرس !! » وأخذ يقبـل أقدام الشريف حسن . وهنـا تحرص الأسطورة على أن تظهر الشريف حسن فى صورة الآمر القادر ، فأعلن أنه سيستضيف السـلطان الظاهر ثلاثة أيام ولن يصرح له بالسفر قبل انقضاء هذه الأيام الثلاثة ، « وما معك دستور أن تسافر الا بعد ثلاثة أيام » . ولكن حدث بعد العشاء أن غافل السلطان الظاهر الشريف حسن وركب هجينه وسار الليل كله حتى الصباح ، وظن فى نفسه أنه قطع بلادا بعيدة ولدهشته العظيمة أنه وجد نفسه فى الصباح فى بيت الشريف حسن « كأنى لا رحت ولا جئت » . وما زال السلطان الظاهر يكرر نفس العمل ثلاث ليـال ، حتى قال له الشريف حسن : « يا ملك مصر ! اجتنب هذا الظن الذى أنت فيه ، وأحسن ظنك بالله تعالى ، فنحن من القوم الذين اذا صاحبوا صفوا واذا وعدوا وفوا واذا قدروا عفوا . لك ثلاث ليالى تهرب منا ، فلو كنت تسير أربعين سنة لا تقدر على السير الا ان أذنا لك فى السير وأعطيناك دستورا باذن الله تعالى ! » . وعندئذ كشف السلطان الظاهر بيبرس رأسه وقال : « أستغفر الله العظيم ! سألتك بالله الا ما أخـذت علىّ العهـد أنى عبدك ومريدك وكل من لبس

الملكوتة الى يوم القيامة » . وكان أخـذ الشريف حسن العهد على السلطان الظاهر الذى أعطاه خاتم الملك ، وكان نقشه « الله رب كل شيء وخالقه » . ثم استحلف السلطان الظاهر الشريف حسن أن يعوده ان جاء الى مصر ؛ وبعـد ذلك طلب السلطان دستورا فى السفر ، فقال له الشريف حسن : « بسم الله دستور . سر ان شاء الله تعالى » ؛ ثم أعطاه دستورا فى السفر فسافر .

وتمضى القصة بعد ذلك فتروى أن الشريف حسن نفسه فكر فى الحضور الى مصر ، فخرج معه أربعون سيدا من أشراف مكة والمدينة ، كلهم « مشتاقون الى رؤية أخى أحمد البدوى » . فلما وصلوا الى مصر نزلوا بقلعة الجبل ـــ التى كانت مقر الحكم ومركز السلطان فى ذلك العصر . وقيل ان السلطان بيبرس كان قد أرسل بعض أمرائه لاستقبالهم ، فرحبوا بهم ، ثم أخـذ الشريف حسن يظهر كراماته ومعجزاته ، فكاشف كل أمير من الأمراء عما حدث له فى يومه وليلته ، الأمر الذى أثار عجب الأمراء . وبعد أن أخذ الشريف حسن على الأمراء العهد ، أقبل السلطان الظاهر بيبرس فى موكب حافل ، فعانق الشريف حسن وضمه الى صدره وصحبه هو ورفاقه الى قصره بالقلعة حيث قدم لهم « الأطعمة المختلفة الألوان » . ومرة أخرى أراد الشريف حسن أن يظهر سطوته وقدرته على الملأ ، فجلس بعد الأكل ، ونظـر الى السلطان الظاهر وقال : « أيهـا الملك ائتنى بجميع الأشراف والأكابر والمشايخ والنقباء والفقراء والفتيان والزعماء والعرفاء » . فلمـا حضروا أخذ الشريف حسن القـوم بعملية

فرز لهم ليكتشف الأشراف الحقيقيين من الأدعياء ، فاذا كان الرجل شريفا حقا سلّم عليه وأجلسه الى جانبه ، وان كان غير شريف استبعده . كل ذلك والسلطان بيبرس فى دهشة لتلك المقدرة الفائقة ، حتى انتهى الشريف حسن من عمله ، وعندئذ نظر السلطان الى كاتبه وقال له : « اكتب ان السيد الشريف حسن بن على بن ابراهيم ؛ شريف على الشرفاء وفتى على الفتيان وزمام على الأزمة ، ونقيب على النقباء وشيخ على المشايخ ... الى يوم القيامة ! » .

وبعد أن حصل الشريف حسن على قدر ضخم من الخلع والذهب ، ترك تلك الثروة فى عهدة بعض أصحابه وتوجه هو فى جمع من الأشراف الى طنطا . وتروى الأساطير أن الشريف حسن ما كاد يقترب من طنطا حتى شم رائحة أخيه أحمد ، وكأنه نبى الله يعقوب وقد فصلت العير تحمل قميص يوسف فقال لقومه : « انى لأجد ريح يوسف ! » . وبعد أن زار الحسن أخاه أحمد ، أعطاه السيد أحمد كتابا لأخواته فى مكة ، ثم عاد الشريف حسن الى القاهرة حيث التقى مرة أخرى بالسلطان الظاهر بيبرس . « وخرج الملك الظاهر والأمراء والناس يشيعونى ... ثم حملت رحالنا ، وودعنا الملك وأصحابه وسرنا طالبين مكة ... » .

هذه هى خلاصة القصة التى سردها الرواة عن علاقة الظاهر بيبرس بأسرة السيد أحمد البدوى [1] . ومن سياق هذه القصة

---

(1) الخفاجى : النفحات الأحمدية ؛ ص ٢٥٢ ــ ٢٥٤

يتضح لنا عدم جديتها وبعدها عن الحقيقة والواقع . ومن الثابت فى المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس ذهب الى الحجاز لتأدية فريضة الحج مرة واحدة سنة ٦٦٧ هـ . وعلى الرغم من حرص بيبرس على اخفاء خبر رحلته الى الحجاز ، الا أنه اصطحب معه بعض القضاة والأمراء فضلا عن ثلثمائة من المماليك ؛ ومعنى ذلك أنه لم يكن بمفرده يهرول على هجين فى زى بدوى ملثم على تلك الصورة الهزيلة التى عرضها الرواة . ثم ان المقريزى يروى أن الظاهر بيبرس عندما وصل مكة حرص على تفريق الأموال والكساوى ، وغسل البيت بيديه وعلق الكسوة ، وهرع اليه أشراف مكة وعلى رأسهم الأمير نجم الدين أبو نمى والأمير ادريس بن قتادة ، فأحسن اليهما السلطان ، كما أحسن الى غيرهما من أشراف الحجاز وأكابره ، كما عين الأمير شمس الدين مروان نائبا عنه فى مكة « ليكون الحل والعقد على يديه [1] » . فبيبرس اذاً عندما ذهب الى مكة لم يجلس جلسة التابع الصغير بين يدى أحد أشرافها ، وانما ذهب اليها سلطانا وعاد منها سلطانا . والقصة كلها — كما نعتقد — مختلفة ، تصورها الرواة وحشوها بالتفصيلات التى حاولوا طهيها وسبكها ليضفوا هالة أخرى من المجد على السيد أحمد البدوى وأسرته .

على أننا لا نستبعد أن يكون السلطان الظاهر بيبرس قد

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٨٥١ — العينى : عقد الجمان جـ ٢ مجلد ٣ ورقة ٥٥١

التقى بالسيد أحمد البدوى ، ولكن فى وقت غير الوقت الذى حددته الأساطير وعلى صورة غير الصورة التى توهمها الرواة . ذلك أنه عرف عن سلاطين المماليك بوجه عام احترامهم للفقراء « الصوفية » ورجال الدين — أو على الأقل تظاهرهم بذلك الاحترام — كسبا للرأى العام فى البلاد ومبغاة للحصول على محبة الجماهير . ولا يخفى علينا أن سلاطين المماليك كانوا يشعرون دائما بعقدة نفسية مرجعها أصلهم غير الحر من ناحية وكونهم أغراب دخلاء على البلاد وأهلها من ناحية أخرى . لذلك حرص سلاطين المماليك دائما على أن يبدوا فى صورة حماة الدين الذائدين عنه ، وذلك حينا بالجهاد والحرب وأحيانا بالتقرب الى رجال الدين والتظاهر باحياء شعائره . من ذلك ما يرويه المقريزى من أن السلطان الظاهر بيبرس بالذات انتهز فرصة زيارته للاسكندرية سنة ٦٦١ هـ ، وحرص على زيارة الشيخ القبارى والشيخ الشاطبى [١] . فاذا كان الأمر كذلك فكيف يسهو السلطان الظاهر بيبرس عن زيارة السيد أحمد البدوى فى طنطا ، وخاصة أن نفس المرجع يحدثنا عن أن السلطان بيبرس قام فى العام التالى مباشرة (٦٦٢ هـ) بزيارة الغربية . حقيقة أن اسم طنطا لم يرد فى هذه الزيارة ، ولكن ربما كان سبب ذلك هو أن طنطا كانت عندئذ بلدة أو قرية صغيرة لم تستحق أن يشير اليها المقريزى وغيره من المؤرخين ، أو ربما أن أحدا لم يسمع بزيارة

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤٩٩

السلطان للسيد أحمد البدوى بسبب دأب السلطان الظاهر على التخفى لمعرفة أحوال البلاد على حقيقتها ، حتى ان المقريزى يذكر عن رحلته هذه الى الغربية بالذات أنه « صار يسير منفردا فى خفية [1] » . وعلى هذا الأساس لا نستبعد أن يكون السلطان الظاهر بيبرس قد سمع أثناء جولته بالغربية عن السيد أحمد البدوى ، وأن يكون قد مر عليه فى طنطا لزيارته ، ولكنها كانت زيارة عادية ليس فيها من الحوادث الخارقة للعادة ما حرص رواة سيرة السيد البدوى على دسه ، الأمر الذى جعل المؤرخين الذين يعتد بهم وبكتاباتهم لايجدون فيها شيئا هاما يستحق التسجيل . واذا كانت هذه الزيارة قد تمت حقيقة ، فان هذه الفكرة تجد ما يؤيدها فى قول الشعرانى : « كان الملك الظاهر بيبرس ــ أبو الفتوحات ــ يعتقد فى سيدى أحمد رضى الله عنه اعتقاداً عظيما ، وكان ينزل لزيارته [2] » . وعن الشعرانى وأمثاله ، أخذ فولرز هذا المعنى فقال : « ويقال ان معاصره الظاهر بيبرس كان يقدسه وأنه قبل قدميه [3] » .

هذا عن موقف السلطان الظاهر بيبرس من السيد أحمد البدوى ، أما ما يقال من أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل الى السيد أحمد البدوى بالسلام والهدية ، وأن رسول السلطان الى السيد البدوى كان الشيخ على البريدى الذى

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠٥

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى ؛ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٦

(٣) فولرز : مادة « أحمد البدوى » فى دائرة المعارف الاسلامية .

قال : « لما اجتمعت بسيدى أحمد رأيته فى عينى أعظم حرمة من السلطان محمد بن قلاون »[1] ... فان هذا القول كله يبدو خاطئا من نوع الروايات المختلفة التى لم يقصد بها سوى المبالغة فى اعلاء شأن السيد أحمد البدوى . وحسبنا للوقوف على خطأ هذا الرأى أن نذكر أن السيد أحمد البدوى توفى قبل اعتلاء السلطان الناصر محمد بن قلاون السلطنة للمرة الأولى بأكثر من سبع عشرة سنة ؛ بل ان السلطان الناصر محمد كان عمره تسع سنوات عندما اعتلى دست السلطنة لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ ، بمعنى أن السيد أحمد البدوى توفى قبل مولد السلطان الناصر محمد بن قلاون بنحو ثمان سنوات !

ألقاب السيد أحمد البدوى :

لقب السيد أحمد البدوى بألقاب عديدة ، تصور مكانته وشخصيته وجانبا من حياته ، فضلا عن الصورة التى أرادها له مريدوه وأتباعه . ومن هـــذه الألقاب : « السيد ، الشريف ، الامام ، البدوى ، الملثم ، الفتى ، العطاب ، الغضبان ، الزاهد ، القطب ، القدسى ، الصامت ، الولى ، مهارش الحرب ، ندهة المنضام ، دليل الحيران ، مجيب الأســارى ، أبو الفرج ، باب النبى ، السطوحى ، الصــالح ، المعتقد ، العــارف بالله ، أبو العباس ، بحر العلوم ، أبو الفتيان ، شيخ العرب ... » . وفيما يلى شرح موجز لأهم هذه الألقاب .

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٢٧

١ ــ السيد :

سيد القوم رئيسهم وأكرمهم لأنه يسودهم سيادة ، والاسم السؤدد بمعنى المجد والشرف . وقد صار هذا اللقب لقبا عاما يقصد به تكريم الشخص .

٢ ــ الشريف :

الأشراف هم سلالة على بن أبى طالب من فاطمة الزهراء رضى الله عنهما .

٣ ــ الامام :

أَمَّ القوم أى قادهم ، والامام هو الذى يقتدى به ، والذى يرأس الجماعة فى الصلاة أو الحرب أو غير ذلك . والامامة رياسة المسلمين .

٤ ــ البدوى :

نسبة الى البادية ، والبدو خلاف الحضر ، وقد لقبه قومه بالبدوى لأنه على عادة البدو كان يحرص على وضع اللثام على وجهه بحيث لا يفارقه .

٥ ــ الملثم :

اللثام ما كان على الفم من النقـــاب . والمعروف أن قبائل الملثمين فى شمال افريقية كانوا يحرصون على ارتداء لثام يستر الوجه كله . وكانت قبائل صنهاجة يرتدون اللثام بالليل والنهار ، فى أثناء الراحة والعمـــل ، ويعتبرون « ان ابداء الوجه كابداء العورة فى التأنف والحياء » ، حتى انهم يأكلون وهم متلثمون . وما زال الطوارق فى صحراء شمال افريقية يستعملون اللثام

حتى اليوم [1] . ومهما يقال من أن الأصل فى هذه العادة هو اتقاء الحر والبرد والغبار فى الصحراء ، فالذى يهمنا هو أن السيد أحمد البدوى — وهو الذى ولد وشب فى شمال افريقية — أخذ هذه العادة عن الملثمين ، واحتفظ بها طول حياته حتى وفاته — بل لقد كان السيد أحمد البدوى يحتفظ بلثامين « لا يفارقهما » على قول السيوطى ، مما جعله يلقب بذى اللثامين حينا وبالملثم أحيانا .

ونرجح أن حرص السيد أحمد البدوى على عدم كشف وجهه لناظريه كان من أسباب احاطة شخصيته بشىء من الغموض ، الأمر الذى زاد من اعتقاد الناس فيه وفى ولايته . ومن المعروف أن الشىء الظاهر المكشوف يمكن الوصول الى كنهه وحقيقته فى سهولة ، بعكس الشىء المحجب المستتر ، فانه يخضع لكثير من التكهنات والتأويلات مما يجعله دائما أبدا موضع اهتمام الناس .

وثمة ملحوظة أخرى ، هى أنه يبدو أن عادة وضع اللثام لم يختص بها من أولياء مصر السيد أحمد البدوى وحده ، وانما ذكر السيوطى أخبار ملثم آخر معاصر للسيد أحمد البدوى ، هو أبو العباس أحمد بن محمد الذى أقام بالصعيد ومات بقوص سنة ٦٧٣ هـ [2] . وربما كان هذا الشيخ أيضا وافدا على مصر من المغرب ضمن كثيرين ممن وفدوا على مصر فى ذلك العصر .

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ؛ ص ٤٩

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ؛ ص ٢٤٨

٦ ـ الفتى ـ أبو الفتيان :

الفتى هو السخى الكريم ، والفتوة فى الاسلام معروفة ، وأهم شروطها التقوى والشجاعة ورقة الشمائل والقوة والمروءة ... وقد لقب السيد البدوى بالفتى وأبى الفتيان لأنه جمع فى شخصه خصائل الفتوة جميعا ، حتى وصفه بعض مريديه بأنه «فارس الأولياء بالديار المصرية والجزائرالقبرسية» !

٧ ـ العطاب :

العطب فى اللغة هو الهلاك ، والعطاب هو المهلك ، ولقب السيد أحمد البدوى بالعطاب « لكثرة ما كان يقع لمن يؤذيه من الناس » . ويذكر فولرز فى دائرة المعارف الاسلامية أن العطاب لفظ مغربى معناه « الفارس المقدام » .

٨ ـ الغضبان :

أى أنه يغضب للحق ، ولا يرضى عن الأوضاع السيئة التى يراها أو يسمع بها .

٩ ـ القطب :

القطب فى اللغة هو المحور القائم المثبت فى الطبق الأسفل من الرحى ، يدور عليه الطبق الأعلى . ويقال فلان قطب بنى فلان أى سيدهم . والقطب فى اصطلاح الصوفية هو كل من جمع الأحوال والمقامات ، وهو الغوث الواحد موضع نظر الله فى كل زمان . وقد توسع البعض فى شرح مدلول هذا الاصطلاح فقالوا انه قد يكون لكل بلد قطب ولكل جماعة قطب ، ولكن

الشعرانى يقول فى اليواقيت والجواهر ـــ نقلا عن ابن عربى ـــ ان الأقطاب بالمعنى الحقيقى لا يكون منهم فى الزمان الا قطب واحد هو الغوث . ثم ان ابن عـــربى اعتبر القطبية مظهر من مظاهر النبوة ، وقال ان القطب لا يتمكن من القطبية الا بعد أن يحصل على معانى الحروف التى فى أوائل بعض السور ـــ مثل « الم » وغيرها ـــ ؛ فاذا أوقفه الله تعالى على معانيها كان أهلا لذلك . كذلك قال ان القطب هو مـــرآة الحق تعـــالى ومحل المظاهر الالهية ، وصاحب علم سر القدر . ومن شأنه أن يكون الغالب عليه الخفاء . ومن الواضح أن السيد أحمد البدوى كان يسعى منذ نشأته ليصل الى تلك الدرجة حتى وصل اليها فعلا . وفى ذلك يقول فولرز فى دائرة المعارف الاسلامية : « ويعتبر أحمد البدوى منذ أجيال (قطب) ، فيما يعرف عادة بالقطابة « القطبية » ؛ الى جانب عبد القادر الجيلانى وأحمد الرفاعى وابراهيم الدسوقى ... » .

١٠ ـــ القدسى :

القدس فى اللغة هو الطهر والطهارة والبركة ، ومعنى نسبة السيد أحمد البدوى الى القدس وصفه بأنه متطهر مبارك .

١١ ـــ الصامت :

الصمت هو السكوت والصـــوم عن الكلام . والمعروف عن الزهاد والمتعبدين أنهم كانوا لا يقتصدون فى المأكل والملبس فحسب بل فى الكلام أيضا ، ويعتبرون الصوم عن الكلام عبادة لا تقل عن الصوم عن الطعام والشراب . وقد جاء فى القرآن

الكريم على لسان مريم : « فقولى انى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسيا » . واشتهر السيد أحمد البدوى فى مكة بالصمت والاقلال من الكلام ، وحكى عنه أخوه الحسن فقال : « وكان لا يتكلم الا باشارة لمن يحبه » . أما فى طنطا فقد قضى معظم أيامه فوق السطوح شاخصا ببصره الى السماء لا يتكلم ، الا أن تكون صيحات عالية تنبعث منه بين فينة وأخرى .

١٢ ــ مجيب الأسارى :

أى أن السيد أحمد البدوى كان يستجيب لنداء أسرى المسلمين وينقذهم من الأسر . وسنرى أن المعاصرين اعتقدوا أن هذه الناحية تمثل جانبا هاما من كرامات السيد أحمد البدوى . وهى فى نفس الوقت تعبر عن صدى من أصداء الحروب الصليبية التى شهدها عصر السيد أحمد البدوى .

١٣ ــ أبو الفرج :

أى أن السيد أحمد البدوى كان مفرج كل الكروب ، وفى ذلك حث على التوسل به والالتجاء الى اعتابه وطلب النصرة والمعونة منه .

١٤ ــ أبو العباس :

غير معروف بالضبط الأصل فى هذا اللقب ، وان كان فولرز يقول فى دائرة المعارف الاسلامية ان هذا اللقب محرف عن أبى الفتيان وهو اللقب الذى سبق شرحه .

١٥ ــ مهارش الحرب :

لقب لقب به السيد أحمد البدوى ، لقبه به أخوه الحسن

فى مكة . ويقال فى اللغة فرس مهارش العنان اذا كان خفيفا نشيطا . ومن الواضح أن المقصود بمهارش الحرب الثناء على شجاعته فى ساحة الوغى والقتال . وقد وصـــفه أخوه الحسن بقوله : « لم يكن فى فرسان مكة أشجع منه » .

مؤلفات السيد البدوى وآثاره الفكرية :

لجأ بعض أتباع السيد أحمد البدوى ومريديه الى المبالغة فى قيمة آثاره الفكرية فزعموا أن له مؤلفات علمية وأنه ترك تراثا فكريا ضخما ، ولما لم يجدوا أثرا لهـــذا التراث الضخم قالوا انه فقد وان ما بقى منه نقل الى مكتبات أوربا وغيرها . والحقيقة التى لا جدال حولها هى أن السيد أحمد البدوى كان رجلا عظيما حقا وأنه ترك تراثا روحيا ضخما ، ولكن هـــذا التراث فى نظرنا لا يكمن فى مؤلفات ألفها أو كتب دونها بقدر ما يكمن فى مثالياته الخلقية والروحية وأسلوبه فى الحياة .

ثم ان حياة السيد أحمد البدوى ــ كما رأيناها ــ كانت لا يمكن أن تمكنه من عمل انتاج علمى وفير . ذلك أن الكتاب الذين يتحدثون عن مؤلفات السيد أحمد البدوى هم أنفسهم الذين يقولون عنه « كان غيابه أكثر من حضوره ، وكانت تأتى عليه الأربعون يوما لا يأكل فيهـــا ولا يشرب ولا ينام ، وهو شاخص ببصره الى السماء وعيناه كأنهما شحمتان ... » . ولا يسعنا ســـوى أن نتساءل كيف كان فى استطاعة السيد أحمد البدوى أن يؤلف أو يكتب أو يملى وهو فى ذلك الوضع ؟

ومع ذلك فقـــد بقيت أمامنا بعض آثار نسبت الى السيد

أحمد البدوى ، وهي فى نظرنا لا تسمو الى مستوى الانتاج الفكرى الراقى ، وان كان بعضها لا يخلو من قيم روحية كبيرة .

وأهم هذه الآثار هى :

١ ـ الحزب :

ترك السيد أحمد البدوى حزبا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لووا عما نووا ، فعموا وصموا عما طووا ؛ رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين .

بسم الله الرحمن الرحيم . ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول .

اللهم اكفنيهم بما شئت . اللهم انى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك فى نحورهم . بك أحاول وبك أقاتل . اللهم واقية كواقية الوليد . بكهيعص كفيت . بحمعسق حميت . فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين » .

٢ ـ صلوات :

وقد شرحها عبد الرحمن بن مصطفى عيدروس ، أحد مشاهير الصوفية فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) بعنوان : فتح الرحمن . ومن هذه الصلوات صلاة مختصرة للسيد أحمد البدوى نصها :

« اللهم صل على نور الأنوار ، وسر الأسرار ، وترياق

الأغيار ، ومفتاح باب اليسار ، سيدنا محمد المختار ، وآله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، عدد نعم الله وأفضاله » .

وسنذكر صلاة أخرى أكثر تفصيلا عند الكلام عن الطريقة الأحمدية .

٣ ـ وصايا وعظات :

وقد وردت معظم هذه الوصايا والعظات فى صورة خطاب موجه من السيد أحمد البدوى الى خليفته السيد عبد العال . ويقول المستشرق فولرز فى دائرة المعارف الاسلامية : « ان الأقوال والعظات التى وردت فى هذه الوصايا هى جمل عامة لها طابع شخصى ، ولهذا فهى تتفق مع الآراء الأساسية للزهاد المسلمين فى جميع عصورهم ، بل يشبه بعضها مذاهب غير المسلمين فى الزهد والتصوف ، ونحن نشك فى أن تكون هذه الآراء ثمرة من ثمار أحمد الروحية وفى امكان اتفاقها وذوقه الصوفى » .

ومن هذه الوصايا :

ـ يا عبد العال ، اياك وحب الدنيا ، فانه يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل ، واعلم يا عبد العال بأن الله تعالى قال فى كتابه المكنون : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ـ يا عبد العال أشفق على اليتيم ، واكس العريان وأطعم الجيعان ، وأكرم الغريب والضيفان ، عسى أن تكون عند الله تعالى من المقبولين .

ـــ يا عبد العال ، عليك بكثرة الذكر ، واياك أن تكون من الغافلين عن الله تعالى ، واعلم أن كل ركعة بالليل أفضل من ألف ركعة بالنهار ، ولا تكن منكرا على فقراء المسلمين جميعهم .

ـــ يا عبد العال ، أحسنكم خلقاً أكثركم ايمانا بالله تعالى ، والخلق السيىء يفسد العمل الصالح ، كما يفسد الخل العسل .

* * *

هذه هي الآثار الفكرية المدونة الثابت نسبتها للسيد أحمد البدوى . وثمة آثار أخرى غير ثابت نسبتها اليه ، ويغلب على الظن أن بعض الكتاب كتبوها ونسبوها الى السيد أحمد البدوى زلفى ورغبة في التقرب وحسن الثواب . ومن هذه الآثار بعض أشعار المناجاة ، اذ يروى البعض قصيدة نسبت الى السيد أحمد البدوى جاء فيها [1] :

الهى أنت للاحسان أهل
ومنك الجود والفضل الجزيل

الهى بات قلبى فى هموم
وحالى لا يسر به خليل

الهى تب وجد وارحم عبيداً
من الأوزار مدمعه يسيل

الهى ثوب جسمى دنسته
ذنوب حملها أبداً ثقيل

---

(١) أحمد عبد المنعم الحلوانى : السمو الروحى فى الأدب الصوفى ؛ ص ٣٤١

الهى جـــد بعفـــوك لى فـــانى

على الأبواب منكسر ذليـــل

ولا شك فى أن نسبة هذا الشعر الرصين الى السيد أحمد البدوى أمر يتعارض مع قول الحافظ بن حجر عنه : « ويؤثر عنه شعر ، لكنه مع كونه موزونا غير معـــرب ، لأن أهل الله لا يلحنون بقلوبهم وان لحنوا بألسنتهم ؛ وقد قيل الفقيه اذا تكلم بالاعراب ذهب الخشوع من قلبه [1] » .

ومن هـــذا النوع أيضـــا من الآثار الفكرية التى نسبـــها أصحابها الى السيد أحمد البدوى تقربا وزلفى ، ما قاله الشيخ الظواهرى بمناسبة زيارة الخـــديو عباس حلمى الثانى لطنطا ، ونصه : « يظهر أن البـــدوى قد بلغ من الأهلية العلمية مبلغا كبيرا ، فانه قد عثر على مؤلف فى مذهب الامام الشافعى منسوب الى سيدى أحمد البـــدوى » . ويقصد بهـــذا الكتاب كتاب « الأخبار فى حل ألفـــاظ غاية الاختصار » وهو مخطوط كتبه شخص يدعى ابراهيم سنة ٦٣٩ هـ . وهذه العبارة العائمة التى ألقاها الشيخ الظواهرى كالسهم الطائش ــ وعلى غير أساس ــ سرعان ما تلقفها بعض الكتاب ، وحاولوا أن يجعلوا منها حقيقة ثابتة ، فقالوا ان ابراهيم هذا لا بد وأن يكون « أحد المريدين الذين كانوا يكتبون للبدوى رسائله ومؤلفاته » [2] . ولا ندرى أى رسائل ومؤلفات هذه التى يعنيها صاحب هذا الرأى ، والتى

---

(١) الحلبى : النصيحة العلوية ؛ ص ٤٩

(٢) ابراهيم أحمد نور الدين : حياة السيد البدوى ؛ ص ٧٣

كان السيد أحمد البدوى فى اقامته فوق السطح بطنطا فى حاجة الى مجموعة من الكتبة ليمليها عليهم . واذا كان غيابه أكثر من حضوره ، فهل كان يملى هذه المؤلفات فى حالة حضوره أم فى حالة غيابه ؟ ثم ان السيوطى يقول عن السيد أحمد البدوى انه « قرأ شيئا من الفقه على مذهب الشافعى »[1] فهل كان هذا « الشىء » كافيا لأن يبلغ صاحبه « من الأهلية العلمية مبلغا كبيرا » يؤهله لكتابة مؤلف فى المعاملات والأحوال الشخصية على مذهب الشافعى ؟ هذا الى أن الكتاب المذكور كتب ولما تمض سنتان على وصول السيد البدوى الى طنطا ، فهل هذه المدة الوجيزة التى كان الرجل فيها ما زال فى الدور الأول من أدوار تاريخه فى مصر ــ أى مشغولا بالتمكين لنفسه والعمل لاكتساب الأتباع والمريدين ــ كافية لأن يؤلف كتابا فى الفقه الشافعى ؟ وأخيرا اذا كان ابراهيم هذا من كبار أتباع السيد البدوى فلماذا لم يرد اسمه وعمله ضمن أسماء السطوحيين الذين لازموا السيد أحمد فى حياته فوق السطح بطنطا ؟

الراجح فى رأينا أن كتابا كهذا لا بد وأن يكون ألفه أحد المجتهدين ثم نسب بطريقة أو أخرى الى السيد أحمد البدوى طمعا فى رضائه وحسن ثوابه .

موقف الفقهاء المعاصرين من السيد أحمد البدوى :

من الظواهر الواضحة فى تاريخ التصوف ذلك النزاع بل الصدام بين الفقهاء والمتصوفة . والواقع ان المتتبع لنشأة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ؛ ص ٢٤٨

التصوف ونموه وازدياد نفوذ رجاله ، لا بد وأن يتوقع لحظة يصطدم فيها الفقهاء والمتصوفة ، لأن كلا من الفريقين اتخذ الدين سبيلا للحياة والظهور فى المجتمع واكتساب محبة الناس وولائهم . لذلك كان طبيعيا أن يحسد كل فريق الفريق الآخر على ما يصيبه من نفوذ ونعم ، وأن ينشأ النزاع بينهما ، وهو نزاع من أجل البقاء والاحتفاظ بالسلطان على قلوب الناس من ناحية وان اتخذ الدين سببا ظاهريا له من ناحية أخرى [1].

وقد فسر بعض الباحثين أسباب الخلاف بين الفقهاء والصوفية على أساس أن كلا من الفريقين له اتجاه يختلف عن الآخر ، وان كان الجميع يعملون داخل اطار الدين . فالعلماء والفقهاء يرون الشريعة قوانين محددة منظمة يسهل الرجوع اليها فى الفصل بين الناس ، فى حين يعتمد الصوفية على الخواطر ويستفتون القلوب ، وليس فى هذا شيء محدود ثابت . وقد رد الصوفية على ذلك بأن أهل العلم على نوعين : عالم عامة وعالم خاصة ؛ فأما عالم العامة فهو المفتى فى الحلال والحرام ، وهؤلاء أصحاب الأساطين (أى الأسطوانة وهى عمود المسجد) ؛ وأما عالم الخاصة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة ، وهؤلاء هم أهل الزوايا وهم المنفردون .

واذا كان الصوفية قد أخذوا يعتدون بأنفسهم مع ازدياد نفوذهم ، فقالوا ان العلم الذى يسود صاحبه هو التصوف ، فى حين أن الفقه هو محصول العامة من الناس ، فان العلماء ردوا

---

(١) توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ص ١٦٥ .

عليهم بأن ظاهر الشرع لا يعترف للصوفية بوجود صحيح . وهكذا أخذت المعركة بين الفقهـــاء والصوفية تحتدم وتتسع دائرتها تدريجيا ، وهى فى حقيقة أمرها ـــ كما سبق القول ـــ ليست سوى معركة من أجل الاستئثار بالنفوذ والسلطان . وفى تلك المعركة وجد العلماء والفقهاء سندا قويا لتجريح خصومهم بسبب اعتماد الصوفية على الخواطر واهمال الشرع حتى أشاعوا عنهم أنهم مجانين . وقد روى عن الشافعى أنه قال : « لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتى الظهر حتى يصير أحمق ! » وأنه قال كذلك ما لزم أحد الصوفية أربعين يوما فعاد عقله اليه أبدا . كذلك وضع ابن الجوزى كتابا يقوم على أساس الشرع والعقل سماه « تلبيس ابليس » عرض فيه لأحوال الصوفية وتناولهم بالذم والتقريع[1] .

ونستطيع نحن أن نقرر أن المعركة التى دارت بين الفقهاء والعلماء من ناحية والصوفية من ناحية أخرى ، انما كانت الى حد بعيد بين العقل والمنطق من جهة والعاطفة من جهة أخرى . وفى عصر عمه الجهل ، وفى مجتمع ساد أفراده التأخر والجمود ، كان لايمكن للعقل أن ينتصر على العاطفة ، لأن الناس لايحكمون عقولهم ويغلبونها على عواطفهم الا اذا كانوا قد بلغوا مبلغا كافيا من النضج الفكرى والاجتماعى .

ومهما يكن من أمر ، فانه لم يكن منتظرا أن يظل السيد أحمد البدوى بعيدا عن معركة التحاسد بين الفقهاء والصوفية .

---

(١) زكى مبارك : التصوف ، جـ ٢ ص ١٨ ـــ ٢٠

وثمة حقيقة واضحة تبدو فى الكتابات التى عالجت سيرة السيد أحمد البدوى ، هى أنه تعرض لنقد شديد من فقهاء عصره ، وأن بعضهم رموه بالدجل والبعد عن الدين . وقد ذكرت لنا هذه الكتابات الانتقادات التى وجهها العلماء والفقهاء الى السيد أحمد البـــدوى ومريديه ، ولكنها لم تذكر للأســف الدفاع والردود التى حاول السيد البــدوى وأتباعه الدفاع بها عن أنفسهم . وكل ما هنالك هو أن الرواة اختلقوا بعض القصص التى لا يقبلها العقل لمحاولة اظهار مدى بطش السيد البدوى بالمعترضين عليه والساخرين منه ، وكيف أن انتقامه يأتى شديدا سريعا .

والغريب فى أمر أولئك الكتاب الذين دونوا سيرة السيد أحمد البدوى ، أنهم لم يتحرجوا فى سبيل اظهار قدرته على البطش بأعدائه وخصومه من ذكر أشياء رأوا فيها أدلة على قوته ، ونرى نحن فيها اساءة بالغة لذلك القطب الكبير . من ذلك ما يروونه عن أحد علماء المالكية أنه كان كثير الانكار على السيد البدوى ، حتى ذهب ذلك العالم ومعه جماعة من طلبته الى طنطا لاستجلاء حقيقة ذلك الصوفى الذى كثر حوله الكلام . وهناك فى طنطا جلسوا بجوار الدار التى يعيش فوق سطحها السيد أحمد البدوى ؛ حيث أخذوا يتكلمون عنه وينتقدونه . وكان أن سمعهم السيد البدوى وهو فوق السطح فأتى الى طرف السطح فوق رؤوسهم وبال عليهم !! ولما فزع الفقهاء وصاحوا : « ما هذا البول على طلبة العلم ؟ » . رد عليهم السيد

البدوى فى هدوء : « ما يؤكل لحمه فبوله طاهر !! » .

وإذا كان هذا هو موقف المالكية من السيد أحمد البدوى ، فان ثمة روايات أخرى تشير الى أن الشافعية كانوا أكثر اعتراضا على أسلوب البدوى ومنهجه . وقد شاءت الظروف أن يعاصر السيد أحمد البدوى قاضى القضاة الشافعى ــ الشيخ تقى الدين محمد المعروف بابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ . واشتهر هذا الرجل بنفوذه واستقامته حتى أشاد به النويرى ، وقال عنه انه كثير التطلع الى أخبار نوابه بالأعمال والبلاد ، وانه كان يرسل اليهم دائما يحذرهم من عواقب الغفلة والاهمال [١] وكان من الطبيعى أن يسمع ابن دقيق العيد بأخبار السيد أحمد البدوى فى طنطا ، فأراد أن يستجلى حقيقة أمره ، وعهد الى الشيخ عبد العزيز الديرينى باستقصاء الأمر ؛ وقال له « امتحن لى هذا الرجل الذى اشتغل الناس بأمره فى هذه المسائل ، فان انبأك عنها فهو ولى ! » . وما ان دخل الشيخ عبد العزيز على السيد البدوى وسأله حتى أجاب بأحسن جواب ، الأمر الذى جعل الشيخ عبدالعزيز ؛ اذا سئل عن السيد البدوى يقول : « هو بحر لا يدرك له قرار » [٢] وفى رواية أخرى ان الشيخ ابن دقيق العيد لما أرسل الشيخ عبد العزيز الديرينى الى السيد البدوى ليخبره بحاله قال له « ان وجدته من أهل العلم فاسأله لى الدعاء » . فلما رآه السيد البدوى قال له قبل أن يتكلم « يا عبد العزيز سلم على قاضى القضاة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ؛ جـ ٢٩ ورقة ١٢١١ .

(٢) الحلبى : النصيحة العلوية ؛ ص ٥٢

وقل له يصلح غلطا فى المصحف الذى عنده معلقا فى صدر بيته ، غلطة فى سورة يس وغلطة فى سورة الرحمن » . ولما روجع المصحف وجد الأمر كما ذكر السيد البدوى .

على أنه يبدو أن الشيخ عبد العزيز الديرينى تأخر فى الرد على قاضى القضاة ، الأمر الذى دفع ابن دقيق العيد الى الذهاب بنفسه الى طنطا لاستجلاء حقيقة الأمر . وتروى الأسطورة أن ابن دقيق العيد عندما اجتمع بالسيد أحمد البدوى قال له « يا أحمد ! هذا الحال الذى أنت فيه ما هو مشكور ! فانه مخالف للشرع الشريف ! انك لا تصلى ولا تحضر الجماعة ، وما هذا طريق الصالحين !! » . وعندما سمع السيد البدوى كلام ابن دقيق العيد صاح فيه « اسكت ! والا أطير دقيقك » . ثم دفعه السيد البدوى « دفعة لطيفة » ، فلم يشعر ابن دقيق العيد بنفسه الا وهو فى جزيرة واسعة ، لم يعلم لها طولا ولاعرضا . وعندئذ أخذ ابن دقيق العيد يلوم نفسه ويعاتبها وهو ذاهل العقل شارد الفكر ، ويقول « مالى ومعارضة أولياء الله تعالى ! فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . وبينما هو يبكى ويستغيث ويبتهل الى الله تعالى ، اذ ظهر له رجل له هيبة ووقار وسلم عليه ، فرد عليه السلام وقام اليه وجعل يقبل يديه ورجليه ، وعندئذ نظر اليه الرجل وقال : « ما قضيتك ؟» فأخبره ابن دقيق العيد بما حدث له مع السيد البدوى ، فقال له الرجل «وقعت فى أمر عظيم ! أتدرى كم بينك وبين القاهرة ؟» قال : « لا ، والله » . قال : « بينك وبينها سفر ستين سنة !! » .

وكان أن ازداد ابن دقيق العيد هماً على هم ، فعظم خوفه وأخذ يردد « يا ترى من يخلصنى من هذه الورطة ؟ انا لله وانا اليه راجعون ! » . ولم يجد أمامه سوى الرجل اياه ، فأقبل عليه يستنجد به ويقول له : « أرشــدنى يرحمك الله » . فقال له الرجل : « هون عليك الأمر ، فما يحصل لك الا الخير ان شاء الله تعالى » . ثم أخذه بيده ، وأراه قبة كبيرة وقال له : « ترى هذه القبة ! اذهب اليها واجلس فيها ، فان سيدى أحمد البدوى يصلى فيها العصر بجماعة من الرجال ، ويودعونه وينصرف كل منهم الى حال سبيله . فاذا صليت معهم فتعلق به ، وتملق بين يديه ، وقل له : استغفر الله وأتوب اليه ولا أعود لما صدر منى . فاذا رأى منك ذلك يقبل عليك ويردك الى موضعك ! » .

وتمضى الأسطورة تقول ان ذلك الشيخ الوقور الذى ظهر لابن دقيق العيد لم يكن سوى الخضر عليه الســلام ، فامتثل قاضى القضاة لأوامره ، وقصد القبة المشار اليها فلم يمض بعض الوقت ، حتى اجتمع جماعة وأقيمت الصلاة وتقدم الامام ، فنظر اليه ابن دقيق العيد فاذا هو السيد البدوى . وبعد الصلاة اتجه اليه قاضى القضاة ، وتعلق به ، وجعل يقبل يديه ورجليه ويبكى ويستغفر ويعتذر ، وعندئذ قال له السيد أحمد البدوى « ارجع عما كنت فيه ، ولا تعــد الى مثله » . فرد ابن دقيق العيد : « السمع والطاعة يا سيدى ! » . وكان أن دفعه السيد البدوى « دفعة لطيفــة » وقال له : « اذهب الى بيتك فان عيالك فى انتظارك ! » فلم يشعر ابن دقيق العيــد الا وهو واقف بباب داره بمصر ، وظل مقيما مدة داخل بيته لا يخرج من أثر الصدمة

وما جرى له مع السيد أحمد البدوى [1] .

هذه هى القصة التى رواها الرواة عن علاقة السيد أحمد البدوى بابن دقيق العيد . والقصة ــ كما يتضح لنا ــ يغلب عليها الطابع الخرافى ، ونستطيع أن نخرج من دراستها وتحليلها بالحقائق الآتية :

أولا : عدم رضاء الفقهاء المعاصرين عن أسلوب السيد أحمد البدوى وسلوكه ومنهجه ، ومعارضتهم له .

ثانيا : محاولة اقناع عامة الناس أنه اذا كان السيد البدوى لا يباشر صــلاة الجمعة والجمــاعة وهو فوق السطح ، فان له شطحات بعيدة فوق مســتوى ادراك البشر ، وانه كان يباشر هذه الصلوات مع قوم من الأصفياء فى مكان بعيد ، ثم يعود الى موضعه فوق السطح دون أن يشعر به أحد .

ثالثا : تحذير كافة الناس من التعرض بنقد لسلوك السيد أحمد البدوى والا ذاقوا العذاب الشديد . ومن الواضح أن اختيار ابن دقيق العيد بالذات محورا لهذه القصة أمر له مغزاه ، لأنه كان أشهر فقهاء عصره وأوسعهم نفوذا وأكثرهم حرمة عند السلاطين والأمراء . فاذا كان السيد أحمد البدوى قد فعل كل ذلك بابن دقيق العيد ، فما بالنا بصغار الفقهاء وعامة الناس اذا جرؤ أحدهم على التعرض له بنقد أو تجريح ؟ ولعله من الجلى لنا أن الدافع الى اختيار ابن دقيق العيد محورا لهذه القصة هو نفس الدافع الذى جعل الرواة يقولون عن الظاهر بيبرس انه حرص على اظهار الخضوع والولاء للسيد أحمد البدوى وأسرته .

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٣٩

الفصل الرابع

كرامات الأستاذ

وكم للملثم من خوارق عادة
بدت وكرامات عن الحصر جلت

الاعتقاد فى بركة الأولياء والصالحين شعور طبيعى يبرزه احساس الناس بأن أولئك الأولياء والصالحين أقرب الى الله تعالى ، وأنهم بحكم عملهم الصالح وصفاء قلوبهم أوتوا من العلم والقدرة ما لم يتيسر لسائر العباد . واذا كانت هذه هى مكانة الأولياء والصالحين عند الله ، فانه أمر غير غريب أن يلتجأ الناس اليهم يطلبون وساطتهم ويتمسحون بهم عسى أن يصيبهم شيء من بركتهم . وبقدر ما يزداد الجهل ويضعف المستوى الثقافى لشعب من الشعوب بقدر ما تنتشر بين أفراده المعتقدات الباطلة ، فيتحول احترام الأولياء والصالحين الى تقديس ، وقد يتحول التقديس الى تأليه ، فتنتشر القصص الخرافية عن معجزات هذا الولى أو ذاك ، وغالبا ما يروج لهذه القصص جماعة من المنتفعين الذين يعيشون على سمعة ذلك الولى ويتكسبون — بل يجمعون الثروات الضخمة — مما يقدم لضريحه من هدايا ونذور أو مما يصرف فى مولده من أموال ونفقات .

وقد اتضحت هذه الظاهرة فى مختلف الأديان السماوية وغير السماوية . ففى المسيحية ظل المسيحيون طوال العصور الوسطى يهرعون الى أضرحة الشهداء والقديسين ، مثل القديس يعقوب فى أسبانيا والقديس دنيس فى فرنسا ، والقديس مينا فى مصر ، يطلبون البركة والتوفيق . وسرعان ما تنتشر الشائعات عن

كرامة هذا القديس أو ذاك ، ومقدرته على فك الأزمات ، فيهرع الناس اليه كلما حلت بهم محنة أو حاق بهم خطر ، ويتمسحون بضريحه طالبين رفع كربة أو كشف غمة . وكثيرا ما نقرأ فى الوثائق الغربية فى العصور الوسطى أن الناس عند انتشار وباء من الأوبئة ــ مثل الوباء الأسود الذى اجتاح جزءا كبيرا من العالم عند منتصف القرن الرابع عشر للميلاد ــ كانوا لا يجدون مخرجا سوى التوسل بالقديسين ، بوصفهم القوة الوحيدة التى تستطيع تخليصهم مما يعانونه من بلاء وعناء .

بل لقد بلغ الأمر بالمسيحيين فى العصور الوسطى أن أخذوا يقدسون صور وتماثيل القديسين ، فاعتقدوا أن صورة مريم العذراء الموجودة فى دير معين تشفى من الأمراض ، وأن تمثال المسيح القائم فى كنيسة بعينها يحل الأزمات ، فانتشرت عبادة الصور والتماثيل والأيقونات فى العالم المسيحى مشرقه ومغربه ، وظل المسيحيون متمسكين بها حتى داخل حدود الدولة الاسلامية ، الأمر الذى جعل الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك يعتبر ذلك ضربا من عبادة الأصنام ، فأمر سنة ٧٢٣ للميلاد بازالة جميع الأيقونات ــ من صور وتماثيل دينية ــ من الكنائس والأديرة الواقعة داخل حدود الدولة العربية . ولم يلبث أن أحس بعض أباطرة الروم من المصلحين بسوء ذلك الوضع ، وبأن جيرانهم المسلمين يعيبون عليهم عبادة الأصنام ، فأصدر امبراطور الروم ليو الثالث الأيسورى مرسوما سنة ٧٢٦ للميلاد يحرم عبادة الأيقونات وازالة جميع التماثيل والصور الدينية من

الكنائس والأديرة داخل حدود دولته ، مما آذن بحركة شهيرة فى العالم المسيحى الأوربى عرفت باسم الحركة اللاأيقونية [1] .

الكرامات فى الاسلام :

واذا كان الاسلام قد نادى بأن لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وجاء ظهوره مصحوبا بتحطيم الأصنام والقضاء على البدع والخرافات ، الا أنه مع انقضاء دور الازدهار بالنسبة للدولة العربية الاسلامية ، من ناحية ، ومع انتشار تيار التصوف فى أرجاء العالم الاسلامى من ناحية أخرى ، أخذ أصحاب المصالح يروجون لكرامات الأولياء ويبالغون فى هذه الكرامات مبالغة تتمشى وانتشار الجهل وضعف المستوى الفكرى للناس . فاذا قيل لماذا لم تظهر كرامات للصحابة مع عظم مكانتهم عند الله ، رد على ذلك المناوى فى طبقاته الكبرى : « انما كانت الكرامات بعد زمن الصحابة أكثر ، لأن قوة ايمانهم لا تحتاج معها اليها ، ولأن الزمن الأول كان كثير النور ، فلو حصلت لم تظهر كل الظهور لاضمحلالها فى نفس النبوة بخلاف من بعدهم . ألا ترى أن القنديل لا يظهر نوره بين القناديل بخلاف الظلام ، والنجوم لا يظهر لها ضوء مع الشمس » . وهكذا لم يحاول المناوى أن يعلل عدم ظهور الكرامات فى العصر الأول للاسلام تعليلا صحيحا على أساس أن الاسلام فى دوره الأول كان قويا

---

(١) عن هذه الحركة بالتفصيل ، انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ؛ جـ ١ ص ١١٥ وما بعدها .

وأن العقيدة كانت سليمة ، فلم يكن هناك مجال للخرافات والافتراءات والمتاجرة باسم الدين .

على أن الأخذ بمبدأ الكرامات كان معتدلا فى أول الأمر . من ذلك أن الامام المناوى عرف الكرامة بأنها « اظهار أمر خارق للعادة على يد الولى مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى نبوة ، وتكون للدلالة على صدقه وفضله أو لقوة يقين صاحبها أو غيره » . كذلك وجد من العلماء من أنكر المبالغة فى اختلاق الكرامات والاعتقاد فيها ، فالأسفرايينى يقول ان الكرامة لا ينبغى أن تبلغ مبلغ خرق العادة ، وكل ما كان معجزة لنبى لا يجوز مثله كرامة لولى ، وانما غاية الكرامات اجابة دعوة ، أو شربة ماء فى مفازة ، أو كسرة فى منقطعة ، أو ما يضاهى ذلك . أما القشيرى فقال ان الكرامة لا ينبغى أن تنتهى أبدا الى وجود ابن بغير أب ، أو قلب الجماد بهيمة ...

ومع انتشار التصوف ، لم يرض الصوفية المتطرفون بهذا الاعتدال ، لأن الصوفية اعتبروا أنفسهم ورثة الأنبياء ، بل وضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع الأنبياء ، وبلغ الأمر ببعضهم أن اعتبروا الولى أعظم مكانة من النبى . وقد نسب الى السيد عبد القادر الجيلانى أنه قال : « أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب وأوتينا ما لم تؤتوا[1] » . ثم ان المبالغة فى الكرامات كانت فيها عزاء للصوفية والفقراء ، لأنهم بذلك «يخلقون لأنفسهم دنيا

---

(١) الشعرانى : الجواهر والدرر ، ص ٢٧٨

من المجد الموهوم يعوضون فيها ما ضاع عليهم من حظوظ الدنيا »[1] .

واذا كانت ظاهرة انتشار الخرافات تتناسب طرديا مع الانحلال والضعف السياسى والتأخر الاجتماعى والاقتصادى والجمود الفكرى ، فانه كان من المتوقع أن نجد هذه الظاهرة قد فشت فشوا خطيرا فى المجتمع الاسلامى مشرقه ومغربه فى القرن السابع للهجرة ، وهو عصر التأخر والانحلال من ناحية وانتشار التصوف ـ كما سبق أن شرحنا من ناحية أخرى . ويبدو أن هذه الخرافات وجدت فى مصر بالذات بيئة صالحة منذ ذلك الوقت ، بسبب ما تعرضت اه البلاد والعباد من مظالم نتيجة لحكم المماليك ثم العثمانيين من بعدهم . ويعتبر الشعرانى الى حد كبير من أكبر المسئولين عن الترويج لهذه الخرافات ، ويبدو أنه أوتى من خصوبة الخيال وسرعة البديهة وقوة الذكاء ، ما مكنه من سبك عدد لا حصر له من كرامات الأولياء والمشايخ وتقديمها لمعاصريه فى الصورة التى ترضى ذوقهم وتسر نفوسهم . ومعظم هذه الكرامات لا يصدقها العقل ولا يستسيغها ضمير المؤمن الحق ، ولكنها وجدت قبولا فى عصور ضعف فيها العقل وقل فيها المؤمنون الواعون . وقد ذكر السخاوى أن من جملة كرامات الأولياء انقلاب الأعيان ، فيدعو للفقير فيصبح غنيا ، ويقول للطبق النحاس « صر ذهبا » فيصير ذهبا ، وكذلك المشى على الماء ، والكشف عن حال الموتى ، وسماع

---

(١) زكى مبارك : التصوف ؛ جـ ٢ ص ٢٨٤

كلامهم ، بل احيائهم ، والكلام عن المستقبل والماضى [1] .. أما الشعرانى فيحكى الكثير عن الكرامات التى سادت عصره ، فهذا شيخ يجتذب الحلفاء من الصحراء فتخرج قلقاسا ، وهذه امرأة تشتهى جوز الهند ولا يجدونه بمصر ، فتذهب الى الشيخ ، فاذا بشجرة تنبت فجأة فى خلوته تأخذ منها المرأة ما تشتهيه ، ثم تختفى الشجرة بعد ذلك ! وهذا رجل يحتاج الى المال لضرورة فيأمره الشيخ بالذهاب الى ساقية معينة ليغترف منها ما يشاء من ذهب وفضة . ومن الأولياء من يضع التراب على الرصاص فيصبح ذهبا ، ومنهم من يسخر التماسيح فى عبور النيل ، ومنهم من يطير فى الهواء بغير أجنحة ، ومنهم من يأمر عصاه أن تكون انسانا فتصبح انسانا ... بل ان الشعرانى يحكى عن نفسه أنه سمع تسبيح الجمادات والحيوانات وسمع من يتكلم فى أطراف مصر وسائر الأقاليم ، كما سمع تسبيح السمك فى البحر المحيط ... الى غير ذلك من الكرامات والاعتقادات التى هى الى الكفر والجهل أقرب منها الى الدين والعلم [2] .

أنواع الكرامات :

قسم ابن عربى فى الفتوحات الملكية الكرامات الى قسمين حسية ومعنوية . أما الكرامات الحسية فهى للعامة ، ومن أمثلتها الاخبار بالماضى والحاضر والمستقبل ، والمشى على الماء ، وامساك

---

(١) السخاوى : تحفة الأحباب ، ص ٣٣٢
(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ص ١٤٢ ــ ١٩٢

النار ، وطى الأرض ، ونحو ذلك . أما الكرامات المعنوية فهى للخاصة ، وتنحصر فى التمسك بآداب الشريعة قولا وعملا .

وكان المفروض ألا يهتم الأوليـــاء والصالحون بالكرامات الحسية لأن الكرامات المعنوية أفضل عند الله تعالى وأعمق أثرا فى القلب والنفس . ولو اتبع الصوفية وأدعياؤهم هذا الرأى الذى قال به بعض العقلاء مثل الامام تاج الدين بن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن ، لســلم التصــوف من كثير من الانتقادات التى وجهت اليه والى رجاله . ولكن الذى حدث هو أن الصوفية ومريديهم وجهوا اهتمامهم نحو نشر الشائعات عن كراماتهم الحسية ، لأنها أقرب الى مفـاهيم الناس فى عصور الجهل ، وتناسى معظمهم الكرامات المعنوية بمـا فيها من معان روحية سامية أهمها ضبط النفس وخشية الله والامتثال لشريعته وتعاليمه . وكان السبب فى ذلك أنهم اعتقدوا أن الولاية ــ على الأقل فى نظر الناس ــ لا تهتم الا باظهار آثار القدرة المحسوسة على يديه . ثم ان الجيلانى يقول انه ليس من شروط الولى أن يعلم أنه ولى ، وانما يجوز ألا يعلم ذلك ، لأن عدم معرفته ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن . وهو فى جميع الحالات تظهر ولايته للناس عن طريق رؤيتهم قدرته المحسوسة ، وهذه القدرة المحسوسة هى التى تبدو فى صورة كرامات .

أما عن هذه الكرامات وأنواعها ، فيروى الخفاجى أن بعض الأئمة حدد أنواعها بعشرين نوعا ، كلها من النوع الحسى ، نذكرها

هنا لنخرج بفكرة عن مدى ايمان الناس بقدرة الأولياء والمشايخ [1].

النوع الأول : احياء الموتى ؛ وهذا أعلى أنواع الكرامات . ومن أمثلة ذلك : أن السيد الجيلانى وضع يده على عظم دجاجة أكلها وقال لها : « قومى باذن الله الذى يحيى العظام » ؛ فقامت بقدرة القادر جل جلاله !

النوع الثانى : كلام الموتى ؛ وكان بعض الصوفية يخاطب الامام الشافعى رضى الله عنه ، فيكلمه فى قبره .

النوع الثالث : انفلاق البحر وجفافه والمشى عليه ؛ وهذا النوع كثير الحدوث .

النوع الرابع : انقلاب الأعيان ؛ ومنه ما ذكر عن بعض الأولياء أن أحدهم أرسل اليه بعض المستهزئين باناءين من خمر ؛ فصب من أحدهم عسلا ، ومن الآخر سمنا ، وأطعم الحاضرين .

النوع الخامس : انزواء الأرض لهم ؛ وقد حكى عن بعضهم أنه كان بمسجد طرسوس فاشتاق لزيارة الحرم ، فأدخل رأسه فى جبته وأخرجها فى الحرم !

النوع السادس : كلام الحيوان والجماد ، وهناك أمثلة عديدة لهذا النوع من الكرامات ، منها أن ابن أدهم قعد تحت شجرة رمان ، فقالت له « يا أبا اسحاق ، اكرمنى بأكلك منى » . فأكل منها ، وكان رمانها حامضاً فحلا ، وحملت فى انعام مرتين ، وسميت رمانة العابدين !!

---

(١) الخفاجى : النفحات الاحمدية ، ص ٣٤ ــ ٣٦

النوع السابع : ابراء العلل ؛ ومن ذلك ما يروى عن الجيلانى أنه قال لصبى مقعد مفلوج أعمى : « قم باذن الله تعالى » ؛ فقام لا عاهة به !

النوع الثامن : طاعة الحيوان والجماد للأولياء ، فيحكى عن أحدهم أنه كان يركب الأسد ، كما يحكى عن آخر أنه قال : « يا ريح خذيهم » فأخذتهم .

الأنواع التاسع والعاشر والحادى عشر : طى الزمان ونشره واجابة الدعاء ؛ ومن ذلك أن بعض الأولياء كان يقرأ فى يوم وليلة بصوت مسموع وحروف واضحة ثلثمائة وستين ألف ختمة . ومنها أيضا أن أحدهم غطس فى النيل فرأى أنه تزوج فى بغداد وعاش هناك سبع سنين وأنجب أولاداً ، ثم خرج من تلك الغطسة فرأى ثيابه على شاطىء النيل بجهة مصر العتيقة ، فلبسها والمؤذن يؤذن لصلاة الجمعة . ولم يلبث أن أتى أولاده وأمهم من بغداد فعرفهم وعرفوه ، وأقرهم العلماء على ذلك النكاح !! وهذا هو المقصود باطلاق « أهل الخطوة » على بعضهم .

النوع الثانى عشر : الاخبار ببعض المغيبات والكشف ؛ وهذا النوع على درجات . على أن القائلين بهذه الكرامات أرادوا أن يحتاطوا لقوله تعالى : انه « عالم الغيب » فقالوا انه « يجوز أن يخص بحال القيامة بقرينة السياق » .

النوع الثالث عشر : الصبر على عدم الطعام والشراب الأمد الطويل .

النوع الرابع عشر : مقام التصريف ، وهـذا النوع كثير « لا ينكره الا معاند » . من ذلك ما قاله الشعرانى فى كتابه الجوهر المصون عن التصريف بالهمة فى الكون ، فيمشى الولى على الهواء والماء ، ويدخل النار فلا تحرق له ثوبا ولا جسداً .

النوع الخامس عشر : القدرة على تناول الكثير من الغذاء !! من ذلك ما حكى عن الشيخ دمرداش أن بعض الأمراء عمل وليمة ودعاه وجماعته ، فتوجه الشيخ وحده ، فاستاء الأمير لعدم حضور أتباع الشيخ من الفقراء لأنه كان صنع طعاما وفيرا ، وقال : « من يأكل الطعام ؟ » . ولكن الشيخ أكله كله !!

النوع السادس عشر : الحفظ عن الحرام أن يدخل الجوف ، وقد حكى عن بعضهم انه اذا كان حضر اليه طعام فيه شبهة يتحرك فيه عرق ويتصبب منه .

النوع السابع عشر : رؤية الأماكن البعيدة من وراء الحجب ، فمن ذلك أن الشيخ أبا اسحق الشيرازى كان يشاهد الكعبة وهو فى بغداد !!

النوع الثامن عشر : الهيبة التى كانت لبعضهم بحيث يموت من يشاهده من شدة هيبته .

النوع التاسع عشر : قصم الله تعالى لمن يريد بهم سوءا .

النوع العشرون : التطور بأطوار مختلفة .

هذه هى أنواع الكرامات التى ذكرها الخفاجى ، ومن

الواضح أنها تحقق للمشايخ والأولياء كل ما يريدونه لأنفسهم ـــ أو كل ما يريده لهم أتباعهم ـــ من قوة وعظمة وبأس .

السيد البدوى مفترى عليه :

واذا كان السيد أحمد البدوى ولى من الأولياء وشيخ من كبار المشايخ ، فانه لا بد ـــ فى نظر أتباعه على الأقل ـــ من أن تكون له كرامات تتناسب مع ما أراده له أتباعه من مجد وعظمة . ومن الواضح أنه بقدر ما تزداد قدرة الولى فى نظر الناس ، بقدر ما يشتد اقبال الناس عليه وتهافتهم على الانضواء تحت لوائه ، ورغبتهم فى الاستغاثة به والاستنجاد بقدرته كلما ألمت بهم شدة أو ضائقة . وقد أشرنا من قبل الى أنه وجدت حول كل رجل صالح من عباد الله الصالحين وحول كل ولى من أوليائه المتقين مجموعة من المنتفعين الذين يعيشون على حساب سمعة ذلك الولى أو الشيخ حيا وميتا . وهـؤلاء يهمهم أن يظهروا شيخهم فى صورة القادر على كل شىء ؛ فما من كربة الا وهو قادر على تفريجها وما من غمة الا ويستطيع كشفها . وبقدر ما ينجحون فى الدعاية لشيخهم بقدر ما يزداد صيته ، فيقصد الناس مقامه من البلاد القريبة والبعيدة سواء ، على موعد أو غير موعد ؛ وهؤلاء كثيرا ما يكونون مصدر خير عميم على الشيخ ان كان حيا ، وعلى الملتفين حول ضريحه ان كان ميتا ؛ وفى جميع الأحوال يعم خيرهم البلدة التى بها الشيخ أو مقامه ؛ وذلك بما ينفقونه من أموال وصدقات . والمعروف أن الانسان اذا ألمت به شدة هان فى نظره المال ، وجاد به حتى لو كان بطبعه

غير جواد . وهكذا يقصد أصحاب الحاجات شراء رضاء الشيخ ــ وأتباعه ــ بما يقدمونه من صدقات ونذور فى مقامه ، فاذا رضى الشيخ عنهم ، فان طلبهم مجاب وحاجتهم مقضية .

ومن الواضح أن أكبر فئة من المنتفعين هم خلفاء الولى أو الشيخ وخدمة مقامه . فهؤلاء هم الذين تنهال عليهم الصدقات والنذور وهم المستيفدون من الأوقاف المحبوسة على مقام الشيخ . وهذه الأوقاف والنذور تعتبر من الناحية الاسمية خاصة بسيدى فلان من أولياء الله الصالحين ، ولكنها كانت من الناحية الفعلية قسمة مستحلة بين فلان وفلان وفلان من أتباع الشيخ وخدمة ضريحه . واذا كان الزوار يحجون لمقام هذا الشيخ أو ذاك اعتقادا فى قدرته على قضاء الحاجات ــ لأنه لا داعى لأن يلجأ صاحب الحاجة الى التوسل بشخص ضعيف لا حول له ولا قوة ــ فان الهدف الأول لأولئك المنتفعين الملتفين حول مقام الولى صار المبالغة فى قدرته ، واختلاق القصص عن كراماته ومشيئته النافذة ، ونشر هذه القصص بين السذج والبسطاء الوافدين على مقام الشيخ أو دسها فى عقولهم دسا . وبذلك يتضاعف دائما عدد أتباعه ومريديه والمعتقدين فيه ... وكان الله يحب المحسنين .

كان هذا هو الوضع بالنسبة للسيد أحمد البدوى ، فقد أخذ جماعة المنتفعين من أتباعه يروجون له على مر الأجيال ، ويختلقون القصص المبالغ فيها عن كراماته واعجازه ، وانتهزوا فرصة الجهل المطبق والتأخر الشديد اللذين اتصف بهما المجتمع

المصرى منذ أيام المماليك فى القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ، ليدخلوا ادعاءاتهم فى عقول البسطاء من عامة أهل البلاد وبخاصة أبناء الريف ، وكل هدفهم من ذلك هو وضع السيد أحمد البدوى فى مكان الزعامة بالنسبة لأولياء مصر جميعا. وبعبارة أخرى فقدكان هدفهم من المبالغة فى هذه الكرامات هو اظهار السيد أحمد البدوى فى صورة قطب الأقطاب وونى الأولياء وكبير الصالحين والعباد ، فمن أراد قضاء حاجة فلا داعى لاضاعة الوقت والجهد فى الطواف على صغار المشايخ وانما عليه بالتوجه الى مقام السيد أحمد البدوى مباشرة ، وبقدر المدفوع يكون الأجر والثواب ...

ويخيل الينا أن البيئة التى عاش ومات فيها السيد أحمد البدوى فى أرض مصر كان لها أثر بعيد فى النجاح الذى حققه أتباعه ودعاته فى نشر أنباء كراماته وحمل كثيرين على الايمان بها . ذلك أن السيد أحمد البدوى أتى الى مصر ليستقر فى طنطا حيا وميتا . واذا ذكرنا طنطا فاننا نعنى تلك القرية المتواضعة القائمة وسط الريف ، والتى كان لها من سلامة الموقع الجغرافى ما يضمن لها أن تصبح فى أى وقت حاضرة الدلتا . فالى طنطا كان يسهل اتجاه عامة الفلاحين والقرويين من المنوفية والقليوبية والدقهلية والشرقية والبحيرة وغيرها . وفى طنطا كان يسهل أن يجتمع الوافدون من جنوب البلاد وشمالها وشرقها وغربها . وكان يكفى أن تنطلق قصة أو اسطورة من طنطا ليتحدث بها الناس فى سرعة فى كافة أنحاء البلاد .

واذا كان الجهل والجمـود الفكرى قد عم البـلاد طوال العصرين المماليكى والعثمانى حتى القرن التاسع عشر ، فان أهل الريف بالذات بلغوا فى تلك العصور درجة من التأخر الفكرى والمادى جعلتهم موضع سخرية الكتاب ، حتى المعاصرين من أهل المدن [1] . وكان أبناء الريف هؤلاء ــ الذين عاش السيد أحمد البدوى ومات وسطهم ــ خير من يتقبل الخرافات ويؤمن بها ويروج لها . ولو كان السيد أحمد البدوى اختار لاقامته فور وصوله الى مصر مدينة مثل القاهرة أو دمياط أو الاسكندرية أو قوص أو غيرها من المدن التى اشتهر أمرها فى ذلك العصر والتى كان المستوى الفكرى فيها عندئذ أرقى نسـبيا بحكم ما فيها من تيارات سياسـية وثقافية وتجارية واجتماعية ... لو كان الأمر كذلك لكان للسيد أحمد البدوى شأن آخر . والا ، فبمـاذا نفسر أن كرامات أبى العباس المرسى والشاطبى والقبارى ... وغيرهم من الأولياء والمشايخ الذين وفدوا من الخارج على مصر ــ مثلما وفد السيد أحمد البدوى نفسه ــ تقل فى حدتها وسعة خيالها عن كرامات السيد البدوى ؟ بل ان السيد ابراهيم الدسوقى ــ وهو قطب كبير لا يقل مكانة عن السيد أحمد البدوى لم يصل الى مكانة السيد البدوى ؛ ومن أسباب ذلك ــ فى نظرنا ــ أن دسوق غير طنطا . وفى رأينا أنه

---

(١) للوقوف على أحوال الفلاحين والريف المصرى فى ذلك العصر ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ؛ ص ٤٨ وما بعدها .

لو كان السيد أحمد البدوى قد اختار «دسوق» مقرا له ، والسيد ابراهيم الدسوقى اختار طنطا قاعدة له لكان من المحتمل أن يفوق السيد ابراهيم زميله السيد أحمد فى صيته وقدرته ...

وهكذا انطلق بعض خلفاء السيد أحمد البدوى وخدام ضريحه وأتباعه ومريديه ، يروجون له ويختلقون الأحداث والأفعال لينسبوها اليه ويجنوهم ثمارها ؛ كل ذلك وهم مطمئنون تماما الى أنهم سيجدون من يتقبل أقوالهم ويؤمن بها ويحملها الى الأجيال التالية ، بعد أن يضيف اليها من عنده ما هو كفيل ــ فى نظره ــ بأن يزيد السيد البدوى مكانة على مكانته وقدرة فوق قدرته . ولم يستنح أولئك الدعاة ــ الذين يمثلون جماعة المنتفعين ــ من نسبة أشياء الى السيد أحمد البدوى ، تجعله فى مستوى من العظمة أسمى من مستوى الأنبياء بل على درجة من القدرة تناظر قدرة الله عز وجل ...

أجل ، حاول بعض أتباع السيد أحمد البدوى أن يجعلوه قرينا للنبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فكانوا لا يسلمون على النبى الا ويأتى سلامهم مقرونا بالسلام على السيد البدوى ، فيقولون « السلام عليك يا رسول الله والسلام عليك يا أحمد يا بدوى » [1] . ثم امتد التشبيه الى الحرص على ادخال عناصر على سيرته مستمدة فى أفكارها من السيرة النبوية ، بحيث يشعر القارىء لسيرة السيد البدوى أنه محمد آخر . فكما أنه عليه الصلاة والسلام دأب على التعبد بغار حراء ،

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٧٢

فكذلك دأب السيد أحمد البدوى على التعبد بغار جبل أبى قبيس بمكة ، وكما أن جبريل عليه السلام نزل على محمد وهو يتعبد بغار حراء ، فكذلك حدث بينما السيد البدوى يتعبد فى غار أبى قبيس أن نزل عليه ملك من ملائكة الله تعالى ، وقال له « أنا ملك من ملائكة الله عز وجل ، وهو يقرئك السلام ويقول لك يا أحمد توجه الى مصر وأقم بالغربية ببلدة يقال لها طندتا لتنتفع بك المسلمون فى البر والبحر ... » وكما تعثر سراقة بن جعشم وكبا به فرسه عند مطاردته للرسول أثناء هجرته من مكة الى المدينة ، كذلك حدث عندما خرج السيد أحمد البدوى قاصدا السيد الرفاعى فى أم عبيدة أن عارضه بعض الرجال وأحدقوا به « فأومأ بيده اليهم سيدى أحمد فوقعوا أجمعين » .

واذا كان الله قد أسرى بنبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، فكذلك نسب الرواة الى السيد أحمد البدوى أنه حكى عن حدث جرى له وهو فى طنطا « فأتانى ملائكة من عند ربى فحملونى وعرجوا بى الى السماء الرابعة ، فمررت بصفوف من الملائكة منهم قيام ومنهم ركوع ومنهم سجود على هيئتهم فى العبادة ، واذ أنا بشخصين مهابين جالسين على كرسيين فنظرت ، فاذا هما النبى صلى الله عليه وسلم وموسى بن عمران عليهما الصلاة والسلام ... » وهكذا تكررت قصة الاسراء والمعراج بحيث يكون بطلها هذه المرة هو السيد أحمد البدوى . ولا ندرى لماذا أصر الرواة على أن السيد أحمد البدوى عندما عرجت به الملائكة الى السماء

لم ير سوى محمد وموسى عليهما السلام ، ولم يشيروا الى عيسى عليه السلام ! ولعلها رائحة الحروب الصليبية التى دارت رحاها فى ذلك العصر والتى جعلت رواة سيرة السيد البدوى يغضبون على الصليبيين ونبيهم !! .

ولكن أتباع السيد أحمد البدوى ودعاته لم يقنعوا بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن هذه السيرة ليس فيها من الأعمال الخارقة للعادة والطبيعة ما يجعله فى صورة القادر على كل شيء . ان اعجاز محمد عليه الصلاة والسلام نبع قبل كل شيء من خلقه وعمله الصالح وفكره المستقيم وقدرته على تنظيم واصلاح المجتمع الذى بعث فيه ... لا من أعمال خارقة للعادة قام بها واستطاع عن طريقها أن يحول الرصاص الى ذهب أو يقطع المسافة من مكة الى المدينة فى خطوتين أو أن يحيى الموتى ويميت الأحياء . ولما طلب أهل مكة من الرسول عليه الصلاة والسلام بعض الآيات والمعجزات ، كأن يفجر لهم ينبوعا أو يسقط عليهم كسفا من السماء أو يكون له بيت من زخرف ... تعجب الرسول من قولهم وأعلنها فى تواضع « سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » . وهذا فى حد ذاته لم يشبع طموح بعض خلفاء السيد البدوى وأتباعه ودعاته ، فلم يبق الا انتحال أعمال هى من صميم قدرة الله عز وجل ، ولصقها بالسيد أحمد البدوى لاظهار قدرته ، وهو فى حقيقة الأمر برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

وهكذا وضعوا للسيد أحمد البدوى نوعا جديدا من

الكرامات يتناول أعمالا لا يقدر عليها سوى الله عز وجل . فاذا كان الله سبحانه وتعالى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ، فكذلك صار السيد البدوى يقول للشيء كن فيكون . واذا كان الله عز وجل يحيي الموتى ويميت الأحياء ، فكذلك صار السيد البدوى يحيي الموتى ويميت الأحياء . واذا كان بيت الله الحرام به حجر أسود يجله المسلمون لقصته المعروفة ، فان خلفاء السيد البدوى حرصوا على أن يضعوا فى مقامه بطنطا حجرا أسود ويزعموا أن به أثر قدمى الرسول . واذا كان الله عز وجل « يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور » ، فكذلك كان السيد البدوى يعلم ما تخفى الصدور وكان يكاشف الناس بما فى قلوبهم . واذا كان الله تعالى هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فكذلك كان السيد البدوى يقضى الأوقات الطويلة شاخصا ببصره الى السماء لا تغفل له عين . وكما أن موسى عليه السلام طلب رؤية الله فتعذر عليه طلبه ، وخر صعقا عندما تجلى ربه للجبل ، فكذلك كان السيد البدوى لا يمكن لأحد أن يرى وجهه ، ولما أصر أحد رفاقه على ذلك ورأى وجهه خر هو الآخر صعقا ...

هذه نماذج من القدرات التى نسبوها للسيد أحمد البدوى واعتبروها كرامات ، وسنتعرض لأمثلة منها بالشرح بعد قليل . وربما أحس واضعو هـذه الكرامات ومخترعوها أن فى قولهم افتئات على قدرة الله عز وجل ، فحاولوا أن يخففوا ما يقدمونه الى الناس باستعمال عبارة « باذن الله » ؛ ولكن ذلك فى نظرنا

لا يكفى . نعم ، لا يكفى قولهم ان السيد أحمد البدوى كان يحيى الموتى ويميت الأحياء باذن الله ، لأن الله لم يعط هذا الاذن لأحد من البشر الا أن يكون رسولا ، مثل عيسى عليه السلام . لو كانوا فى ذلك يريدون تشبيه السيد أحمد البدوى بالمسيح عيسى بن مريم الذى جاء على لسانه فى القرآن الكريم « انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله . وأبرىء الأكمه والأبرص باذن الله ... » ؛ فان الفارق فى نظرنا عظيم لأن عيسى بن مريم نبى كبير اختصه الله تعالى برسالة ضخمة ، ونادى فى كتابه العزيز بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . أما السيد أحمد البدوى ، فمهما نبالغ فى تقديره واكرامه فهو لا يتعدى كونه وليا من أولياء الله الصالحين . لقد كان بشرا ولكنه لم يكن رسولا ..

ثم ان هناك أسرارا معينة لا يعلم سرها سوى الله عز وجلت قدرته ، واحتفظ سبحانه وتعالى بهذه الأسرار لتكون دليلا على قدرته وعظمته ؛ وقد ورد فى سورة لقمان « ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » . وقد ورد فى تفسير النسفى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال مفاتيح الغيب خمسة وتلا هذه الآية . وعن أبى العباس رضى الله عنه أنه قال « من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب» . ولا ندرى كيف استباح رواة سيرة السيد البدوى أن يدسوا عليه علم هذه الأشياء أو بعضها ؛ فهو يدرى ماذا

يكسب فلان غدا وينبئه بغـلاء سيحدث فى المستقبل ويأمره باختزان الغلال لمواجهة ذلك الغلاء ... وهو يدرى الأرض التى سيموت بها فلان ويرسله الى جهة معينة ويقول له « ان بهـا قبرك » ...

ومرة أخرى نكرر أننا نرى السيد أحمد البدوى نفسـه ــ رضى الله عنه ــ بريئا من هذه الادعاءات التى لصقها به جماعة المنتفعين؛ فهو فى رأينا لم يدع لنفسه قدرة فوق قدرة البشر ، وانما عاش فقيرا ومات فقيرا ، لا يطلب الا رضوان الله . ولكن جماعة المنتفعين هم الذين اخترعوا وألفوا ، ثم نسبوا ما اخترعوه وألفوه الى السيد أحمد البدوى ، ونسوا أنهم بعملهم هذا انما يسيئون اساءة بالغة الى ولى كريم من أولياء الله الصالحين .

كرامات السيد البدوى فى حياته :

ولكن هل معنى ذلك أن السيد أحمد البدوى لم تكن له كرامات اطلاقا ؟ الواقع أنه اذا تمشينا مع ابن عربى وأخـذنا برأيه فى تقسيم الكرامات الى معنوية وحسية ، فاننا نؤكد أن السيد أحمد البدوى كانت له كرامات معنوية ، بمعنى حرصه على حفظ آداب الشريعة من فعل مكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها . وقد سـبق أن ذكرنا كيف أن كثيرا من العلمـاء قرروا أن الكرامات المعنوية أفضل عند الله من الكرامات الحسية ، لأنها تجمع الفضائل الخلقية والمعانى الروحية السامية ، وهى النواحى الكفيلة بأن تجعل الفرد متصلا دائما أبدا بالله عز وجل . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرر أن السيد أحمد البدوى رضى الله

عنه توافرت له من الكرامات المعنوية ما جعله قدوة طيبة ومثلا كريما لعباد الله الصالحين .

ولكن أتباع السيد البدوى والمستفيدين من وراء اسمه لم يقنعوا بأن تكون كراماته معنوية فحسب . ان الناس لا يشعرون غالبا الا بالمحسوسات والأشياء الملموسة المجسمة . ان الكرامات المعنوية لن تكفى لكسب آلاف المريدين وآلاف الزوار كل عام . والكرامات الحسية وحدها هى الكفيلة باشباع بطونهم وملء جيوبهم بالمال جيلا بعد جيل على حساب السيد البدوى ومعجزاته . وبناء على ذلك ، لم يكن هناك مناص من اختلاق بعض الكرامات الحسية التى يمكن أن يفتن بها العامة ، ثم نسبة هذه الكرامات الى السيد أحمد البدوى ، واحاطتها بجو من المهابة يحول دون تشكك الناس فيها . ولم يفت أولئك المنتفعين أن يشعروا الناس بأن كرامات السيد أحمد البدوى بعد وفاته لا تقل قوة عن كراماته فى حياته . ولو أحس البسطاء أن كرامات السيد أحمد البدوى انتهت بوفاته ، فان معنى ذلك أن عدد المعتقدين فيه والمترددين على ضريحه سيتضاءل ، وبالتالى سيضعف الدخل العام المرجو من ورائه . وعلى هذا الأساس يجب اختلاق القصص التى تثبت للناس أن السيد أحمد البدوى ظل بعد وفاته مستمرا فى أداء دوره كاملا ، وأنه على أتم استعداد لاجابة دعوة الداع اذا دعاه ؛ وبذلك يظل السيد أحمد البدوى موردا ثابتا للرزق لجماعة المنتفعين جيلا بعد جيل الى يوم يبعثون . وهكذا نجد أنفسنا أمام تراث ضخم من الكرامات

الحسية التى نسبت ــ ظلما وبهتانا ــ الى السيد أحمد البدوى ، بعضها زعموا ألها تمت فى حياته والبعض الآخر زعموا أنه حدث بعد مماته .

أما عن الكرامات التى نسبت الى السيد أحمد البدوى فى حياته فنستطيع أن نعرض أهمها عرضا موضوعيا موجزا فيما يلى : ــ

أولا : احياء الأموات واماتة الأحياء ، فنسب الى السيد أحمد البدوى قدرته على احياء الموتى ، واعتبر ذلك كرامة ضخمة من كراماته تغنى بها الشعراء فى مدحهم اياه ، ومن ذلك قول بعضهم مخاطبا السيد البدوى : ــ

أنت أحييت ميتا بعد أن قد   فتك الدود لحمه والبلاء

وهناك قصة تواتر ذكرها فى الكتب التى عالجت سيرة السيد أحمد البدوى ، خلاصتها أن امرأة مات لها ولد صغير ، فجاءت الى السيد أحمد البدوى باكية وقالت « يا سيدى ما أعرف ولدى الا منك » . وقد حاول الفقراء الملتفون حول السيد البدوى منعها وابعادها ولكنهم لم يستطيعوا ، وظلت تستنجد بالسيد البدوى وهى تقول « توسلت اليك بالله ورسوله !! » . ونلاحظ هنا أن الرواة لم يستحوا من جعل انسان يتوسل بالله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام عند السيد البدوى ليقوم السيد باحياء الميت . ولو كان هناك وازع دينى عند أولئك الرواة لذكروا أن المرأة توسلت بالسيد البدوى عند الله عز وجل

لاحياء ابنها ، لا أن تتوسل بالله الى السيد البدوى [1] ومهما يكن من أمر ، فان الأسطورة تمضى لتقول ان السيد أحمد البدوى رق لحال المرأة ، ومد يده الى ولدها « فأحياه الله تعالى ببركة دعائه وببركة جده صلى الله عليه وسلم » . ولعل فى هذه العبارة الأخيرة نوعا من تخفيف المعنى .

أما عن اماتة الأحياء ، فقد ورد فى رحلة السيد أحمد البدوى وأخيه الحسن الى العراق أنهما كثيرا ما عاقبا بالموت كل من تعرض لهما بسوء ، وكان يكفى أن ينظر أحدهما الى الأعداء ويقول « موتوا باذن الله » لكى يخروا على الأرض موتى . بل ان السيد أحمد البدوى استطاع أن يميت سبعة آلاف جمل — هى جملة جمال فاطمة بنت برى — بكلمة واحدة ، اذ قال لها « موتى » فماتت جميعها فى الحال ، ثم أحياها بعد ذلك فى طرفة عين .

ثانيا : انقلاب الأعيان ، بمعنى تحويل الشىء الى شىء آخر ، وقد توافرت هذه الكرامة للسيد البدوى ، اذ رأينا كيف أن الشيخ ركين الذى حل السيد أحمد البدوى بداره فى طنطا كان يمتلك فى مخزنه قدرا من الشعير . فلما أراد أمير ناحية طنطا الاستيلاء على ذلك الشعير ، قال له السيد أحمد البدوى « اذا سألوك عن الشعير فقل ما عندى الا قمح زريع » . وفعلا أخذ رجال الأمير مفتاح المخزن وفتحوه فلم يجدوا فيه الا قمحا

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ، ص ٤٣

زريعا ، فقد تحول الشعير بفضل بركة السيد أحمد البدوى الى قمح ؛ وبعد أن انصرف رجال الأمير عاد القمح مرة أخرى الى شعير .

ثالثا : طى الأرض وانزاؤها له ؛ وهذه كرامة كبيرة يقولون انها من كرامات الأولياء . وقد ظهرت هذه الكرامة للسيد أحمد البدوى وتحققت فى أكثر من مناسبة . من ذلك قولهم ان السيد أحمد البدوى قطع المسافة من شمال العراق الى جنوبه فى سبع عشرة خطوة ، وقطع المسافة من مكة الى طنطا فى احدى عشرة خطوة ؛ وكان يختفى من فوق السطح فى طنطا ليؤدى صلاة العصر فى جزيرة نائية يحتاج السفر اليها الى سنوات طويلة ...

رابعا : شفاء المرضى ، تروى الأساطير أن السيد أحمد البدوى أوتى قدرة عظيمة على شفاء المرضى مما ألم بهم من أمراض ، فكان رفيقه وخليفته السيد عبد العال يأتى اليه بالشخص الذى يبول فى ثيابه ، وينادى السيد أحمد من فوق السطح اليه ، فيأتيه وينظر له نظرة واحدة فيزول ما به من مرض ويعلوه مددا ؛ ثم يقول للسيد عبد العال « ارسله الى البلد الفلانية فيكون فيها مقامه الى أن يموت ! » .

خامسا : طاعة الحيوان له . وقد روى فى قصة فاطمة بنت برى أن الجمال فى العراق جاءت اليه وقبلت أقدامه « وحنت حنينا وسكبت دموعا غزارا » . فأمرها بأن تسير الى المرعى فسارت ...

سادسا : علم الغيب وكشف السرائر وما تخفى الصدور . ومن ذلك أن رجلا مر بالسيد البدوى يحمل قربة لبن فأومأ اليها بأصبعه ، فتحطمت وانسكب اللبن ، وخرجت منه حية كبيرة . وقبل أن يقع غلاء ويشتد القحط كان السيد البدوى يعلم ذلك ويحذر الناس ليحتاطوا . واكتشف السيد البدوى وهو فى طنطا أخطاء فى المصحف المعلق فى صدر بيت ابن دقيق العيد بالقاهرة وحدد له مواضع الخطأ لاصلاحها ...

سابعا : الصبر على عدم الطعام والشراب أمدا طويلا ، وقد أجمع الرواة على أن السيد أحمد البدوى كان فى مكة ثم فى طنطا يقضى الأربعين يوما لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا ...

ثامنا : رؤية الأماكن البعيدة من وراء الحجب ؛ ومن ذلك أنه وهو فى مكة استطاع أن يخلص الطفل عبد العال — وهو ببلدته فيشا المنارة قرب طنطا — من قرن الثور الذى حمله فى القماط وشرد به ...

تاسعا : الهيبة التى كانت له والتى بدت على وجهه . وفى ضوء هذه الهيبة حاول بعضهم أن يفسر ظاهرة تمسك السيد البدوى بوضع لثامين على وجهه حتى لا يصاب من يراه من الناس بصدمة من فرط هيبته ، وربما عرضته هذه الصدمة للصعق والهلاك فورا ... وثمة قصة تناقلتها الكتب التى تناولت سيرة السيد أحمد البدوى ، خلاصتها أن أحد أصحابه — وهو الشيخ عبد المجيد — قال له « أريد أن أرى وجهك أعرفه » . فقال له أحمد البدوى « يا عبد المجيد ! كل نظرة برجل ! » فقال

عبد المجيد « يا سيدى أرنى وجهك ولو مت » . وتمضى القصة فتقول ان السيد البدوى « كشف له اللثام الفوقانى ، فصعق (عبد المجيد) ومات فى الحال !! » [1] ولا ندرى ماذا كان يحدث عندئذ لو أن السيد أحمد البدوى كشف اللثامين معا ، اذ ربما أصاب الاشعاع الأحمدى أهل الغربية جميعا فماتوا فى الحال !! على أنه يجدر بالذكر أن ذلك الاشعاع كان لا يصيب أهل السيد أحمد البدوى وأفراد أسرته بسوء ، اذ كانت لديهم حصانة طبيعية ضده . من ذلك ما ذكره الرواة من أن الشريف حسن عندما أتى من مكة وذهب لزيارة أخيه بطنطا « فلما رآنى أخى أشار الىّ فطلمت عنده فشال لثامه وسلم على فتعانقنا وتباكينا ... » . ولم يشر الرواة الى آية مضاعفات أو أضرار حلت بالشريف حسن عندما رأى وجه أخيه السيد البدوى عاريا دون لثام ...

عاشرا : حلول دائرة السوء بكل من يتعرض له بأذى أو حتى مجرد نقد . من ذلك ما حدث للشيخ ابن دقيق العيد عندما اعترض على السيد البدوى ـــ كما سبق أن فصلنا ـــ . ولم يقف الأمر عند حد انتقام السيد أحمد انتقاما سريعا مباشرا ممن يعترض عليه ، بل ذكر الرواة أن آل محمد عليه الصلاة والسلام كانوا جميعا رهن اشارته وأن فرسان الحجاز ونجد كانوا على أتم استعداد لنجدته اذا دعاهم ، وكان يكفى أن يقول السيد

---

(1) عبد الصمد : الجواهر السنية ، ص ١١

أحمد البدوى « يا آل محمـد » حتى تتواجد فى الحال آلاف مؤلفة من الفرسان ليخوضوا معركة رهيبة ضد أقوى الجيوش لنصرة السيد أحمد البدوى !

حادى عشر : زعم الرواة أن السـيد أحمد البـدوى كان لا يتصرف الا بالهام يشبه الوحى ، ولا يتحرك الا بنـاء على تعليمات خاصة تأتى اليه بواسطة « هاتف » . وغالبا ما تكون هذه التعليمات صادرة من الله عز وجل مباشرة عن طريق ملك من السماء ، أو من « جدى عليه الصلاة والسلام » . وبناء على هذه التعليمات قام السيد أحمد البدوى برحلته الى العراق ثم أتى الى طنطا ليقيم فيها ... كما سبق أن أوضحنا .

ثانى عشر : احضار الأسرى من بلاد الافرنج . وقد اعتبرت هذه الكرامة من أجل كرامات السيد أحمد البـدوى . ومن الواضح أن السيد أحمد البدوى عاش ومات فى عصر الحروب الصليبية ، وأن حوادث الصراع بين المسلمين والصليبيين ظلت هى الشغل الشاغل للناس طوال عدة أجيال . فكان لا بد لرواة سيرة السيد أحمد البدوى من ربط سيرته بتلك الأحداث التى كانت بمثابة أحداث الساعة . وكان أن انتشرت الشائعات بأن السـيد أحمـد البدوى قادر على احضـار الأسرى من بلاد الصليبيين ، فتكفى اشارة يسيرة منه ــ وهو فوق السطح فى طنطا ــ حتى يطير الأسير من عكا ، وبعد لحظات يكون فى طنطا! ... ورحم الله سـوبرمان ! وقد ذكر الرواة قصـة امرأة أسر الصليبيون ولدها ، فلاذت بالسيد أحمد البدوى تطلب منـه

احضاره . وما هى الا لحظات حتى جاء الأسير يوسف فى قيوده ، فأخذته أمه وانصرفت ...

ثالث عشر : عدم الاستجابة لشهوة البشر . وقد عرف عن السيد أحمد البدوى أنه لم يتزوج ولم يعط أى اهتمام للغريزة الجنسية ، وعبر الرواة عن هذه الناحية فقالوا ان السيد أحمد الرفاعى جاء له فى المنام وقال له « ان جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تواريخ الرجال فما وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر الى النساء بشهوة الا أنت يا فحل الرجال ... » . وبناء على ذلك سار السيد أحمد البدوى الى فاطمة بنت برى لتأديبها ، وهى المرأة التى اعتادت « بجمالها تسلب الرجال وتقتل الأبطال ! » وما كادت فاطمة بنت برى تعلم بمجىء السيد أحمد البدوى اليها ، حتى خرجت للقائه فى صورة كلها فتنة واغراء « فأسدلت شعرا كالحبال ، ولبست ثيابا من الحرير ناعمات طوال ... » وأقبلت عليه « بجبين كالهلال ووجه كالبدر عند الكمال » ، وحاولت أن تفعل به « كما كانت تفعل بالرجال » . بل لقد عرضت عليه أن تتزوج به فى الحلال ... ولكن هيهات أن يخضع السيد أحمد البدوى لعامل الشهوة ، فوقف منها موقفا صلبا ، ولم يتركها الا بعد أن أدبها واستغفرت الله بين يديه ، كما سبق أن شرحنا ...

رابع عشر : مقام التصريف ، ومعنى ذلك قدرة الولى على القيام بأعمال خارقة للعادة ، كالمشى على الماء والطير فى الهواء ومسك النار وغيرها . وبفضل كرامة السيد أحمد البدوى كان

الشيخ محمد الفران الذى يخبز له الخبز يحرك النار بيده ، ويدخل يده فى الفرن لاخراج الخبز الذى يخبزه للسيد البدوى ... دون أن يصاب بسوء . كذلك كان السيد البدوى يقبض يده على الهواء فيحس بأثر هذه القبضة أناس بعيدون ...

كرامات السيد البدوى بعد وفاته :

سبق أن أشرنا الى أنه كان من مصلحة جماعة المنتفعين أن يبالغوا فى قدرة السيد البدوى بعد وفاته ليظل مقامه دائما أبدا موردا ثابتا للرزق ؛ يقصده ذوو الحاجات فى ضوء ما يسمعونه من حكايات عن كراماته وقدرته وهو فى قبره ، فيكون فى زيارتهم للضريح الخير العميم والرزق الوفير . وهكذا فاضت الكتابات التى تناولت سيرة السيد أحمد البدوى بقصص عن كراماته بعد وفاته لا تقل فى قوة الخيال ووفرة العدد عن القصص التى تتحدث عن كراماته فى حياته ، بل تعتبر استمرارا لها ؛ وذلك لاقناع الأتباع والمريدين وقصاد المقام بأن المدد لم ينقطع بوفاة الأستاذ الأعظم ، وأن السيد أحمد البدوى قادر وهو فى قبره على ادارة شئون دولته ــ ولا أقول مملكته ــ التى قام بتأسيسها ؛ ومن شاء الدليل فليسمع ، فاذا اقتنع فليتوكل على الله ويشد رحاله الى طنطا لتقضى حاجته ، بشرط أن يحمل معه أقصى ما يستطيع حمله من مال ونقود ، لأنه بقدر النذر والعطاء ، بقدر ما تكون الاستجابة وتحقيق الرغبات ... واذا كان الله يحب المتوكلين ، فهو أيضا يحب المحسنين ...

والواقع أن هذه الظاهرة عامة بالنسبة للأولياء جميعا ، اذ

نسمع عن كراماتهم أحياء وأمواتا ، بل ربما اشتدت المبالغة فى كراماتهم وهم أموات حتى تفوق مآثرهم وهم أحياء . ويعلل السمهودى هذه الظاهرة بأنه ينبغى أن يكون ظهور الكرامات بعد موت الأولياء أولى من ظهورها حال حياتهم ، لأن النفس بعد الموت تكون صافية من الأكدار والمحن . ولنا كلمة نضيفها الى عبارة السمهودى ، هى أن الانسان فى حياته يكون أثره تاما ومباشرا ، لأن الناس يرونه أو على الأقل يحسون بوجوده ، فهم أكثر ايمانا به وبنفوذه . أما بعد وفاة الفرد فان الناس قد يتحمسون له ساعة الوفاة ولكن هذه الحماسة لا تلبث أن تفتر تدريجيا ، واذا تذكروه حينا فقد ينسونه أحيانا . وقد ذكرنا أنه وجد لكل ولى أو شيخ جماعة من المنتفعين يهمهم أن تكون السيادة لشيخهم على أولياء الله جميعا ، حتى يجتذبوا أكبر عدد من الزوار وأصحاب الحاجات . ولا يشترط أن يكون هؤلاء المنتفعون مجرد خدمة الضريح والمرتبطين به من الخلفاء والمريدين والأتباع ، وانما قد تتسع الدائرة لتشمل معظم أهل البلدة التى بها مقام الشيخ ، نظرا لما يترتب على كثرة عدد الزوار من نشاط اقتصادى ومعاملات يعود أثرها على كثير من أهل البلدة . ومن منا ينكر أن طنطا بأسرها تدين بنموها وازدهارها الى وجود مقام السيد أحمد البدوى فيها ، بالضبط كما ظل الحجاز أمدا طويلا يدين بنشاطه الاقتصادى والاجتماعى الى الحرمين الشريفين ؟ ؟

وعلى هذا الأساس ، فقد كان من مصلحة المنتفعين — ضاقت

دائرتهم أم اتسعت — أن ينسبوا مزيداً من الكرامات الى شيخهم الذى يعيشون فى حماه بعد وفاته ، والا فلن يلبث الناس أن ينسوه ويلتفوا حول ولى جديد ما زال حيا . واذا نسى الناس وليا من الأولياء ، فمعنى ذلك أن جماعة المنتفعين الذين يعيشون على اسمه لن يجدوا ما يتقوتون به ، وسيتحول حالهم من سعة فى العيش الى ضيق ، ومن يدرى فربما ألجأهم الحال الى العمل لكسب قوتهم بعرق جبينهم ، وهذا أمر صعب عليهم .

وفى ضوء هذه الحقائق كثرت الأقوال عن كرامات السيد أحمد البدوى — رضى الله عنه — بعد وفاته . وكثير من هذه الكرامات يتفق من ناحية النوع مع الكرامات التى ذكرناها عنه فى حياته ، مما يجعلها فى حقيقة الأمر استمرارا لها . وفيما يلى أهم ما قيل عن كرامات السيد البدوى بعد وفاته : —

أولا : خروجه من القبر وتجوله ، فقد نسب الى السيد البدوى أنه بعد وفاته كان يخرج من القبر ويتجول فى البلاد . ويستدل الرواة على ذلك بقصة رواها الجلال السيوطى أنه سمع من والده أنه كان يسير ذات يوم فى أرض قد كستها مياه الفيضان ، فخطر فى قلبه سؤال : هل حقيقة كان للسيد أحمد البدوى لثامان كما يقولون ؟ وبينما هو سابح فى تفكيره ، اذا به يرى السيد البدوى مقبلا على فرس وهو ملثم بلثامين ، وصاح « يا فلان ! كما يقولون !! » وكرر ذلك مرتين ؛ وجعل بدل القاف جيما على عادة العرب . ويؤكد صاحب الرواية أن هذه الواقعة حدثت فى حال اليقظة .

ثانيا : الكلام فى القبر ، ومن ذلك ما قيل من أن الشيخ محمد الشناوى كان يستشير السيد أحمد البدوى فى شئونه فيسمع الجواب . وقد حدث يوما أن دخل الشيخ الشناوى مقام السيد البدوى واستأذنه أن يسافر الى المدينة ليشترى رصاصا للحمام الذى أقامه بطنطا ، فرد عليه السيد البدوى من القبر وقال له « سافر وتوكل على الله » ! . كذلك يحكى الشعرانى عن نفسه أنه زار مرة مقام السيد أحمد البدوى ، وبعد الزيارة استشاره فى السفر الى مصر ، فرد عليه السيد أحمد البدوى من القبر قائلا « سافر وتوكل » . ويؤكد الشعرانى أنه سمع ذلك بنفسه .

ثالثا : ايذاء من يتعرض لسيرته بسوء . والقصة التى أكثر الرواة من سردها فى هذا الباب هى قصة الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الاسعردى مع السيد أحمد البدوى . وتفصيل هذه القصة ــ كما رواها الرواة ــ أن السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون بنى مدرسة بالرميلة تجاه قلعة الجبل ، وأراد لهما شيخا من مشايخ الاسلام ، فدلوه على الشيخ شمس الدين المعروف بابن اللبان ، الذى كان وقتئذ قاضى القضاة بمدينة دمشق . وكان أن استحضره السلطان فامتثل للأمر وحضر ، وفى مصر استقبله قاضى القضاة ورحب به وبات ليلة وصوله بالجامع حيث صلى بالناس صلاة العشاء . وبعد الصلاة خرج ابن اللبان وقاضى القضاة يتمشيان ، فصادفا رجلا من أتباع السيد أحمد البدوى يذكر الله تعالى ويقول بصوت مرتفع :

« السلام عليك يا رسول الله ، والسلام عليك يا أحمد يا بدوى ... » فعجب ابن اللبان لذلك ، والتفت الى قاضى القضاة مستفسرا عن ذلك الرجل الذى أشرك البدوى مع رسول الله فى السلام ، وقال : « ان هذا الرجل يستحق التعزير البليغ » . وقد حاول قاضى القضاة أن يلتمس العذر للرجل ، فقال لابن اللبان : « لعل حب شيخه قد غلب عليه باعتقاده فى شيخه » ؛ ولكن ابن اللبان أصر على تعزيره وتأديبه ...

وعندما نام الشيخ شمس الدين بن اللبان تلك الليلة رأى فى منامه كما لو كان سقف الجامع قد انشق ونزل منه شخصان ، جلس أحدهما عند رأسه ، وجلس الآخر عند قدميه ؛ فقال الأول للثانى : « اسلبه الايمان » ، فرد عليه الثانى : « لا ، بل نسلبه العلم والقرآن ، ونبقى عليه الايمان ، فانه وقع فى حق سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه » . ثم أمسكه الرجلان كل من جهته وهزاه هزاً شديداً . « فطمس الله تعالى على قلبه وانتزع العلم والقرآن من صدره ! » . وكان أن انتبه الشيخ ابن اللبان فزعا وهب من نومه هلعا ، واختبر نفسه ، فاذا هو لا يذكر آية واحدة من آيات القرآن ولا مسألة واحدة من مسائل الدين ! ولما طلع الفجر وحان موعد الصلاة ، طلب الناس الشيخ لصلاة الصبح ، ولكنه اعتذر لهم وقال : « صلوا ، فان ثمة ضرورة ! » فظنوا أنه ربما يريد دخول الحمام ، وصلوا وانصرفوا .

وكان أن اختلى الشيخ ابن اللبان بقاضى القضاة ، وأخبره

عما حدث أثناء الليل بسبب الفقير الأحمدى ، فعرض عليه قاضى القضاة أن يحضر اليه الفقراء الأحمدية ليعتذر اليهم ، لعل فى ذلك الكفاية لرفع الغضب عنه ، ولكن الشيخ ابن اللبان كان قد استبد به الذعر لدرجة أنه أصر على الذهاب بنفسه اليهم فى زاويتهم . وهناك فى الزاوية قابلا أحد الفقراء الأحمدية — لعله كبيرهم ، فلم يكد بصره يقع عليهما حتى قال لهما : « والله يا محمد ما بيدى حل ولا ربط » . فقال له قاضى القضاة « ماالخبر ؟ » قال « سلب القرآن والعلم » . وعندئذ التفت قاضى القضاة للفقير وقال له « يا سيدى : لوجه الله !! » ، وصار يتذلل للفقير ويرجوه ، فى حين أخذ محمد بن اللبان يبكى ويستعطف ، حتى رق قلب الفقير الأحمدى ، فنظر أخيرا الى شمس الدين محمد وقال له : « تتوب الى الله تعالى ؟ » . فقال ابن اللبان : « نعم ولا أعود لمثلها ! » فقال الفقير : « ان كان ولا بد فسافر الى ناحية الاسكندرية ، واجتمع بسيدى ياقوت العرشى ، فانك ان شاء الله تلقى الفرج على يديه » .

ولم يتأخر ابن اللبان ومعه قاضى القضاة فى السفر الى الاسكندرية ، وهناك دخلا زاوية الشيخ ياقوت العرشى . وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة نظر اليهما الشيخ ياقوت وقال : « يا شمس الدين ! ما الذى أوقعك فى مثل هذه الورطة العظيمة ؟ ! ! » . ثم أمره الشيخ ياقوت بأن يتوضأ ويدخل الخلوة ليصلى . ولكن الشيخ ابن اللبان اعتذر بأنه نسى القرآن ، فكيف يستطيع الصلاة وهو لا يذكر شيئا الا البسملة ؟

وعندئذ أمره الشيخ ياقوت بأن يشتغل بالذكر والتوحيد . وظل ابن اللبان على ذلك الحال ثلاث ليال ، حتى رأى نوراً أبيض ، فكان ذلك بشيرا بالخير . وفى الليلة التالية رأى النبى عليه الصلاة والسلام جالسا على كرسى عال من نور ، والأنبياء كلهم على كراسى ، والسيد أحمد البدوى واقفا بين يدى النبى وهو يقول له : « يا أحمد ! لأجلنا طيب خاطرك على محمد بن اللبان » . ثم التفت النبى الى ابن اللبان وقال له : « أما علمت أن من أولياء الله تعالى من تحت جناحى الأيمن ومنهم من تحت جناحى الأيسر ، وأحمد البدوى تحت جناحى الأيمن ! » .

وعندما استيقظ ابن اللبان قام مسرعا الى باب الخلوة ، فوجد الشيخ ياقوت العرشى واقفا ببابها « يهدر ويهمهم وله زئير كالأسد !! » ؛ وقال له : « يا محمد ! أبشر فقد قضيت حاجتك ، فانى سقت عليه جميع الأولياء فلم يقبل ، فسقت عليه سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ؛ وقد رأيت ذلك بعينك . فسافر الآن من وقتك وساعتك الى طندتا وطف حول صندوق سيدى أحمد البدوى ، وأقم عنده ثلاثة أيام ، فان حاجتك قد قضيت ان شاء الله تعالى » .

وكان أن سافر الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الى طنطا ، وأقام فى مقام السيد أحمد البدوى ثلاثة أيام يطوف، ويبكى ويتضرع ، واذا نام فانه ينام تحت قدمى السيد البدوى . وأخيرا رأى السيد البدوى فى المنام يقول له : « لا تعد لمثلها ؛ فوالله لولا جدى رسول الله صلى الله عليه

وسلم لسلبتك الايمان ! » . ثم وضع يده على صدره فرجع اليه حاله وعلمه . ولما استيقظ الشيخ شمس الدين وجد نفسه يقرأ القرآن كما كان ، وعاد اليه علمه ، فرجع فرحا مسرورا الى القاهرة وحكى للسلطان حسن قصته بأكملها . وتروى الأسطورة أن السلطان حسن تعجب من تلك القصة غاية العجب ، وقام على الفور بزيارة ضريح السيد البدوى ، كما زار الشيخ ياقوت العرشى بالاسكندرية .

هذه هى الأسطورة التى رواها الرواة لايضاح المصير السيىء الذى ينتظر كل من يتعرض لاسم السيد البدوى أو لأحد أتباعه بنقد أو سوء . وهى قصة لا تخلو من مبالغة واضحة ، فضلا عما فيها من أخطاء ومغالطات تاريخية . ومرة أخرى لم يستح الرواة من أن يذكروا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتوسط عند السيد البدوى ويتشفع اليه فى الناس . على أنه يكفى للتدليل على فساد هذه القصة أنها حددت حدوثها فى عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، فى حين أن شمس الدين بن اللبان توفى سنة ٧٤٩ هـ أى فى العام التالى لتولى السلطان حسن الحكم . ولعله من الواضح أن سنة واحدة لم تكن تكفى لأن يبنى السلطان حسن مدرسته ويستحضر ابن اللبان من دمشق ويسافر ابن اللبان الى الاسكندرية ثم الى طنطا ثم الى القاهرة ... فى عصر كان السفر لا يتم الا على الأقدام أو على ظهور الدواب . ثم ان ابن اللبان كان رجلا متهما فى عقيدته وآرائه ، وذكر المقريزى أن ابن

اللبان اتهم سنة ٧٣٧ هـ بأنه قال فى الجامع ان السجود للصنم غير محرم . هذا الى أن القصة تظهره فى صورة الرجل الذى لم يعرف الشيخ ياقوت العرشى الا عندما دله عليه فقراء الزاوية الأحمدية بالقاهرة . والحقيقة ــ كما ذكرها المقريزى ــ أن ابن اللبان كان تلميذ الشيخ ياقوت العرشى ، واتهم ابن اللبان بأنه فضل مشيخة ياقوت العرشى على بعض الصحابة [١] ! .

وهكذا تبدو القصة من أولها لآخرها فى صورة مجموعة من الأحداث الملفقة استهدف واضعوها تحذير الناس من التعرض لسيرة السيد البدوى لأنه قادر ــ وهو فى قبره ــ على تأديب من يفعل ذلك .

رابعا : احضار الأسرى من بلاد النصارى ؛ وهذه كرامة كبرى اعتبرها أتباع السيد أحمد البدوى من أعظم كراماته ، وصاروا يتحدثون بها جيلا بعد جيل . بل ان العامة فى مصر أخذوا يتغنون بقدرة السيد البدوى على احضار أسرى المسلمين ، فصاروا ينشدون العبارة المعروفة : « الله الله يا بدوى جاب اليسرى » ؛ واليسرى هنا تحريف للفظ « الأسرى » .

وقد رأينا أن هذه الكرامة نسبت الى السيد أحمد البدوى فى حياته ، ولكن جماعة المنتفعين لم يكتفوا بذلك ، وانما نسبوها اليه أيضا بعد مماته وذكروا فيها كثيرا من القصص التى لا تخلو من مبالغة وطرافة . ثم ان كرامة السيد أحمد البدوى لم تقتصر

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ جـ ٢ ص ٤٠٨

على احضار الأسرى المصريين من بلادهم بل امتــــدت لتشمل أسرى المسلمين جميعـــا فى مختلف البلدان . من ذلك ما رواه الشعرانى فى الطبقات الصغرى من أن جماعة من أهل بيروت رووا أن الصليبيين آسروهم ــ وكانوا اثنى عشر أميرا ــ فأقاموا فى بلاد الأعداء يقاسون الأمرين بسبب الأعمال الشاقة التى سخروا فى ادائها ، حتى ألهمهم الله تعالى أن يستغيثوا بالسيد أحمد البدوى ، فقالوا : « يا سيدى أحمد يا بدوى ! ان الناس يقولون انك تأتى بالأســــارى الى بلادهم وقد سألناك بالنبى صلى الله عليه وسلم أن تردنا الى بلادنا ! » ولم يلبث أن هيأ لهم السيد البدوى طريق النجاة فعادوا الى بلادهم .

بل لقد حكى عبد الوهاب الشعرانى أنه رأى بنفسه مرتين : مرة سنة ٩٤٣ هـ ، ومرة أخرى سنة ٩٤٥ هـ ، أسرى على منارة السيد أحمد البدوى مقيدين بالأغلال ، فاذا آتوا بالواحد منهم وأنزلوه وتركوه بضعة أيام حتى يفيق من أثر الصدمة وسألوه عن قصته ، أجابهم بأنه كان أسيرا فى بلاد الأفرنج « فتوسلت بسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ، فاذا به قد أخذنى وطار بى فى الهواء ، حتى نزلت على المأذنة فطاش عقلى من شدة الخطفة والطيران !! » .

ويبالغ واضعو هــــذه الأساطير فيقولون : ان الصـــليبيين أدركوا مع الوقت أثر السيد أحمد البـــدوى فى افلات أسرى المسلمين من أيديهم ، فأخذوا يحتاطون على أسراهم من نفوذ السيد البدوى . من ذلك ما حكى أن شخصـــا اسمه الشيخ

سالم كان أسيرا فى بلاد الصليبيين ، فكان حارسه يقول له : « ان سمعتك تقول يا أحمد يا بدوى ضربتك وعاقبتك ! » . ثم اشتد خوف الصليبى من أن يقوم السيد البدوى بخطف الأسير ، فصار يبيته فى صندوق كبير ويقفل الصندوق بقفل وينام الصليبى فوق صندوق ليمنع السيد البدوى من خطف الأسير ! . وفى ليلة من الليالى بينما الشيخ سالم نائم فى الصندوق وفوقه الصليبى ، اذا بالشيخ يتذكر السيد أحمد البدوى ، فقال همسا : « يا سيدى أحمد يا بدوى انجدنى !! » . وما كاد ينتهى من عبارته ، الا وطار الصندوق فى الهواء وبداخله الشيخ سالم وفوقه الصليبى ! ولم يدر الشيخ سالم بنفسه بعد ذلك الا عند فتح الصندوق فوجد أناسا يتكلمون وعرف أنه على ساحل القيروان بشمال افريقية ، وعلى مقربة منه وجد الصليبى ملقى على الأرض . وكان هذا الحدث سببا فى اعتناق الصليبى الاسلام ، وحضوره الى مقام السيد أحمد البدوى فى طنطا اعتقادا فيه وطلبا لرضائه !! .

وهكذا تخصص السيد أحمد البدوى فى احضار أسرى المسلمين من بلاد الافرنج . ومهما يحتاط الصليبيون على أسرى المسلمين فان السيد أحمد البدوى كان لا يمكن أن يعجز — وهو فى قبره — عن احضارهم فى لحظات ! وسرعان ما اعترف كبار الأولياء والمشايخ للسيد أحمد البدوى بقدرته فى هذا الصدد من ذلك أن الشيخ ابراهيم المتبولى كان راكبا ذات يوم فاعترضت طريقه امرأة وقالت : « يا سيدى ابنى أسير فى بلاد

الافرنج وما أعرف مجيئه الا منك ! » . فرد عليها الشيخ المتبولى قائلا : « هذه لسيدى أحمد البدوى ، ما هى لى ! » . ولا شك فى أن هذا التخصص فى الكرامات بين المشايخ والأولياء أمر محمود ، يقضى على التنافس غير المشروع بين جماعة المنتفعين من وراء كل شيخ ...

خامسا : كشف الغيب والتنبؤ بالأخبار . وقد يبدو من الغريب كيف يستطيع السيد أحمد البدوى وهو ميت أن يتنبأ بالغيب ، ولكن الشيخ عبد الوهاب الشعرانى يحكى عن ذلك قصة غريبة خلاصتها أنه كان ذات يوم جالسا على سطح مقام السيد أحمد البدوى وقت الزوال ، فرأى الهلال الذى فوق قبة الضريح « يدور ويزعق كالحجر العظيم من حجارة المعصرة الذى ليس تحته حب ! » فدار ثلاث دورات على ذلك النحو . ولم يلبث بعد ذلك أن جاء الخبر بانتصار السلطان سليمان العثمانى على أهل رودس !! ويضيف الى ذلك أنه كلما حدث فى المملكة أمر ، فان تابوت السيد البدوى كان « يقرقع » . وحدث مرة أن دق تابوت السيد البدوى « وقرقع كالرعد القاصف وزلزلت الأرض ، ورفرف الطير ودار الهلال ... » فكان ذلك ايذانا بعزل صاحب الدولة ، كما جاءت الأخبار بذلك بعد قليل ! .

وهذا ما يقوله الشعرانى ، وليس لنا ما نقوله ردا عليه ، سوى أننا نتهم الشعرانى نفسه بأنه كان المسئول الأول عن نشر كثير من الخرافات التى صورها له خياله بين معاصريه . ويذكر المرحوم زكى مبارك أنه أحصى على الشعرانى أنه قال فى مؤلفاته

أكثر من خمسين مرة عبارة « العاقل من عرف زمانه » [1] . ومعنى ذلك أن الشعرانى عرف عقلية معاصريه ومستواهم الفكرى ، فبلغ من ذكائه وعقله أنه قدم لهم ما يرضيهم ويتفق وعقليتهم من خرافات [2] . بل لقد قالها الشعرانى فى صراحة فى البحر المورود « أخذ علينا العهد بأن نأمر اخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا ... » [3] . وقد أدرك الشعرانى أن الناس على أيامه يؤمنون بكرامات المشايخ والأولياء ، فقدم لهم الغذاء المحبب الى عقولهم وقلوبهم . والشعرانى هذا هو الذى ذكر عن نفسه أنه ركب فى محفة طائرة طافت جميع أقطار الأرض فى لحظة ... !! ولو علم قوم جاجارين بذلك لما احتفلوا به لأنه لم يأت بجديد بعد الشعرانى !! . ويقول الشعرانى أن محفته الطائرة كانت تمر على قبور المشايخ من فوق أضرحتهم « الا ضريح سيدى أحمد البدوى وسيدى ابراهيم الدسوقى ، فان المحفة نزلت من تحت عتبة أحدهما ومرت من تحت ضريحهما ... » . هذا ما قاله الشعرانى لأنه كان يعرف أنه يكتب لأهل مصر ، ولو كان يكتب لأهل العراق لقال ان المحفة مرت من فوق قبور جميع الأولياء الا الرفاعى والجيلانى فانها مرت من تحت ضريحهما !! والعاقل من عرف زمانه ... وتذكرنى هذه

---

(١) زكى مبارك : التصوف ، جـ ٢ ص ٢٨٦

(٢) للوقوف على حقيقة كتابات الشعرانى ، انظر : توفيق الطويل : الشعرانى ، وهو خير ما كتب فى موضوعه .

(٣) البحر المورود ، ص ٢٩١

العبارة بعبارة أخرى قرأتها لأحد مؤرخى عصر سلاطين المماليك يقول فيها ان العاقل « من يرقص للقرد فى دولته » ! .

سادسا : قدرته على نصرة المظلوم ؛ فنسب الى السيد أحمد البدوى أنه قادر وهو فى قبره على نصرة أى مظلوم يستغيث به . وقيل فى ذلك انه اذا نصب مظلوم راية فوق قبته أو منارته على من ظلمه ، وأشار اليه وقت نصبها ، حصل له النصر عليه . ويدللون على ذلك بأن جماعة من أهل البلاد الموقوفة على مقامه نصبوا راية على قبتـه بقصد أن يكف عنهم شر شخص من المفسدين تعرض لهم بالأذى . وعندما وقعت الراية من مكانها ضبطوا وقت وقوعها فاذا هو وقت هلاكه ، اذ تصدى له جماعة من « عسكر الاسلام » ، وأحرقوه بالنـار ، وقطعوا رأسه وسلخوا جلده .. وذلك كله بفضل بركة السيد أحمد البدوى [١].

كذلك يحكى الخفاجى أنه حدث على أيام محمد على باشـا الكبير أن نشب نزاع حول مشيخة سجادة السادة القادرية ، فوقع الشيخ محمد سليمان الفارضى صاحب الحق الشرعى فى المشيخة فى ضيق عظيم ؛ ولكنه كتب « عرضحال » بسط فيه مظلمته وألقاه داخل مقصورة السيد أحمد البدوى . وكان أن انتصر الشيخ محمد وكسب الدعوى ضد خصمه الذى نازعه المشيخة « وهذا كله ما توصل اليه الا ببركة سـيدى أحمد البدوى وحضوره الى أعتابه ... » [٢] .

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٧٧

(٢) الخفاجى : النفحات ؛ ص ٧٢

سابعا : حماية كل من يحتمى بمقـــامه ؛ فكان من كرامات السيد أحمد البدوى قدرته على حماية كل من يحتمى بمقامه ، فلا يصيبه سوء ، ولا يستطيع أى انسان « ولو كان من أهل السطوة والتجبر أن يتعرض له » . ومن الأمثلة التى تروى فى ذلك أن واحدا من عساكر الغربية تعرض لبعض جوارى العربان رغم أنهن احتمين فى المقام ، فكان جزاء ذلك الجندى أن وجد مقتولا فى الليلة التالية . كذلك يروى أن جنديا طلب صبيا له ليقتله ، فدخل الصبى مقام السيد أحمد البدوى واستنجد به « واستغاث بالأســتاذ » . فتبعه الجنـــدى الى المقام وهدد الموجودين فيه ، بحيث خافوا منه . وعندما أوشك الجندى أن يقبض على الصبى « فرقع التابوت وارتفع نور عظيم ، حتى ملأ ما بين السماء والأرض ، ورآه أهل البلاد المجاورة لبلد الأستاذ (طنطا) فظنوا أنه حريق وقع بها ، فحضروا ليحتالوا فى اطفائه مع أهل البلد ، فوجدوا ذلك الحال ، ووقع جماعة الى الأرض صرعى من شدة الحال ، وثارت حركات شـــديدة خارجة عن الحد !! » . أما الجندى وأتباعه فتملكهم الخوف ولاذوا بالفرار ، واعتقدوا منذ ذلك الوقت فى السيد أحمد البدوى اعتقـــادا زائدا ...

ثامنا : قدرته على شفاء المرضى ، فكان المرضى يستنجدون به وهو فى قبره فيلبى نداءهم ويشفيهم . وبلغ من شهرة السيد أحمد البدوى فى هذا المضمار أن زوجة الشيخ محمـــد الحنفى مرضت فاستغاثت بالسيد أحمد البدوى ، مع العلم بأن زوجها

شيخ كبير له كراماته ومناقبه ؛ « ولو علمت أن فى الأولياء من هو أعظم من سيدى أحمد البدوى لاستغاثت به ... » .

ولهذه القصة دلالة أخرى ، هى رعاية الأولياء بعضهم بعضا ، واحترام كل منهم لسمعة زميله وقدرته . ذلك أن استغاثة زوجة الشيخ محمد الحنفى بالسيد أحمد البدوى ليشفيها من مرضها فيها تعريض بزوجها ، لأن معنى ذلك عدم قدرته على تحقيق الشفاء لزوجته ، فكيف يكون موقفه مع مريديه وأتباعه ومترقبى كراماته . لذلك تتدارك هذه الأسطورة ــ التى رواها الشعرانى ــ الموقف ، وتقول ان السيد البدوى قال لزوجة الشيخ محمد الحنفى « كم تنادينى وتستغيثين بى وأنت لا تعلمين أنك فى حماية رجل من المتمكنين . ونحن لا نجيب من دعانا وهو فى موضع أحد من رجال الله تعالى . قولى يا سيدى محمد ياحنفى يعافيك الله تعالى !! » . وكان أن شفيت زوجة الشيخ محمد الحنفى وكان السبب فى شفائها هو السيد أحمد البدوى « وإذ أرشدها الى زوجها سترا لحاله وليزيدها اعتقادا فيه ، وليعلمها طريق الأدب مع رجال الله تعالى !! » .

تاسعا : قوة شفاعته عند الله تعالى . ومن الواضح أن هذه الكرامة فيها نوع من التواضع ، بعد أن رأينا كيف ادعى المنتفعون أن الله عز وجل والنبى عليه الصلاة والسلام كانا يتشفعان عند السيد أحمد البدوى فى بعض الناس . على أن

شفاعة السيد أحمد البدوى عند الله تعالى لم تكن الا فى أشد الأمور خطورة وهى التى كان لا يقدر عليها الأنبياء أنفسهم ، وأعنى بذلك تأجيل موعد القيامة !! وقد روى الجبرتى فى ذلك قصة طريفة ، خلاصتها أنه حدث سنة ١١٤٧ هـ (١٧٣٤ م) أن أشاع الناس فى مصر أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرين ذى الحجة . وانتشرت هذه الاشاعة فى جميع أنحاء البلاد ، الريف والحضر سواء ـ فأخذ الناس يستعدون لتلك اللحظة الرهيبة ويودعون بعضهم بعضا ، وفى كل يوم يقولون « بقى من عمرنا ثلاثة أيام » ثم « بقى من عمرنا يومان .. » . وثمة فريق من « المخاليع » ـ على حد تعبير الجبرتى ـ أسرعوا الى المتنزهات وأماكن اللهو وهم يقولون « دعونا نعمل حظ ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة !! » . هذا فى حين أكثرت غالبية الناس من الاستغفار والصلاة وعمل الخيرات والطيبات ... وكان أن جاء يوم الجمعة ولم تقم القيامة ... ثم جاء السبت ومر فى سلام ... وعندئذ علل الناس عدم قيام القيامة بأن السيد أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا عند الله عز وجل لتأجيل قيام الساعة ، حتى يشبع الناس من الدنيا ، فاستجاب لشفاعتهم !! وكان أن ازدادت مكانة السيد أحمد البدوى وزميليه عند الناس لقيامهم بتلك الشفاعة فأخذ الناس فى مصر يقولون « اللهم انفعنا بهم ، فاننا يا أخى لم نشبع من الدنيا ،

وشارعون نعسل حظ ... !! » ، ويعقب الجبرتى على هـذه القصة بقـوله :[1]

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضـحك كالبـكاء

* * *

وبعد ، فهذه بعض كرامات السيد أحمد البدوى حيا وميتا ؛ وما ذكرناه ليس الا قليـلا من كثير عددته الكتب التى عنيت بسيرة السـيد أحمد البدوى . ومن يقصد طنطا اليوم ـ وخاصة فى مولد السيد أحمد البدوى ـ يرى أن هذه الكرامات مازالت تروى ـ يرويها الرواة ـ وتجـد من يصدقها ويؤمن بهـا ، بالضبط كما كان الحال منذ سبعة قرون ... انها لقمة العيش !! .

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ؛ ج ١ ص ١٤٧ (طبعة بولاق) .

الفصل الخامس

طريقة شيخ

وكم للأحمــــدية من مقــــام
له فى الجو مصـــــباح توقــــد
لهم فى الفقـــــر أحوال حســــان
وألوية غـــدت فى الكون تعقـــد

الطريق الى الله :

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الى العوامل التى ساعدت على انتشار ظاهرة التصوف فى العالم الاسلامى بوجه عام وفى مصر بوجـه خاص ، وذكرنا أن الظـروف السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، كانت كلها من العـوامل الأساسية المشجعة على نمو تلك الظاهرة الخطيرة فى المجتمع . وكما رأينا أن حياة العزلة والعبادة بدأت فى المسيحية فى صورة رهبانية فردية ، ثم لم تلبث أن تحولت الى ديرية اجتماعيه ؛ فكذلك حدث بالنسبة لتطور هذه الحياة فى الاسلام ، اذ بدأ التصوف ظاهرة فردية محدودة ثم تحول الى ظاهرة اجتماعيـة واسعة النطاق ؛ هذا مع ملاحظة الفروق فى التطبيق بين حياة الديرية وحيـاة التصـوف ، وهى فى الواقع فروق بين روح المسيحية وروح الاسلام .

نعم ؛ بدأ التصوف فى الاسلام هادئا بسيطا ، لا يتعـدى ظهور فرد بين حين وآخر ، هنا أو هنـاك بين أنحاء العـالم الاسلامى ، يلتمس التوبة الى الله ، ويدفعه عدم الرضـا عن الأوضاع التى يحس بها حوله الى اعتزال الناس فى صورة أو أخرى ؛ ومحاولة كسب رضاء الله عن طريق اتباع حياة الزهد والتقشف . ثم لا يلبث هذا الفـرد أن يحوز ثقـة معاصريه واعجابهم فينظرون الى هذا الصوفى نظرة مثالية ، ويقصدونه

اما للتبرك أو أملا فى قضاء حاجاتهم ؛ وربما اتخذوه واسطة بينهم وبين الله عز وجل ليكشف عنهم الغموم ويفرج لهم الكروب . وهكذا يتحول الاعجاب بالرجل الى ايمان به فتنتشر الشائعات عن قدرته ويروج المتنفعون لكراماته ، فيلتف حوله كثير من المريدين ، يتخذونه أستاذا لهم ، وشيخا يهتدون بهديه ، وقدوة صالحة يقتدون بها للوصول الى طريق الله عز وجل .

والشيخ أو الأستاذ هو الذى يرسم للمريدين طريق الوصول الى الله . فالطريق فى عرف الصوفية هو سبيل السفر الى الله ؛ والمريد هو سالك هذا الطريق — أو هو المسافر الذى يسير فيه وراء شيخه خطوة خطوة ومرحلة بعد أخرى — حتى يصل الى غايته ، ولا يستطيع الفرد — فى نظر الصوفية — أن يسلك هذا الطريق بمفرده ، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات ملىء بالصعاب ، يتربص بسالكيه أعداء أشداء فى حاجة الى جهاد ، ومن هؤلاء الأعداء الشيطان والنفس والهوى ؛ وهم جميعا من عوامل الغواية والفتنة . لذلك كان لا بد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده ، ويوجهه الوجهة الصحيحة ، ويبصره بالأساليب التى يدفع بها كيد الشيطان ، ويقاوم بها سوء أوامر النفس ، حتى يصل فى النهاية سالما نقيا الى الله . وهذا المرشد هو الشيخ الذى بلغ من صفاء النفس وصدق الايمان ونقاوة الضمير ما يجعله مرشدا صالحا أمينا . وعلى ذلك فقد صار لزاما على كل من يريد أن يسلك سبيل الله أن يتخذ له شيخا .

واذا كان الصوفية قد تركوا للمريد حرية اختيار شيخه ، فانهم قالوا انه متى اختار المريد شيخا ، فانه يرتبط به ارتباطا ابديا ، وعندئذ يربط بينهما مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة . وقد حدد الخفاجي آداب المريد مع شيخه [1] ، فقال انه يجب عليه تعظيمه واحترامه سفرا وحضرا ، في حضوره وغيبته ، وتوقيره ظاهرا وباطنا ، وعدم مخالفته ، واتباعه وعدم الاعتراض عليه ، وتقديمه في كل الأمور على غيره من الأشياخ الصالحين من أهل الطريق ، فلا يزور وليا من أهل العصر ولا صالحا الا باذنه ، ولا يحضر مجلس غيره ، ولا يسمع من سواه وذلك لئلا يطلع على كرامة من أحد منهم ، فيعتقد أنه أعلى مقاما من شيخه . ولا ينبغي للمريد أن يجلس وشيخه واقف لأن في ذلك عدم احترام له . واذا سأل شيخه سؤالا أو طلب منه تفسير رؤيا لا يصر على طلب الجواب ، بل يسأل ويسكت ، وللشيخ الحرية في أن يجيب وقتما شاء أو لا يجيب ، حتى لا يحرجه باجابة قد لا يكون الشيخ مستعدا لها . ثم انه ينبغي على المريد أن لا يكثر الكلام في حضرة الشيخ ولا يسبح بسبحته ولا يطالع في كتبه ولا يتوضأ بابريقه ولا يجلس في خلوته . وبالجملة فان علاقة المريد بشيخه ينبغي أن تكون كما عبر عنها السيد ابراهيم الدسوقي « ان المريد مع شيخه على صورة الميت ، لاحركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه الا باذنه ، ولا يعمل شيئا الا باذنه ، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو

---

(1) الخفاجي : النفحات الأحمدية ؛ ص ٢٠٩

مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك »[1] . وبالغ بعض شيوخ الصوفية ، فاشترطوا فى العهد الذى يأخذونه على مريديهم أن المريد لا يبقى له تصرف فى ماله ولا زوجته ولا نفسه ، وأن التصرف كله يصير لشيخه[2] . وكان عنوان اخلاص المريد لشيخه هو المداومة على حضور مجلسه ، فاذا انقطع المريد عن مجلس الشيخ لخجله بسبب زلة وقع فيها « كان ذلك كالطلاق الرجعى » ، فللشيخ أن يقبله اذا رجع ، لأن حرمة الشيخ فى نفس المريد لا تزال باقية[3] .

واذا كانت هذه هى واجبات المريد ، فان الشيخ ينهض بمهمة خطيرة ، هى المحافظة على الأمانة التى وضعها الله بين يديه ، ورعايتها حق رعاية ؛ فيربى مريده تربية سليمة روحيا وخلقيا ، ويحاول أن يذلل له كل العقبات التى تعترضه ويحل له المشاكل التى تصادفه . وقد قال فى ذلك الشيخ أحمد أبو العباس المرسى « ينبغى للمشايخ تفقد حال المريدين . ويجوز للمريدين اخبار الأستاذ بما فى بواطنهم ، اذ الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة ، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى ! »[4] . ولم تقتصر هذه الرابطة على الحياة ، وانما امتدت الى الممات ، اذ حرص كثير من الصوفية على أن يدفنوا بجوار مشايخهم

(1) الشعرانى : لواقح الانوار ؛ جـ ١ ص ٢٤٢
(2) ابن الحاج : المدخل ؛ جـ ٣ ص ٢٠٧
(3) الشعرانى : لواقح الانوار ؛ جـ ٢ ص ١٧٦
(4) المرجع السابق ، صفحات ٢١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٠ وغيرها .

وأوصوا بذلك [1] . كذلك اتخذ الصوفية قرافات خاصة بهم ، وأحاطوها بسور حتى لا يدفن فيها غيرهم [2] . ولا يخفى علينا أن بعض مشايخ الصوفية استجابوا للطبيعة البشرية وما جلبت عليه من حب السيطرة ، فاستباحوا لأنفسهم ــ بوصفهم وسطاء بين المريد وبين الله عز وجل ــ أن يحطموا شخصية المريد الى حد اهدار كرامته ، بل لقد سلبوه أبسط حقوقه كانسان وأثقلوه بالتبعات والواجبات . وكفى أن الشعرانى فرض على المريد أن يلذ لحديث شيخه « وكأنه فى حال جماع !! » [3] .

على أن المسألة لم تقف عند حد علاقة المريد بشيخه وعلاقة الشيخ بمريده ، وانما كان على الصوفية أن ينظموا علاقاتهم مع بعضهم بعضا فضلا عن أفراد المجتمع المحيط بهم . لذلك طلب الى المريد أن يكون محبا لاخوانه المريدين ــ كبيرهم وصغيرهم ــ وأن لا يخص نفسه بشيء دونهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، وأن يعودهم اذا مرضوا ، ويسأل عنهم اذا غابوا ، ولا يذكر أحدا بعيب يراه قط ، واذا رأى فى أحدهم عيبا قال « انما ذلك العيب فى ! » ؛ وأن يقبل عذر أخيه اذا اعتذر ، وأن يستر عورته ... هذا عن واجبات المريد تجاه اخوانه المريدين ، أما سلوكه تجاه عامة الناس فيجب أن يكون متصفا بالتواضع والبعد عن الاستعلاء ، عملا بقول الامام الشافعى : ليس بعد الشرك ذنب أعظم من السخرية بالناس .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ جـ ٩ ص ٢٩٥
(٢) السخاوى : تحفة الأحباب ؛ صفحات ١٩ ، ٢٦ ، ٣٢
(٣) توفيق الطويل : الشعرانى ؛ ص ٧٤ ــ ٧٥

ولا يقل خطورة عن ذلك كله آداب المريد تجاه نفسه ، فقد اشترط على المريد أن يكون مشغولا بالله تعالى ، زاهدا فيما سوى الله سبحانه وتعالى ، يحب ما يحبه الله ويكره كل ما يكرهه وينهى عنه الشرع ، غاضا طرفه عن المحارم ، كريما سخيا ، لا يتوسع فى المآكل والملبس والمنكح ، مداوما على الطهارة فلا ينام جنبا ولا عريان مكشوف العورة ، يحاسب نفسه على الدوام على ما سلف أيام جهله ويستغفر الله ، يكابد نفسه عن النظر الى الصور الجميلة من النساء ، ولا ينكر على أحد من العلماء والفقهاء وأهل الطرق مطلقا ، لأن حصول الانكار فرع من النفاق ، وأن يكون نظيفا فى ظاهره وباطنه ، صابرا شاكرا عابدا ، لا يشتغل الا بالعبادة .

هذه هى المبادىء الأساسية التى افترضها الراغبون فى سلوك الطريق الى الله للسير وفقها . ولو اتبع الصوفية هذه المبادىء وحرصوا عليها لحظوا باحترام الخاصة والعامة جيلا بعد جيل . ولكن كما نلمس فى معظم شئون الحياة ، كثيرا ما تتسع الفجوة بين الفروض النظرية والتطبيقات العملية . وسنرى بعد قليل ، كيف انحرف كثير من أهل الطريق عن الطريق مما عرضهم لغضب الله وسخرية الناس .

تعدد طرق الصوفية :

واذا كان هدف الطريق واحد ــ هو الوصول الى الله ــ فان المفروض أن يكون الطريق واحداً . ولكن قد تتعدد الدروب والشعب والمنحنيات التى تتفرع عن الطريق الرئيسى ، وان كانت

كلها فى النهاية تؤدى الى هدف واحد . وقد ترتب على ذلك وجود طرق عديدة للتصوف ، فلكل شيخ طريقة ، الأمر الذى أدى الى وجود كثير من الطرق الصوفية .

ويذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية أن أغلب الطرق منسوبة الى أربعة من كبار الأولياء (الأقطاب) هم عبد القادر الجيلانى وأحمد الرفاعى وأحمد البدوى ، وابراهيم الدسوقى [١]. ولكل واحد من هؤلاء طريقته الخاصة التى نسبت اليه ، وهى الطرق القادرية والرفاعية والأحمدية والبرهامية . وقد ذكر الشرنوبى — وهو أحد متصوفى العصر العثمانى (ت ٩٩٤ هـ) قصة خيالية طريفة أوضح فيها كيف اقتسم هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم ، فكان لكل منهم ربعها . وصور الشرنوبى فى قصته النزاع الذى قام بينهم عند اقتسام الأرض ، حتى تدخل الله عز وجل والملائكة والرسول عليه الصلاة والسلام والأولياء للفصل فى قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء واخوانا [٢] . أما الجبرتى فيعبر عن أرباب هذه الطرق الأربعة بأنهم من أصحاب الأشاير [٣] . والمراد بالأشاير — كما يقول على باشا مبارك — جموع كثيرة من أهل الطريق يسيرون من منازلهم ليلا وبأيديهم الشموع ، وهم رافعو الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ؛ جـ ٣ ، ص ١٢٩ — ١٣٠
(٢) توفيق الطويل : التصوف فى مصر ؛ ص ٧١
(٣) الجبرتى : عجائب الآثار ؛ جـ ٤ ص ٨٧٦

المرسلين . ولا يزالون كذلك حتى يصلوا الى الضريح أو محل اقامة المولد « ولبعضهم عادات من الحلو والشموع توزع عليهم حين وصولهم ، بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة » .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطرق أو الفرق الكبرى لم تلبث أن انقسمت كل منها الى طوائف فرعية ، ويهمنا الفرقة الأحمدية الخاصة بأتباع السيد أحمد البدوى ، اذ تفرعت بدورها الى ست عشرة طريقة ، هى المرازقة ، والكناسية ، والانبابية ، والمنايفة ، والحمودية ، والسلامية ، والحلبية ، والزاهدية ، والعشيبية ، والبيومية ، والتسفيانية ، والشناوية ، والعربية ، والسطوحية ، والبندارية ، والمسلمية . كذلك يلاحظ أن كل فرقة كبرى اتخذت لنفسها شعارا ، فالأحمدية اتخذت اللون الأحمر شعارا لها ، والرفاعية اللون الأسود ... وهكذا . ومن أهم ما كان يميز الطوائف أورادها وأحزابها ، والفرق بين الحزب والورد أن الورد يقرأ فى أوقات منظمة ، فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس لقراءته وقت مخصوص [1]. وما دام شيخ الطريقة هو الذى أنشأ الورد أو الحزب ، فانه وجب على أتباعه الروحيين من المريدين أن يحافظوا عليه دائما أبدا ، يرددونه فرادى وجماعات فى الأوقات المحددة وحسب القواعد التى تعينها الطريقة لهم ، لأن مدد الشيخ فى ورده ، على قول الشعرانى .

---

(١) زكى مبارك : التصوف ، جـ ٢ ص ٧٩

المتابعة على الطريقة الأحمدية :

ولكن كيف كان يستطيع الفرد أن ينتسب الى الطريقة الأحمدية ليصبح من أتباع السيد أحمد البدوى ؟ يقول الشيخ يوسف بن أزبك الصوفى ان المتابعة بالقدوة معناها الارادة والتسليم من المريد . واذا كان هناك مريد فلا بد أن يكون هناك مراد . والمراد هنا هو الله سبحانه وتعالى ، فتكون المبايعة على طاعة الله ومحبته ، لا على شىء من أمور الدنيا .

فاذا أراد مريد" الدخول فى زمرة الطائفة الأحمدية ، كان عليه أن يذهب الى الشيخ الواصل الموصل ؛ أى الواصل الى الله ، الموصل المريدين الى طريقه . وبعد أن يقوم الشيخ بالسؤال عن حال المريد ، ويطمئن الى حسن استعداده يسأله : ما مرادك يا أخى ؟ فيجيب المريد : جئت اليك يا أستاذى لتعهد الىّ بالقدوة وتسلكنى بتسليك العارفين .

الشيخ : أنت اخترتنى من دون الناس لأكون دليلك على الخير ، فأنا لا آمرك الا بالمعروف ولا أنهاك الا عن المنكر . وسأكون لك بعون الله تعالى عونا على المعرفة والعلم الشريف النافع ، لعل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا واياك علما نافعا ، وأن يجعل لنا من فضله قلبا خاشعا ونورا فيه ساطعا ، وأن يرزقنا من بحر كرمه رزقا واسعا ، وأن يفتح علينا فتحا ربانيا والهاما صمدانيا ، وأن يحفظنا من ابليس وجنوده وأعوانه :

النفس والهوى والغرور والباطل ؛ وأن ينفينا من كل داء ، لكى نخدمه ونوحده على الدوام متوسلين اليه تجاه حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، صاحب الجاه العظيم .

ثم ينظر الشيخ الى المريد ويقول : أنت يا ولدى اخترت لنفسك الدخول فى رقعة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وأن يكون شيخنا شيخ الشيوخ أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضى الله تعـالى عنه « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؛ ورضيت بأن تكون سميعا مطيعا محبا لى ولاخوانك ؟؟.

المريد : نعم ! نعم ! نعم ! يا أستاذى وعمدتى وملاذى !

الشيخ : قبلتك ! قبلتك ! قبلتك ! يا أخى فى الله تعالى من الأحباب !

وبعد ذلك يأمر الشيخ المريد بالوضوء ، وأن يصلى لمولاه ركعتين بنية التوبة لله من جميع الذنوب والخطايا ، سهوا أو عمدا ، خفية وجهرا ، لخبر التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وبعد السلام يأمره الشيخ بأن يقول بنية خالصة لمولاه المطلع على ظاهره وخافيه : « تبت الى الله توبا نصوحا ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود أبدا . وأشـهد الله وجميع خلقه علىّ بذلك ؛ وأسأل الله الكريم بجاه سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وذريتهم من الصالحين أجمعين أن يتقبل منى توبتى ! » . ثم يأمره الشيخ بأن يقول : « الله معى !

الله ناظر اليّ شاهد عليّ ! » وينصح الشيخ المريد قائلا : « انك يا ولدى ما دمت تلاحظ تفسير هذه الكلمات على الدوام مع ملازمة أذكارك كل يوم عقب كل صلاة فرض أو نفل عشر مرات ، يصحح الله توبتك وتكون من التائبين المخلصين » .

ويستحب للمريد أن يصلى لله سبحانه وتعالى قبل الوصول بالعهد صلاة التوبة ؛ وصفتها أن يقوم المريد فيسبغ الوضوء الظاهر والباطن . أما صفة هذا الوضوء فهى أن يقول عند غسل الوجه : « أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه ، وأسأله التوبة والمغفرة والنجاة من النار ، توبة عبد ظالم لنفسه معترفا بذنبه ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا » . ويقول هذه العبارة ثلاث مرات . وبعد ختم الوضوء ودعواته المذكورة بكتب الفقه يقرأ آية الكرسى مرة ، وانا أنزلناه فى ليلة القدر ثلاثا ، ثم يقول : « أستغفر الله العظيم ألفا فى آلاف ، وأسألك اللهم ألطافا فى ألطاف فى ألطاف ؛ اللهم بالبيت والمحراب وقبر نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أن تلطف بى فيما سطرته علىّ فى أم الكتاب ، يا كريم يا تواب ، يا مجيب يا وهاب » . ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بما يلهمه الله من الصيغ عشر مرات .

هذا هو الوضوء ؛ أما صلاة التوبة فهى أن يقوم مستقبلا للقبلة ويقول : « أصلى لله تعالى خالصا مخلصا ركعتين : صلاة التوبة ... الله أكبر » ويتبع ذلك بعبارة : « سبحانك اللهم

وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا اله غيرك . أشهد أن لا اله الا أنت ، أستغفرك وأتوب اليك ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ بسم الله الرحمـــن الرحيم ... » ويقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة وسورة « اذا جاء نصر الله » ؛ وفى الركعة الثانية الفاتحة والصمدية . وبعد الفراغ والسلام منهما يقول :

« استغفر الله العظيم لى ولوالدى ولأصحاب الحقوق علىَّ ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والمســـلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، انك سميع قريب مجيب الدعوات » . ويكرر ذلك سبعا وعشرين مرة . وبعد ذلك يكرر دعاء التوبة ثلاث مرات ، ونصه : « تب علينا قبل مرض موتنا توبة ترضيك وترضى بها عنا يا رب العالمين . اللهم وفقنى لما يرضيك يا كريم . رب اغفر وارحم وتب واعف وتجاوز عما تعلم ؛ انك سبحانك تعلم ما لا نعلم ، انك أنت علام الغيوب ؛ وأنت الأعز الأكرم برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا مجيب السائلين ، يا قابل التائبين . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين » .

❊ ❊ ❊

وبعد أن يصلى المريد هذه الصلاة يقوم من مكانه الذى صلى فيه ويدخل مع اخوانه حلق الذكر لأجل تصفية قلبه للطريق الموصل لمحبة خالقه وأحبابه . وبعد الانتهاء من الذكر يجلس بين يدى شيخه ، ويكون الشيخ مستقبلا القبلة بالخضوع والخشوع

والوقار « فانه أمر عظيم ! » . ثم يستغفر الله سبحانه وتعالى بهذا الاستغفار : « أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه » . يقول ذلك ثلاث مرات ؛ ثم يكمل «وأسأله التوبة والمغفرة والنجاة من كل ذنب أذنبته عمدا أو خطأ ، سرا أو علانية ، وأتوب اليه من الذنب الذى لا أعلم به ، انه هو علام الغيوب ، وأسأله الجنة والنجاة من النار . اللهم انى أسألك يا غفور يا عفو عن المذنبين أن تغفر لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، والأحياء منهم والأموات ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين » ... ثم يقرأ فاتحة الكتاب ويقول : « يا سيدى وشيخى فى الله ، يا سلطان الأولياء ، يا سيدى أحمد يا بدوى مدد لله ، يا سادتنا وأشياخنا فى القدوة ، شيء لله يا رسول الله ، شيء لله يا سيدى يا رسول الله ، شيء لله شيء لله ، سيدى يا رسول الله ... ! » .

وبعد ذلك مباشرة يضع المريد يده فى يد الشيخ ، ويجعل ابهامه اليمنى على ابهام الشيخ اليمنى ، ثم يقول الشيخ للمريد « اسمع ما قال الله تعالى فى العهد ، فانه سبحانه وتعالى قال : وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . لقد رضى الله عن المؤمنين ، اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ... » .

ثم يقول الشيخ للمريد « اسمع يا أخى ؛ هذا عهد الله بينى

وبينك على الكتاب والسنة ، ونحن اخوان فى الله تعالى ، وفى رقعـــة قطب الزمان ، وعون العصر والأوان ، الحبيب النسب أبى العباس السيد أحمد البدوى رضى الله عنه ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . الناجى يأخذ بيد أخيه فى يوم القيامة . ونحن ان شـــاء الله تعالى من الآمنين فى رحمة الله ســـبحانه وتعالى ... » .

وبعد هذا يتمتم الشيخ فى سره « اللهم خذ منه وتقبل منه وافتح عليه أبواب كل خير ، كما فتحتها على أنبيائك وأوليائك ، واجعلنى واياه من المقبولين الفائزين من أحبابك ، وأحبـــاب حبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأهل بيته أجمعين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ... » .

وأخيرا يقوم المريد ، ويدعو الله سبحانه وتعالى فى سره ، والشيخ وجميع الاخوان يؤمنون على دعواته ، ويختتم دعاءه بقوله جهرا : « يا مولانا يا مجيب ! أجب من يرجوك لا يخيب ! توسلنا اليك بجاه سيدنا محمد الحبيب ! أن تقضى حوائجنا قرب هذا وقت الحاجات يا حاضرا لا يغيب » . ثم يقول الشيخ «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ثم يقرأ الشيخ والحاضرون الفاتحة الشريفة ، ويهبون ثوابها لأهل العهود ، ثم الفاتحة « الى شيخنا فى الدنيا والآخرة السيد أحمد البدوى رضى الله عنه » . ثم الفاتحة الى أرواح الأشياخ

---

(١) الخفاجى : النفحات الاحمدية ، ص ١٦٧ ــ ١٧٠

فى الطريق عموما ، وأرواح المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات أجمعين [1] .

وينتهى الحفل بأن يلبس الشيخ المريد الخرقة الأحمدية ، وهى خرقة التصوف ؛ وبذلك يصبح المريد « عضوا عاملا » فى الطائفة الأحمدية .

الخرقة الأحمدية :

ذكرنا من قبل أن كل فرقة من فرق الصوفية اتخذت لنفسها شعارا ، وكان شعار الأحمدية هو اللون الأحمر . وكثيرا ما يعبر عن دخول أحد الأفراد زمرة الصوفية بعبارة أنه « لبس خرقة التصوف » . أو « لبس خرقة الفقراء » . فما الأصل فى هذا الاصطلاح ؟

يقول الصوفية ان الصوفى ينبغى أن يكون مدده متصلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أن تكون سلسلة أشياخه متصلة برسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ فاذا طرقه أمر مزعج فى الدنيا أو الآخرة توجه الى شيخه ، فيتحرك للأخذ بيده ، وعلى التوالى يتحرك بقية الأشياخ حتى تصل الحركة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « كسلسلة الحديد اذا تحرك منها حلقة تحرك سائرها » . أما كيف امتدت هذه السلسلة الى رسول الله ، أو بمعنى أصح امتدت منه الى بقية الأولياء والمشايخ ، فلذلك قصة رواها الشيخ يونس بن أزبك الصوفى ؛ اذ حكى الرواة على لسان رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه لما أسرى

---

(١) الخفاجى : النفحات الأحمدية ، ص ١٦٧ — ١٧٠

به الى السموات العلى أخذ جبريل عليه السلام بيده وأدخله الجنة ، وجاء به الى قصر من ياقوتة حمراء ، ففتح القصر وأخرج للرسول منه صندوقا من نور ، ثم فتح الصندوق وأخرج منه زيق الفقراء ، وقال له « يا محمـــد ! ان الله سبحانه وتعالى قد أمرنى أن ألبسه لك ، فلا تودعه الا عند مستحقه » . فلبس النبى عليه الصلاة والسلام زى الفقراء ـــ أو زيق الفقراء ، أو خرقة الفقراء ـــ وخرج به من الجنة ، وكان يفخر ويقول « الفخر فخرى وفخر أمتى من بعدى الى يوم القيامة ... » .

هذه هى قصة الخرقة ـــ خرقة الفقراء وهم المتصوفة . أما كيف انتقل المدد عن طريقها من الرسول الى المشايخ والأولياء ـــ ومنهم السيد أحمد البدوى ؛ فقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام ألبس زيق الفقراء أو خرقة الفقراء لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لعمر بن الخطاب ، ثم لعثمان بن عفان ، ثم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ؛ ثم ألبسه النبى صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضى الله عنه ، ثم لبســـه منه عمران بن حصين ، ثم لبسه منه الحسن البصرى ... وهكذا من شيخ لآخر حتى ألبسه الشيخ عبد الجليل للسيد أحمد البدوى عن طريق أخيه السيد حسن بدر الدين كما سبق أن ذكرنا ، وكان ذلك فى المغرب قبل رحيل الأسرة الى المشرق .

ولعله من الواضح بعد هذا لماذا اختار الأحمدية الشعار الأحمر بالذات ، ففى القصة الســـابقة أن القصر الذى دخله الرسول عليه الصلاة والسلام فى الجنة ليأخذ منه زيق الفقراء ،

كان من ياقوتة حمراء ، مما أوحى بأن الزيق نفسه كان أحمر اللون . هذا فضلا عما يقوله الأحمدية من أن السيد أحمد البدوى اقتدى « بجده رسول الله عليه الصلاة والسلام » فى لبس الخرقة الحمراء . وقد روى عن جابر بن عبد الله أن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت له حلة حمراء يلبسها فى الأعياد والجمع . وفى صحيح البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال « ما رأيت ذا لمة سوداء فى حلة حمراء أجمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . كذلك ذكر الدميرى فى حياة الحيوان الصغرى فى حرف العين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم لواء بنى سليم يوم فتح مكة على سائر الألوية ، وكان لواء بنى سليم أحمر .

وهكذا كان للون الأحمر من المبررات والمرغبات ما جعل الأحمدية يتمسكون به ويتخذونه شعارا لهم . وقد حكت الكتب التى روت سيرة السيد أحمد البدوى أنه قال لخليفته السيد عبد العال « اعلم أننى اخترت هذه الراية الحمراء لنفسى فى حياتى وبعد مماتى ، وهى علامة لمن يمشى على طريقتنا من بعدى » . فقال له السيد عبد العال « فما شروط من حملها ؟ » قال له « شروطه أن لا يكذب ولا يأتى بفاحشة ، وأن يكون غاض البصر عن محارم الله تعالى ، طاهر الذيل ، عفوف النفس ، خائفا من الله تعالى ، ملازم الذكر ، دائم الفكر » [1] .

---

(١) عبد الصمد : الجواهر السنية ؛ ص ٨٢

الحزب والأوراد والصلاة :

على أن لبس الخرقة وحدها كان لا يكفى لأن يجعل الفرد عضوا عاملا فى طريقة معينة من طرق الصوفية ؛ وانما كان لزاما عليه أن يحافظ على رسومها وتقاليدها وطقوسها . وقد أشرنا من قبل الى أن أهم ما كان يميز الطوائف والفـرق الصوفية أحزابها وأورادها ؛ فلكل فرقة أو طريقة حزب وأوراد ، يرددها الأتباع والمريدون فى حياة شيخ الطائفة وبعد مماته ، فاذا تخلف مريد عن تلاوتها كان ذلك ذنبا كبيرا لا يغتفر فى حق الشيخ .

وقد أثر عن السيد أحمـد البدوى حزب وأوراد ، ذكر الحزب الشيخ محمد الشناوى ، وعنه تناقله شيوخ الطائفة الذين يعتقدون اعتقادا راسخا فى أن الشيخ محمد الشناوى استقى هذا الحزب بطريقة أو أخرى عن السيد أحمد البدوى . أما نص هذا الحزب فهو : ـــ

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : لووا عما نووا فعموا وصموا عما طووا [1] .

بسم الله الرحمن الرحيم . ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول [2] .

---

(١) اى عطف أعداؤنا رؤوسهم وأعرضوا عن السوء الذى قصدنا به ، وصرف الله قلوبهم عن أى ضرر أرادوا انزاله بنا ، فعميت أبصارهم وصمت آذانهم عما طوته ضمائرهم من الشر والأذى .

(٢) الغرض من هذه السورة أنها تشير الى سرعة اهلاك من قصد بالسوء اولياء الله والأماكن ذات الحرمة الدينية .

اللهم اكفنيهم بما شئت [1] . اللهم انى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأ بك فى نحورهم . بك أحاول وبك أقاتل . اللهم واقيــة كواقية الوليــد [2] . بكهيعص كفيت . بحمعســق حميت [3] . فسيـكفيكهم الله وهو السميع العليم . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين » .

هذا هو الحزب المنسوب الى السيد أحمد البدوى رضى الله عنــه . وقد زعم أتباعه أنه خير حصـــن يتحصن به المرء من الأشرار ، وأن من يلازم تلاوته صباحا ومساء ، وذلك بعد أن يتلو الفاتحة مائة مرة والصمدية مائة مرة ، يحفظه الله تعالى من الأعداء الباطنة والظاهرة ، ومن مكائد الفساق ، و « من العين والنظرة والحسد ، ومن الجن والجنون وكل داء فى الجسد » .

* * *

أما عن الأوراد ، فلكل ليــلة ورد مخصص « لأن طريقــة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه مبنية على الهمة ونظر الأستاذ لمريده على حســب قلب المريد وخلوصه لمحبة شخصـــه » . والأوراد فى الطريقة الأحمدية مرتبطة بالصلوات الخمس ، وقد

---

(١) أى امنع عنى الأعداء واكفنى القوم اللئام ، كما منعت أصحاب الفيل عن بيتك الحرام .

(٢) أى اجعل لى وقاية وحماية مثل الوقاية التى تهبها المولود الصغير .

(٣) أى بأسماء الله ، وأحرف الكاف والحاء من أسمائه يحتمى من السوء .

حددها السيد أحمد البدوى فى وصيته التالية لخليفته السـيد عبد العـال : ـ

« يا ولدى أوصيك بتقوى الله فى السر والعلانية . وعليك بملازمة السنة والجماعة فى كل وقت . وبعد السلام من كل فرض تقرأ آية الكرسى مرة ، وسبحان الله ثلاثا وثلاثين مرة ، والحمد لله كذلك ، والله أكبر كذلك ، ولا اله الا الله محمد رسول الله مرة واحدة ، والاستغفار مائة مرة ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مائة مرة ، وتذكر الله ثلاثمائة مرة .

ان قدرت على تلاوة ذلك عقب كل فرض كان مفتاح كل خير ، وان لم تقدر فعقب الصبح والعشاءين [1] ، والا فكل يوم مرة على الدوام ، واذا تأخرت عن التلاوة يوما تعيد ما فاتك كله وقت القضاء ، فان الأوراد مطلوبة من المريد . وكذا ملازمة صوم يوم الاثنين والخميس ، لما فى ذلك من الأحاديث الشريفة . واعلم يا ولدى أن صلاة ركعتين فى جوف الليـل خير لك من صلاة ألف ركعة بالنهار .

وأما ورد يوم الأحد ، فتقول عقب المفاتيح السابقة : اللهم صلى على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة وخمسين مرة ، ثم تقول الحمد لله والله أكبر ، من مائة الى ما لا نهاية ، كل بثوابه .

ويوم الاثنين سبوح قدوس من مائة مرة الى آخر جهدك .

---

(1) العشاءان : المغرب والعشاء .

ويوم الثلاثاء سبحان القادر المقتدر كذلك أيضا .
ويوم الأربعاء سبحان ذى الملك والملكوت كذلك .
ويوم الخميس سبحان الله وبحمده ألف مرة ، وهى بعتق رقبة ، كما ورد .
ويوم الجمعة الصيغة الأمية ، العدد السابق .
ويوم السبت لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم مائة مرة فقط » .

* * *

أما الصلاة ، فالواقع أن هناك أكثر من صلاة منسوبة الى السيد أحمد البدوى ، وقد ذكرنا احداها عند الكلام عن آثاره الفكرية . غير أن الصلاة الرئيسية المنسوبة اليه نصها كما يلى[1] :

« اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد ؛ شجرة الأصل النورانية ، ولمعة القبضة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الانسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية[2] . صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية ، والرتبة العلية . من اندرجت النبيون تحت لوائه ، فهم منه واليه ، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت ، وأمت وأحييت ، الى يوم تبعث من أفنيت ، وسلم تسليما كثيرا . والحمد لله رب العالمين » .

---

(١) الخفاجى : النفحات الاحمدية ؛ ص ١٣٠ — ١٤٩
(٢) اى المختارة .

وقد ورد أن هذه الصلاة لها فوائد كثيرة وفرائد غزيرة ، منها اذا ذكرها صاحب مضرة فى مجلس واحد ألف مرة ، أذهب الله ضره ، وأتته سريعا المسرة . ومن ذكرها بعد صلاة فرض الصبح ثلاثة أيام كل يوم ألف مرة قبل أن يتكلم مع أحد من الأنام ، فرج الله سبحانه وتعالى عنه الكروب والأسقام . ومن قرأها العدد المذكور كل ليلة اثنين وجمعة بخلوص قلب ، وبنية رؤية النبى عليه الصلاة والسلام ، لا بد له من الحصول على ذلك .

واعتقد الأحمدية أن من كان له الى الله حاجة فليواظب على قراءة قل هو الله أحد مائة مرة ، وكذلك صيغة الصلاة السابقة ، ثم يسأل الله قضاءها ، ويتوسل بسيدى أحمد البدوى بعد قراءة الحزب ثلاث مرات ، فلا تلبث حاجته أن تقضى فى الخير اكراما للسيد أحمد البدوى ...

مبادىء السيد أحمد البدوى وتعاليمه :

على أن الطريقة الأحمدية التى أرسى دعائمها السيد أحمد البدوى لا تتضح أركانها فى مظاهرها وتقاليد أتباعها ، وما يرتبط بها من حزب وأوراد فحسب ، وانما يتضح الجانب الخلقى المثالى لهذه الطريقة فى أسلوب السيد أحمد البدوى فى تربية مريديه ، ووصاياه لهم ، ومبادئه الكريمة التى حرص على تزويدهم بها . وتتضح لنا هذه المبادىء والخصال فى مجموعة قليلة تبقت لنا من أقوال السيد أحمد البدوى ، نستطيع بالتأمل

فيها أن نخرج بفكرة عامة عن الأخلاق والصفات التى أرادها السيد أحمد البدوى لمريديه .

من ذلك أن السيد أحمد البدوى حدث تلاميذه ، فقال لهم انه يعجبه ما قاله حسن البصرى رضى الله تعالى عنه : صحبت الفقراء ثمانين سنة كاملة فتعلمت منهم ستة مسائل ، وهى من جواهر الحكمة : —

أولها : من لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة فى الدنيا ولا فى الآخرة .

الثانية : من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم .

الثالثة : من لم يكن عنده سخاء لم يكن له فى ماله نصيب .

الرابعة : من لم يكن عنده شفقة على عباد الله ، لم يكن له شفاعة عند الله .

الخامسة : من لم يكن عنده صبر ليس له فى الأمور سلامة .

السادسة : من لم يكن عنده تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى .

ومن حرم هذه الخصال الستة ليس له منزلة فى الجنة .

ومعنى ذلك أن السيد أحمد البدوى حرص على أن يوصى مريديه بالتحلى بالعلم والحلم والسخاء والشفقة والصبر والتقوى ، وهى صفات لو تمسك انسان فعلا بها ، لوصل الى أسمى درجات الكمال الخلقى .

وقد حكى عن السيد عبد العال — خليفة السيد أحمد البدوى — أنه خدم أستاذه أربعين سنة ، ما رآه غفل عن عبادة

الله تعالى طرفة عين . ولما سأله عن حقيقة الفقر الشرعى (التصوف) ؛ قال له السيد أحمد البدوى : ان للفقر اثنتى عشرة علامة ، لأنه روى عن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه رأى فقيرا يتمشى فى سوق البصرة وهو يتبختر فى مشيته ، فقال له الامام على رضى الله عنه : من أنت ؟ فرد قائلا : فقير . فقال له الامام : وما علامة الفقر ؟ فقال : منك يؤخذ العلم يا أبا الحسن . فقال له الامام على رضى الله عنه : للفقير اثنا عشر علامة هى :

الأولى : أن يكون عارفا بالله تعالى . الثانية : أن يكون مراعيا لأوامر الله تعالى . الثالثة أن يكون متمسكا بسنة النبى صلى الله عليه وسلم . الرابعة : أن يكون دائما على الطهارة الخامسة : أن يكون راضيا عنه الله تعالى فى كل حال . السادسة : أن يكون موقنا بما عند الله تعالى . السابعة : أن يكون آيسا مما فى أيدى الناس . الثامنة : أن يكون متحملا للأذى . التاسعة : أن يكون مبادرا لأمر الله تعالى . العاشرة : أن يكون شفوقا على الناس . الحادية عشرة : أن يكون متواضعا للناس . الثانية عشرة : أن يعلم أن الشيطان عدو له ، كما أخبر الله تعالى بقوله « الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » .

فلما سمع الفقير ذلك من الامام على رضى الله تعالى عنه ، نزع مرقعته وقال « والله لا ألبسها بعد هذا اليوم أبدا ! » .

***

قال السيد عبد العال : يا سيدى قد فهمت ذلك ، فما حقيقة التوبة النصوح ؟ قال السيد أحمد البدوى : حقيقتها الندامة على ما مضى من الذنب ، والاقلاع عن المعصية والاستغفار باللسان ، والعزم على أن لا يعود الى المعصية ، والصفاء بالقلب . فهذه التوبة النصوح التى أمر الله تعالى بها وذكرها فى كتابه العزيز فقال « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » .

قال السيد عبد العال : فقلت له : ما حقيقة الذكر ؟ قال السيد أحمد البدوى : أن يكون بالقلب ولا يكون باللسان فقط . فان الذكر باللسان دون القلب شقشقة . يا عبد العال : اذكر الله تعالى بقلب حاضر واياك والغفلة عن الله تعالى : فانها تورث القسوة فى القلب .

قال السيد عبد العال : فقلت له ما حقيقة الصبر ؟ قال السيد أحمد البدوى : الصبر هو الرضا بحكم الله تعالى ، والتسليم لأمر الله تعالى ، وأن يفرح بالمصيبة كما يفرح بالنعمة ، قال الله تعالى « وبشر الصابرين » .

قال السيد عبد العال : فقلت له يا سيدى ، قد فهمت ذلك ، فما حقيقة الزهد فى الدنيا ؟ قال : مخالفة النفس بترك الشهوات الدنوية وأن يترك سبعين بابا من الحلال مخافة أن يقع فى الحرام .

قال له السيد عبد العال : فما حقيقة الوجد ؟ فأجاب السيد أحمد البدوى : الوجد على أوجه منها أن يكثر ذكر الحق لا اله الا هو ، ومنها أن يقذف نور فى قلب الذاكر من قبل الله تعالى ،

فيقشعر منه جلده ، فيشتاق الى المحبوب لا اله الا هو ويلحقه من قبل الله تعالى الوجد .

قال السيد عبد العال : فما حقيقة التفكر ؟ قال : تفكر فى خلق الله وفى مصنوعات الله تعـــالى ، ولا تفكر فى ذات الله .

وأوصيك يا عبد العال لا تشمت بمصيبة أحد من خلق الله تعالى ، ولا تنطق بغيبة ولا نميمة ، ولا تؤذ من يؤذيك ، واعف عن من ظلمك ، وأحسن لمن أساء اليك ، وأعط من حرمك .

يا عبد العال أتدرى من هو الفقير الصادق ؟ هو الذى لا يسأل أحدا . ان أعطى شكر ، وان منع صبر ؛ صابر لأحكام الله تعالى ، عامل بالكتاب والسنة .

وهكذا وضع السيد أحمد البدوى لأتباعه دستورا قويما يضمن لهم رضاء الله ومحبة الناس واحترامهم ، لو اتبعوه وساروا على هديه .

تنظيم الطائفة الأحمدية :

لا نعرف شيئا عن تنظيم الطائفة الأحمدية فى حياة السيد أحمد البدوى ، وكل ما هنالك هو أنه قضى حياته فوق السطح على النحو الذى شرحناه ، وحوله طائفة من المريدين يقومون بخدمته ويهتدون بهديه . وأول من تظهره الروايات فى صورة المنظم لشئون الطائفة الأحمدية هو السيد أحمـــد عبد العال ــ خليفة السيد البدوى ، الذى نظم أفراد الطائفة الأحمدية فى هيئة أربعة بيوت هى [١] :

---

(١) الحلبى : النصيحة العلوية ؛ ص ٧٢ ــ ٧٥

١ ــ بيت الفقراء الكناسية الذين يكنسون المقام كل سنة فى المولد الأحمدى ، وكان شيخهم اذ ذاك هو الشيخ محمد السطوحى الكناسى ، وقد سبق أن ذكرنا كيف كان السيد أحمد البدوى يحبه محبة شديدة ، وأنه سمى بالكناس لأنه كان يكنس كل يوم مقام السيد أحمد البدوى ومقام السيد عبد القادر الجيلانى ومقام السيد أحمد الرفاعى وعدة مقامات فى المغرب ... كل ذلك فى ظرف ساعة واحدة يعود بعدها الى طنطا !

٢ ــ بيت الفقراء المنايفة ، وكان شيخهم اذ ذاك الشيخ رمضان الأشعث السطوحى ، ومن كراماته أنه كان يرسل عكازه الى ولاة الأمور مع المظلوم فتقضى حاجته . وقد حدث أن بعض الكشاف من حكام الأقاليم رد شفاعته « فطلعت له غدة فى رقبته صارت كالبطيخة ، فمات فى الحال ! » .

٣ ــ بيت الفقراء السلامية وبيت الفقراء المرازقة ، وقد أراد البعض اعتبارهما بيتا واحدا ، على أساس أن شيخهم جمعا كان الشيخ عمر الشناوى الأشعث ، جد الشيخ محمد الشناوى أما اذا اعتبرنا كلا منهما بيتا مستقلا ، فيكون عدد البيوت الأحمدية خمسة .

٤ ــ بيت الانبابية ، ولم يعرف شيخهم أيضا ، ولعله كان الشيخ يوسف الانبابى السطوحى الذى كان من أجل أصحاب السيد أحمد البدوى .

وقد وضع لهذه البيوت ترتيب معين فى جلوسها فى الموالد والمناسبات وغيرها . ويروى الحلبى أنه حدث فى وقت أن حاولت

بعض هذه البيوت الخروج عن النظام المألوف المتبع ؛ مما جعل الشيخ عبد المجيد الخليفة يصدر حجة كبيرة معتمدة منه ومن جماعة من أكابر أهل المقام الأحمدى يقول فيها : « ان السادة الأحمدية ينقسمون الى أربعة بيوت ، ولكل بيت منهم شيخ يحكم عليهم ، ولكل شيخ منهم مرتبة يجلس فيها لا يتعداها الى غيرها : فشيخ بيت السادة المنايفة يجلس وجماعته تجاهه ، ويجلس عن يمينه شيخ بيت السادة الكناسية وجماعته عن يمينه . وشيخ بيت السادة الانبابية ، وشيخ بيت السادة السلامية ، وشيخ بيت السادة المرازقة عن الميسرة ؛ على ما جرت به العادة من مدة ولايتنا ، وهى مدة تزيد على خمس وأربعين سنة على هذا الحكم . ولا أحد يتعدى على أحد . ومشروط على كل شيخ من المشايخ فى تقريره أن يمشى على ما مشى عليه من أخذ عنه ، ويجلس فى مجلسه ، فلا يتحول مما كان عليه من أخذ عنه المشيخة . وقد بلغنا أن السادة المنايفة يريدون أن يتضربوا جماعتهم (يختلطون) بين السادة الكناسية ، وهذا ما هو العادة ولا الطريقة ولا سمعناه ولا رأيناه ... وهذا شيء لا نرضاه أبدا خوفا من أن يتغير النظام الذى كان ماشيا عليه من تقدم علينا من الخلفاء الذين اقتفيت آثارهم ... فليكن ذلك على علم كل واقف عليه ، ويؤكد فى اتباعه والعمل به غاية التأكيد » .

ولا شك فى أن هذه الحجة التى ترجع الى ما بعد وفاة السيد أحمدالبدوى بنحو قرنين ونصف قرن من الزمان تعطينا فكرة عن

حرص مشايخ الطريقة الأحمدية على تنظيم الطائفة والاحتفاظ لها بروح النظام والقواعد التى تقررت لها منذ أمد .

***

وثمة ناحية أخرى تتصل بالجانب التنظيمى للطائفة الأحمدية ، هى أن المشايخ اتخذوا لأنفسهم نقباء يساعدونهم فى مهامهم . وكان سندهم فى ذلك أن اتخاذ المشايخ للنقباء له أصل فى السنة المحمدية ، بل فى السنة الموسوية . ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ نقباء من الأنصار ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقال لهم : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين ابن مريم عليه السلام ...

واشترط مشايخ الطريقة الأحمدية فى النقيب على الجماعة حسن الخلق وأن يكون مديم الذكر ، ينزل كل واحد من الاخوان مرتبته ، كثير الوداد ، جميل الصفح عن اخوانه ، لا يغضب عليهم ، ولا يؤاخذهم بما وقع منهم فى حقه ، بل يحسن اليهم ، وأن يكون ذا همة عالية ، يسأل عن اخوانه اذا غابوا ويتواضع لهم اذا حضروا ، ولا يستنكف عن الخدمة للصغير فضلا عن الكبير[1] .

على أن أهم من هذا كله أنه اشترط فى النقيب درايته بعمله ومهمته ، فتكون له معرفة بالشيخ وأهله والاخوان ، عالما

---

(١) الخفاجى : النفحات الأحمدية ؛ ص ٢١٧

بالشريعة عارفا بالطريقة . فاذا دخل على الشيخ حال جلوسه على السجادة ، فله أن يجلس على ركبتيه مستقبل القبلة ويقرأ الفاتحة ، ويهديها الى أرباب الطريق . وبعد ذلك ينظر النقيب الى الاخوان ليرى من له حاجة فيقبلها منه بالفاتحة ، الى أن تتكامل الفواتح ؛ ثم يقرأ ثلاث فواتح ؛ ويتقدم نحو الشيخ ليقرأ الفواتح ويلقى ما معه من المسائل ، ويطلب أرباب الحوائج أمام الشيخ . وبعد الانتهاء يرجع النقيب الى الجمع بثلاث خطوات ، على أن يرجع بالشمال ثم يتبع باليمين ، ويقوم بالسلام على الجمع ومن هو فيه حاضر . وفى ثانى خطوة يقول « السلام عليكم يا نجوم الزواهر » . وفى ثالث خطوة يقول « السلام عليكم يا من نورتم السرائر » .

ثم يقف النقيب فى باب الجمع ويقرأ الفاتحة للأقطاب والأنجاب والخلفاء والنقباء ورجال الله أجمعين ، ويقول : « دستوركم يا معدن الجود والفخار ، وكنز الهيبة والوقار ، ومن سادوا بالحلم والذوق والمعرفة على موج البحار ، عبدكم على بابكم وخادم تراب أعتابكم ، من افتخر على أقرانه وشاع وساد بخدمتكم وخدمة طريقة سيدى أحمد البدوى ، من ذكره فى سائر الأقطار بأنه أبو الفتيان ، وها أنذا أسئلكم أن تشملونى بنظرة بعين الرضا ، لأكون بنظركم الفالح ودعاؤكم الصالح أمتثل لخدمة الاخوان وأكون معهم بصفة رقيق أو خدام » .

وعندئذ يقول له الشيخ والخلفاء الاختيارية : بل نحن جميعا

راضون عنك ، أهلا وسهلا ومرحبا بالحبيب المقرب . ويقول الشيخ هذين البيتين : —

ومن جاءنا يا مرحبـا بقـــدومه
يجـد عنـدنا حبا صحيحا ثبوته
ومن صد عنا حسبه الصد والجفا
ومن فاتنـا يكفيـه أنا نفـوته

وعند ذلك يقرأ النقيب الفاتحة ويقول : من له حاجة فليقل « يا قاضى الحاجات أقض حوائجنا وحوائج السائلين ، بجاه نبيك صاحب المعجزات الباهرة صلى الله عليه وسلم » . فاذا سمع أهل الجمع هذا الكلام ، فان كل من له حق أو دعوى على أحد فانه يظهر نفسه ، ويقوم الى باب الجمع ويدعى على غريمه ، فيعامله الشيخ وأهل الجمع بمعاملة أهل الطريق على قدر جنايته . واذا لم تكن هناك دعوى أو طلب ، فعلى أهل الجمع أن يجاوبوه ويقولوا له : اللهم زد المحبة والمودة والصفاء بين اخواننا أهل الطريق ، وفرج عنهم كل هم وضيق . فعند ذلك يعلم النقيب أنه لا شيء الا الصـفاء بين الاخـوان ، فيقول بعـد ذلك « دستوركم يا أهل الطريق والمعرفة ، وابسطوا أياديكم يا كرام للفاتحة أم القرآن ومدوها ، وها يدى أرفعهـا معكم لحضرة سيدنا محمد (ص) سيد ولد عدنان » .

وبعد ذلك يقول : « يا أهل السماح والألسن الفصاح ، هذا الباب باب الجمع مفتوح وعليه نور يلوح ، فمن أراد الجلوس

فليجلس ومن أراد الرواح فليتوجه بالتوكل على الله سبحانه وتعالى » .

فاذا قام الشيخ عن السجادة يقرأ النقيب ثلاث فواتح ، كما حدث فى أول الأمر ، ويأتى الى السجادة ويقرأ الفاتحة ويطويها بفاتحة ويرفعها بفاتحة ، ويسير أمام الشيخ بسلام [1] .

***

ولعل فى هذا الوصف سرداً لطيفاً لنوع من التنظيم اتبعته الطائفة الأحمدية . ومنه يتضح لنا أن النقيب كان يعاون الشيخ فى مهمته وينظم لقاء شيخ الطريقة بأفرادها . ويدل هذا التنظيم فى حد ذاته على أن الطائفة الأحمدية بلغت من الاتساع وكثرة العدد ، ما جعـــل الشيخ بمفرده صار لا يستطيع النهوض بأعباء جماعته فكان لا بد له من نقباء يساعدونه فى مهمتـــه . ويذكر الخفاجى أن شيخ الطائفة كان بمثابة سلطان الجمع ، والنقيب وزير الجمع ؛ وفى هذا التشبيه ــ فى حد ذاته ــ ما يكفى للاشارة الى أن الأحمدية غدوا دولة داخل الدولة .

والواقع أن جميع الشواهد تدل على أن الطائفة الأحمدية أخذت تزداد عددا وتنمو نموا كبيرا فى سرعة فائقة ، وكان ذلك كله فى عهد خلفاء السيد أحمد البدوى .

---

(١) الخفاجى : النفحات الأحمدية ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥

خلفاء السيد أحمد البدوى :

توفى السيد أحمد البدوى يوم الثلاثاء ١٢ ربيــع الأول سنة ٦٧٥ هـ (أغسطس ١٢٧٦ م) . وقد صاحب السيد البدوى أثناء حياته فى طنطا مجموعة كبــيرة من المريدين المخلصين ، وهؤلاء كان لهم دور كبير فى الدعاية للســيد أحمد البدوى والترويج لطريقته ، بما نشروه من شائعات عن كرامات نسبوها اليه حينا والى أنفسهم أحيانا ، مما جعل الكثيرين يقبلون على الدخول فى الطريقة الأحمدية . ولا شــك فى أن الظروف التى أحاطت بعــامة الناس فى المجتمع الاســلامى فى الشرق الأدنى ــ وبخاصة فى مصر ــ عندئذ ــ كانت حافزا كبيرا على اقبال الناس على حياة التصوف ، كما سبق أن ذكرنا ، فآمن الناس بمشايخ الطرق بعد أن فقدوا كل أمل فى حياة دنيا آمنة كريمة ، ولم يبق لهم الا الأمــل فى حياة أخرى هادئة ، يعوضــون فيها ما فاتهم فى الحياة الدنيا . وهذا هو ما يقصده فولرز عندما يقول فى دائرة المعارف الاسلامية : ان السيد أحمد البدوى قد تركزت فيه شتى رغائب معاصريه وميولهم .

ثم ان تلاميذ السيد أحمد البدوى انتشروا انتشارا واسعا فى البلاد منذ حياته وبعد مماته ، ليس فقط فى مصر بل أيضا فى الشام واليمن والحجاز والعراق ... وغيرها من البــلاد ، مما ضمن لطــريقته أوتادا فى مختلف البلدان الاســلامية بالشرق الأدنى . من ذلك أن الشيخ الأنبابى ــ وهو من أجل أصحاب

السيد أحمد البدوى ــ قصد ناحية انبابة تجاه بولاق ، حيث اشتهر بها كما سبق أن ذكرنا . واتجه الشيخ خلف الى جهة قنطرة سنقر بمصر ودفن فيها ؛ والشيخ يوسف البرلسى دفن عند جهة البرلس وصارت له كرامات واسعة هناك ؛ والشيخ على البعلبكى ــ وهو من أصحاب السطح ــ دفن فى بعلبك بالشام ؛ والشيخ محمد الخرقانى دفن على ساحل النيل فى قليوب ؛ والشيخ سعدون دفن بناحية بلبيس وصارت له كرامات زائدة هناك ؛ والشيخ خليل الشامى أذن له أستاذه السيد أحمد البدوى فى الاقامة بالشام وصارت له كرامات هناك مع نائب الشام ؛ والشيخ الحبيشى دفن بمنية حبيش قرب نفيا ، والشيخ على الكروانى كان من أصحاب السطح « كانت له كرامات كثيرة فى بلاد اليمن وغيرها » ؛ والشيخ عوسج المصرى دفن فى زبيد من أرض اليمن ؛ والشيخ محمد الزعفرانى استقر بناحية طرا ؛ والشيخ عبد الله اليونانى دفن فى ناحية بعلبك بالشام ؛ والشيخ عز الدين الموصلى كان من أوائل أصحاب السيد أحمد البدوى ومات ودفن بالموصل فى العراق ؛ والشيخ بشير المدفون بباب المعلاة بمكة المكرمة ... وهؤلاء جميعا كانوا بمثابة رسل للسيد أحمد البدوى وطريقته داخل مصر وخارجها . على أننا لا نستطيع أن ننكر جهود خلفاء السيد أحمد البدوى فى التمكين لأستاذهم ولطريقته فى قلوب الناس ، ثم فى تنظيم شئون الطائفة بما يكفل لها الاستمرار والازدهار . وأول هؤلاء الخلفاء هو السيد عبد العال ــ صاحب البشت الأحمر

الذى يلبسه خليفة السيد البدوى فى المولد كل عام حتى الآن — وقد ذكرنا قصة عبد العال فى طفولته مع السيد البدوى ؛ واليه فى الواقع يرجع الفضل فى ارساء أسس كثير من نظم الطائفة الأحمدية ، وأهمها كما ذكرنا ترتيب الأشاير والبيوت . وقد وصف المستشرق فولرز السيد عبد العال بأنه « يبدو أنه كان صارما مع أتباعه » [1] ولا أستبعد أن يكون هذا الوصف صادقا الى حد بعيد ، لأنه لا بد وأن كان السيد عبد العال فى حاجة الى شيء من الحزم لضبط أمور الدولة الكبيرة التى تركها له السيد أحمد البدوى ، فضلا عن أنه كان عرضة لأن يقابل بشيء من الاستخفاف من الأتباع نظرا للفارق الكبير فى المكانة بينه وبين السيد أحمد البدوى ؛ فلم يبق الا الحزم والشدة لتثبيت أقدامه .

وكان السيد أحمد البدوى قد أشار على عبد العال ببناء زاوية له تصبح مقرا لمريديه وأتباعه ، فأتم عبد العال بناء الزاوية — التى صارت نواة للمسجد الأحمدى فيما بعد — ورتب فيها الفقراء والمريدين وخصص لهم الأطعمة والكسوات وغيرها [2] . كذلك عهد السيد أحمد البدوى الى السيد عبد العال بتنظيم أمور المريدين والعناية بهم ورعايتهم كما يتضح من قوله له : « اعلم يا ولدى عبد العال أن الفقراء كالزيتون ، وأنا زيت من لم يكن له زيت . وعليك يا ولدى بملازمة الفقراء

(١) فولرز : مادة « أحمد البدوى » فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) عبد الصمد : الجواهر ؛ ص ٥٧

وجبر خواطرهم ، وجبر خواطر أولادهم ، فوقر الكبير ، وارحم الطفل الصغير وكن أديبا [1] » .

ومن الثابت أن السيد أحمد البدوى هو الذى اختار السيد عبد العال ليخلفه ، وأنه قال له فى صراحة : « أنت الخليفة بعدنا » ، ومن ثم اكتسب السيد عبد العال مكانة خاصة عند الأحمدية نظرا لصلته الوثيقة بالسيد أحمد البدوى فى حياته من ناحية ، ولأنه اختاره خليفة له من بعده من ناحية أخرى . وليس هنالك ما ينص على أن يكون الارث الروحى وقفا على ذرية الشيوخ ، وانما المفروض والمتبع أن يرث الشيخ من تتوافر فيه أعلى صفات التقوى والكفاية من أتباعه ، فاذا توافرت هذه الصفات فى أحد أبنائه ، كان ذلك أتم وأكمل . ويبدو أن المكانة الكبيرة التى حققها السيد عبد العال لنفسه ، فضلا عن طول المدة التى قضاها فى منصبه ، جعلت خلافة الأحمدية تظل فى أسرته مدة من الزمن ، وذلك بعد أن استمرت خلافة السيد عبد العال نفسه نحوا من ثمان وخمسين سنة وهى مدة طويلة تكفى للتمكين لنفسه ولأسرته .

وكان من الطبيعى أن يحظى خلفاء السيد أحمد البدوى ــ الأوائل على الأقل ــ بجزء من خيال الرواة والكتاب ، فجعلوا لهم نصيبا من كرامات أستاذهم ، وان كانت كراماتهم طبعا لا تصل فى مستواها وقوتها الى كرامات السيد أحمد البدوى نفسه . ومما قيل عن كرامات السيد عبد العال أن شخصا راود

---

(١) الخفاجى : النفحات ؛ ص ١٧١

امرأة عن نفسها فى قبته ، فسمره ويبست أعضاؤه حتى كاد أن يموت ، ولكن بعض الفقراء سألوا سيدى عبد العال الصفح عنه ، فعاد الرجل الى طبيعته وتاب الى الله تعالى « وصار من الفقراء الملاح » ، بل صارت له بدوره كرامات مشهورة فى جميع البلاد وبين الفقراء الأحمدية !!

ومهما يكن من أمر ، فقد تولى خلافة الأحمدية بعد السيد عبد العال شقيقه زين العابدين عبد الرحمن لمدة عشرين سنة وبضعة أشهر « فعمر البيت وقصده الناس للزيارة من كل جانب وتبركوا به وأتوه بالنذور واستشفعوا به عند الحكام » . وعند وفاته خلفه شقيقه الثانى نور الدين على لمدة خمس وثلاثين سنة ؛ ثم خلف الأخير ابنه شمس الدين محمد ، ثم ابن شمس الدين محمد وهو شهاب الدين أحمد ... وهكذا تعاقب الخلفاء واحداً بعد آخر حتى اليوم .

ولم يخل الأمر من انحراف بعض أولئك الخلفاء عن الطريق السوى ؛ من ذلك مثلا ما يرويه ابن اياس فى حوادث سنة ٨٦٢ هـ ، ونصه : « وفيها مات الشيخ عبد الكريم خليفة سيدى أحمد البدوى رحمه الله تعالى ، مات قتيلا ولا يعلم من قتله ، وكان غير مشكور فى سيرته . وولى خلافة سيدى أحمد البدوى مدة طويلة ، فلما مات ولى بعده صبى من أقاربه اسمه عبد المجيد ... » [1] . ولعل فى عبارة : « صبى من أقاربه » نوع من الغمز المقصود .

---

(1) ابن اياس : بدائع الزهور ؛ حوادث سنة ٨٦٢ هـ .

وسرعان ما أصبح خليفة السيد أحمد البدوى موضع حسد الحاسدين لما غدا فيه من نعمة واسعة ، بسبب الأوقاف التى حبسها المعتقدون على مقام السيد أحمد البدوى من ناحية ، وبسبب النذور التى أخذت تنهال على خليفته من ناحية ثانية . من ذلك ما يحكيه عبد الصمد عن الشيخ عبد المجيد خليفة السيد أحمد البدوى على أيامه ــ سنة ٩٦٥ هـ ــ اذ كان طيبا صالحا جوادا ، ومع ذلك « لم يزل اخوته يخاصمونه ويشكونه الى الحكام ، والله يزيده كرما وحلما وسعة فى الرزق وصبرا على الأذى »[١] .

وبمرور الزمن أدرك سلاطين المماليك قوة نفوذ خلفاء السيد أحمد البدوى ، فصانعوهم وعملوا على اكتساب رضاهم . وفى الوقت نفسه اعتقد السلاطين فى كرامات السيد أحمد البدوى وخلفائه ، حتى ان السلطان الغورى عندما جهز للخروج الى حلب لمحاربة السلطان سليم العثمانى ، قرر أن يرافقه بعض الصالحين والزهاد على سبيل التبرك ؛ فطلب احضار خليفة السيد أحمد البدوى الى القاهرة لابلاغه بالتجهز للسفر صحبة السلطان . ويروى ابن اياس أن خليفة السيد أحمد البدوى حضر الى القاهرة سنة ٩٢٢ هـ بناء على أوامر السلطان ، وعندئذ أمره السلطان باعداد برقه (راياته وأعلامه) ليسافر معه الى حلب . ولما تعلل الخليفة وتظاهر بالضعف والمرض وعدم القدرة

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ؛ ص ٢٤

على السفر ، حنق عليه السلطان الغورى ولم يقبل عذره ، وألزمه بالسفر صحبته . وكان أن شارك خليفة السيد أحمد البدوى السلطان الغورى فى مصيره ، فقتل فى حلب بأيدى العثمانيين ، وعندئذ اختير ابنه فى خلافة السيد أحمد البدوى ، فخلع عليه السلطان طومان باى ، وقرره عوضا عن أبيه « فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وعلى رأسهم الأعلام ، وقدامه سائر الفقراء الأحمديين ... » [1]

وهكذا قويت الطائفة الأحمدية ، وازدادت عددا ومالا ونفوذا ، ولكنها لم تكن بمنجاة من تيار التدهور العام الذى جرف حياة التصوف فى مصر والذى أخذ يظهر بوضوح منذ أواخر القرن التاسع الهجرى . ولا بد لنا من وقفة قصيرة هنا لنتكلم عن حياة المتصوفة ، وما طرأ على هذه الحياة من انحرافات ، ثم صدى هذه الانحرافات فى الطائفة الأحمدية .

حياة الصوفية الخاصة :

يذكر الخفاجى أن الأصول المتفق عليها فى حياة الصوفية ستة ، وهى ليست مختصة بطريقة واحدة ، بل لعموم الطرق ، لأنها عامة مطلقة ، لكل متق من أهل الطريق ؛ وهذه الأصول هى [2] : —

أولا : الجوع اختيارا بأن لا يزيد على ثلث البطن عند

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث ٩٢٢ هـ .
(٢) الخفاجى : النفحات ؛ ص ٢٠٨

شدة الجوع ، لأن الصوفية قالوا من أعظم ما ينتج لدى معشر السالكين الجوع ، وأن الجوع أحكم حاكم للنفوس وأعظم قائد لها الى حضرة الملك القدوس . فبالجوع تنكسر النفس وتخضع وتذل ، والله تعالى عند المنكسرة قلوبهم .

ثانيا : العزلة عن الخلق الا لضرورة من طلب علم أو تدريسه للطلبة احتسابا لوجه الله تعالى .

ثالثا : الصمت ظاهرا وباطنا الا عند ذكر الله سبحانه وتعالى ، أو مطالعة علوم نافعة أو ما أشبه ذلك .

رابعا : السهر ؛ اما لذكر الله تعالى أو لمطالعة علم أو لتفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى ؛ لأن التفكر في ذلك لحظة خير من عبادة سبعين سنة . وأقله ثلث الليل الأخير الى طلوع الشمس . ومن شأن أهل الطريق ترك فضول الطعام والكلام والمنام ؛ أي الزائد عن الحاجة .

خامسا : دوام الذكر الذى لقنه له شيخه ما لا يتجاوزه الى غيره الا باذنه ، وكذا الأوراد المخصوصة بطريق شيخه ، فانها طريق الفتح .

سادسا : الشيخ المربى للمريد الذى سلك طريقه وعلم ما فيها ، لأن الشيخ الواصل هو من تواضع ووسع خلقه كثيرا من العالمين ، وحلاه الله بالبسط ، فذلك هو الشيخ النافع للمريدين ، فلا تجد عنده كبرا ولا تجبرا ولا حسدا .

هذه هى الأركان الأساسية لحياة الصوفية ؛ ومن الواضح أنها تتجه وجهة مثالية لها مدى بعيد ، مما يجعلها لا تتفق فى

كثير من اتجاهاتها مع الاتجاهات العامة لأى مجتمع يسير وفق هوى الطبيعة البشرية . لذلك كان لا بد للصوفية من توفير البيئة الملائمة والجو المناسب للحياة التى ينشـدونها ، فالفقر والجوع والعزلة والصمت والسهر لدوام الذكر والارتباط بشيخ معين .... كل هذه نواح تحتاج الى أن يبحث الصوفية لأنفسهم عن أماكن خاصة يعيشون فيها حياتهم المثالية فى نظرهم ، بعيدا عن المجتمع العادى الذى لا يمكن أن ينسجم معهم وينسجموا معه فى سهولة .

وكان أن شيد الصوفية لأنفسهم بيوتا أطلق عليها خوانق وربط وزوايا . والخانقاه لفظ مأخوذ عن الفارسية معناه البيت الذى ينزل فيه الصوفية ؛ وقال البعض أنها سميت الخانقـاه من « الخنق » لتضييقهم على أنفسهم [1] . أما الرباط فهو فى الأصل البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود ويرابط به جمـاعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفع خطرهم . وكان أهل الرباط أو المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية ، حتى ضعف خطر المسيحية على الاسلام فى المشرق ، وعندئذ أخذ الرباط يفقد طابعه الحربى وتغلبت عليه الصفة الدينية . ولم يلبث انتشار التصوف أن خـلق مبررا لبقاء الربط ، فتحـولت الى دور للمتصوفة وبالتالى أصبح الرباط يطلق على المكان الذى ينزل فيه الصوفية [2] . ويبدو لنا مما كتبه كتاب عصر المماليك أن الرباط

---

(١) الشعرانى : لواقح الأنوار ؛ جـ ٢ ص ٤٢

(٢) مارسيه : مادة « رباط » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ؛ جـ ٤ ص ٢٧٦

غلبت عليه صفة الملجأ ، فقد ذكر المقريزى أن بيبرس الجاشنكير بنى رباطا قرر به مائة من الجند وأبناء الناس « الذين قعد بهم الوقت » [٣] . كذلك نفهم أن الغرض الأساسى من بناء الربط الخاصة بالنساء فى ذلك العصر هو أن تكون « كالمودع للنساء الأرامل » . ووصف المقريزى بعض هذه الربط الخاصة بالنساء بشدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات « حتى ان خادمة الفقيرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق بيزبوز ، وتؤدب من خرجت عن الطريق بما تراه » [١] .

وأما الزاوية ، فقصد بها فى الأصل مبنى أو مسجد صغير للصلاة والعبادة ، وما زالت بعض المساجد الصغيرة فى مصر حتى اليوم يطلق عليها اسم زوايا . ولكن لفظ زاوية تطور معناه فى المغرب الاسلامى فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية [٢] .

وهكذا نجد أن الخانقاه والرباط والزاوية تشابهت معانيها فى مصر منذ عصر المماليك ، بحيث لم يستطع المعاصرون التفرقة بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة . فابن الحاج يقول ان الرباط هو المسمى فى عرف العجم خانقاه . وابن بطوطة يقول ان الخانقاه هى الزاوية ، وأن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق [٣] . أما المقريزى ، فقد فرق فى خططه بين الخوانق والربط والزوايا ، وذكر كل نوع فى قائمة مستقلة خاصة به ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤

(٢) بروفنسال : مادة « زاوية » فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) ابن الحاج : المدخل ، جـ ٣ ص ١٨٥ ـ ورحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ص ٧١

ولكنه فى تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد هو أنها كانت جميعا « بيت الصوفية ومنزلهم » .

ومع اشتداد تيار التصوف ، ازداد عدد الزوايا التى شيدها المحسنون من القادرين والأمراء والسلاطين ، الذين اعتقدوا فى الصوفية ، حتى قال ابن بطوطة عن أمراء مصر فى القرن الثامن الهجرى انهم « يتنافسون فى بناء الزوايا » . فاذا تم بناء احدى الزوايا افتتحها السلطان أو بعض كبار الأمراء فى حفـل كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية . وجرت العادة أن يعين لكل زاوية أو خانقاه شيخ ، يشترط فيه أن يكون « من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشـايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة » [1] . وتمتعت معظم الخانقاوات بأوقاف يصرف عليها من ايرادها ؛ وكثيرا ما نصت شروط الوقف على تقديم الأفقر والأحوج للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتى الفقراء المغتربون . كذلك كان يفضل الأعزب على المتزوج للمبيت فى الخلاوى حتى يكون منقطعا للعبادة متفرغا لها .

كذلك حرصـت معظم الحجج الشرعية الخاصـة بأوقاف الزوايا ــ والتى استطعنا الرجوع اليها ــ على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية للعبادة وعدم تغيبهم عن الخانقاه أكثر من ثلاثة أيام فى الشهر الواحد « لا يقطع لهم فيها معلوم ، وان غاب الصوفى أكثر منها قطع معلومه ووفر للخانقاه » [2] . ولم

---

(١) انظر حجة وقف بيبرس الجاشنكير (أرشيف المحكمة الشرعية : ٢٢)
(٢) حجة وقف الأشرف برسباى (دار الكتب المصرية) .

يكن من مصلحة أهل الزاوية أن يزداد عـــددهم لأن الوقف الموقوف عليها ثابت ، فتؤدى زيادة العدد الى انخفاض مستوى معيشة أهل الزاوية [١] . كذلك ظهرت عصبية طائفية بين صوفية الزوايا المختلفة ، بمعنى أن المريد الذى ينتقل من زاوية الى أخرى يتهم بأنه أراد الدنيا ولم يرد الدين ، وذلك لاختلاف الزوايا فى ليونة العيش باختلاف الأوقاف الموقوفة عليها وأقدار أشياخها . وقد رأينا ما كان من أمر الشيخ يوسف الأنبابى الذى كان من أقرب أصحاب السيد أحمد البدوى ، فذهب الى ناحية انبابة واستقر بها ، حيث اعتقد فيه الأمراء وعملوا له الموالد العظام ، وأنفقوا على زاويته الأموال . فلما قصده الشيخ أبو طرطور ــ وهو أيضا من صـــحابة السيد أحمد البـــدوى ــ لزيارته والتفتيش عليه ، « قدم له طعاما فاخرا من حلوى وغيرها ، وقال له يا أبا طرطور من هذه الماوردية واغسل بها غش البسلة والعدس الذى كنت تأكله فى مقام سيدى أحمد !! » .

ويتضح من دراسة نظم الخانقاوات أن كلا منها كونت وحدة قائمة بنفسها ، ويداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية ، وألحق بالخانقاه حمام ومطبخ . وقد ألحق كذلك ببعض الخانقاوات خزانة للأشربة والأدوية ، وعين بحمامها حلاق لتدليك الأبدان وحلق الرؤوس ، كما نصت حجة وقف الغورى على تخصيص طبيب يتقاضى خمسمائة درهم شهريا « يتفقد

---

(١) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ؛ جـ ١ ص ١٠٧

مرضى الصوفية ويصف لكل منهم ما يناسبه من الأدوية ويحسن علاجه » [1] .

وكان للصوفية فى معيشتهم داخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية ، فقسم بعض مشايخ الخوانق مريديهم من الصوفية ثلاثة أقسام : كهول وشباب وأطفال ، وجعلوا لكل فئة قسما خاصا ، بحيث لا يختلط أهله بغيرهم ، ولا يجتمعون الا يوما واحدا فى الأسبوع ليتناقشوا فيما وقع بينهم طوال الأسبوع . ذلك أنه أخذ عليهم العهد ألا يثأر أحدهم لنفسه اذا اعتدى عليه زميله ، بل يعفو عنه ويشكو للشيخ ، فيفعل فيه ما يشاء . وقد بلغ بهم الأمر أن الصوفى اذا جاءه أبوه أو أخوه من البلاد بعد غيبة طويلة ، فانه يراه ، ولكنه لا يستطيع أن يسلم عليه حتى يشاور النقيب [1] . كذلك أفاض ابن بطوطة فى وصف معيشة أهل الزوايا بمصر ، وقال : « ان ترتيب أمورهم عجيب ! » ففى الصباح يأتى خادم الزاوية الى الفقراء فيعين له كل واحد ما يشتهيه من طعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل واحد خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان فى اليوم . وكان معظم الصوفية أعزاب ، وللمتزوجين منهم زوايا خاصة بهم ، واشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية . ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به [2] ...

---

(١) حجة وقف السلطان الغورى (أرشيف وزارة الأوقاف ـ ٨٨٣) .

(٢) الشعرانى : لواقع الانوار ؛ جـ ٢ ص ١٢٠ ـ ١٢١

(٣) رحلة ابن بطوطة ؛ جـ ١ ص ٧١ ـ ٧٢

انحراف الصوفية :

هذه هى الحياة الصوفية السليمة ، بما فيها من مثل واتجاهات قويمة . غير أن انحلال أحوال البلاد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا فى أواخر عصر المماليك أدى الى انحراف الصوفية ، وتحول حياة التصوف عن مثلها الى حياة مليئة بالمفاسد والرذائل الخلقية . وبعبارة أخرى فقد تخلى الصوفية عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس ، فاختلت أوضاعهم وازداد عبثهم ، وصاروا موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء . من ذلك أن أذكارهم غدت بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ، ومن ثم سميت السماعات . ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات « فاذا دب معه « المتصوف » الطرب قليلا ، حرك رأسه ، كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء ، ثم اذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره ، فيقوم ويرقص ، ويعيط وينادى ويبكى ... ويدخل ويخرج ، ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها ، ويخرج الرغوة أى الزبد من فيه ، وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته [1] » ...

كذلك أنشأمشايخ الخانقاوات يمدون الأسمطة الفاخرة ، ويجمعون فى مجالسهم « الأراذل وأصحاب المغانى والملاهى [2] » .

---

(١) ابن الحاج : المدخل ؛ جـ ٢ ص ٢ ــ ٦

(٢) العينى : عقد الجمان ؛ حوادث سنة ٨٠٢ هـ .

ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها فى اللهو والخمر مع التجاهر بذلك ! بل ان بعضهم بالشرقية استحضر المرد فى مجالسهم، وزينوهم بالحلى والصبغات ، وزعموا أنهم انما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله « والاستدلال بالصنعة على الصانع ! » ولم يلبث أن انتشر تعاطى الحشيش بين الصوفية ، حتى نسب اليهم ، وأصبح يعرف باسم « حشيشة الفقراء » . وقد استنكر كثيرون ذلك الوضع الذى آل اليه أمر الصوفية ، ومما قيل فى ذلك[1] :

صوفية أحدثوا فى ديننا لعبا
وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
من اقتدى بهم قد ضل مثلهم
سحقا لمذهبهم ولو كان من ذهب
أهل المراقص لا تأخذ بمذهبهم
فقد تمادوا على التمويه والكذب

أما المقريزى فقد وصف الصوفية على أيامه — أى فى القرن التاسع الهجرى — بأنهم « لا ينسبون الى علم ولا ديانة والى الله المشتكى ! » .

ثم كان أن ازداد الوضع سوءا فى العصر العثمانى ، وهو العصر الذى تعرض فيه المصريون لنكبات جمة عكست صورتها فى المجتمع . ذلك أنه انتمى الى التصوف فى ذلك العصر كثير

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ؛ ص ٢٢٠

من الأدعياء ممن لا يوصفون بعلم أو دين ، حتى ان الشعراني يذكر أنه تتلمذ على سبعين شيخا لا يعرف أحدهم النحو [1] . وأدهى من هذا وأمر أن الصوفية استهانوا بشعائر الدين وأصوله ، فأعرضوا عن الصلاة بدعوى أنهم يؤدونها فى الأماكن المقدسة ، كما أهملوا الصيام ، وأوهموا الناس أن التكاليف الدينية تسقط عن كل واصل [2] ! . ولا أدل على استهانتهم بشعائر الدين من أن بعضهم ـ مثل الشيخ تاج الدين الذاكر ـ كان يمكث بوضوء واحد سبعة أيام ، امتدت أواخر عمره الى احد عشر يوما !! بل ان الشيخ أبو السعود الجارحى كان يتوضأ فى أول رمضان فلا يعيد الوضوء الا بعد العيد بستة أيام !! [3] . ثم بلغ أمر الاستهانة بالدين أن يلجأ المتصوفة الى اختلاق كلام عديم المعنى يزعمون أنه قرآن ، فيحكى الشعرانى أن الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس فى المسجد أيام الجمع ويقرأ « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ، وما لنا من ناصرين » . كل ذلك دون أن يجرؤ أحد الناس على الاعتراض عليه ، بل كانوا يعتقدون فيه « ويعدون رؤيته عيدا عندهم !! » . أما الشيخ ابراهيم العريان فكان يصعد الى منبر المسجد عاريا ويخطب فى الناس قائلا : « السلطان ودمياط وباب اللوق

---

(١) الشعرانى : البحر المورود ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤

(٢) توفيق الطويل : الشعرانى ، ص ٩

(٣) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١١٣ ، ١٢٤

وبين الصورين وجامع طولون والحمـد لله رب العالمين !! »
فيخشع الناس لكلامه ، ويحصل لهم « بسط عظيم !! » [1] .

واذا كان هذا هو موقف الصوفية من مبادىء الدين ، فلا ينتظر منهم عندئذ أية رعاية لأبسط قواعد الأخلاق ، فاستباحوا لأنفسهم المحرمات على مرأى من الناس ، ومارسوا الزنا والخدر واللواط والميسر والحشيش دون أن يخشوا لومة لائم . ويبدو أن عامة الناس أصابهم الرعب تحت تأثير الجهل وما أشيع عن الصوفية من كرامات كفيلة بأن تسحق من يتعرض لهم بقول أو فعل ، فتركوا الصوفية يمارسون حياتهم المنحرفة على مرأى منهم ، بل ربما بحثوا عن مبررات يبررون بها سلوكهم الشاذ . واستمرت هـذه الأوضاع طويلا حتى القـرن التاسع عشر للميلاد ، مما جعـل الجبرتى يقول فى المصريين وتقـديسهم للمشايخ :

بعضهم قبّل الضريح وبعض عتب البـاب قبلوه وتربا
هـكذا المشركون تفعل مع أصـنامهم تبتغى بذلك قربا

وزاد الطين بلة ، أن بعض الصـوفية تطرفوا فى أقوالهم وأفعالهم ، فنشأت عن ذلك طوائف المجـاذيب أو الدراويش الذين اشتهروا بأفعال غريبة زعموا أنها من الدين ، وما هى من الدين فى شىء ، ولكن « العاقل من عرف زمانه » على قول الشعرانى . وشهد الرحالة بيروتافور الذى زار مصر فى أواخر

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ١٦٠ ، ١٢٤

عصر المماليك جماعة من هؤلاء الدراويش فى مصر وقد حلقوا رؤسهم ولحاهم وشعر الحواجب ، كما أزالوا رموش أعينهم « فبدوا فى صورة مزعجة تشبه المجانين ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة » [1] . ومن أفعال ذلك النفر من الصوفية أن يركب الواحد منهم فى قفص على رأس حمال ويتعمم « بشرطوط طويل جدا » ويعاشر سفلة القوم ، ويزعم أن ذلك من الدين . ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة بعد أن يصور لها وجها وعينين وأنفا وفماً ويمسك بيده شيئا كأنه سوط ويربط الجريدة بخيط كأنه لجام ، ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة وهو يضرب دابته والناس يعتقدون فى بركته ! [2] . وقد أشار ابن خلدون الى هذه الطائفة من الصوفية بقوله : « ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين » [3] .

وكان أن استرعت هذه الأوضاع أنظار الفرنسيين وقت الحملة الفرنسية على مصر ، فأرسل سارى عسكر — وهو كليبر لأن بونابرت كان قد غادر البلاد الى وطنه — يسأل علماء المصريين ومشايخهم عن أولئك الذين يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية ،

---

(1) Tafur : Travels, P.71.

(٢) السخاوى : الذيل على رفع الاصر عن قضاة مصر ، ص ٢٧

(٣) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٢٤ — ١٢٥

ولا يصلون ولا يصومون ، ومع ذلك تعتقدهم العامة . سألهم كليبر : « هذا جائز عندكم فى دينكم أو محرم ؟ » . فأجاب مشايخ المسلمين وعلماؤهم : « ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعتنا وسنتنا ! » فشكرهم كليبر على ذلك ، وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك «فان كان مجنونا ربط بالمارستان ، أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد [1] » .

ولكن هيهات أن يتخلى عامة الناس عن عقائدهم فى سهولة ، وبخاصة فى بلد فشا فيه الجهل وعمه التأخر والركود . وهكذا استمر أولئك الذين يدعون المشيخة فى غيهم وعبثهم ، وشجعهم الناس بالاعتقاد فيهم . ولا نريد أن نتتبع هذه الظاهرة الخطيرة التى ما زالت بعض آثارها باقية ضعيفة حتى اليوم فى أجزاء من مجتمعنا ؛ وانما يكفى أن أختتم الكلام عن هذه الظاهرة بقصة طريفة رواها الجبرتى وحدثت فى القاهرة على أيام محمد على الكبير . ذلك أنه وجدت فى القاهرة عندئذ ـــ أى فى مستهل القرن التاسع عشر للميلاد ـــ امرأة يقال لها الشيخة رقية ، كانت تلبس مئزرا أبيض وبيدها عصا من الخيزران ، وبيدها الأخرى مسبحة طويلة ، وتطوف بهذه الصورة على بيوت الأعيان . وقد اعتقد فيها نساء الأكابر الصلاح والتقوى وكانت تدخل البيوت وتخلو بهن ويسألنها الدعاء لهن ، بل لقد اعتقد الرجال وبعض الفقهاء فى صلاحها وبركتها ... وكان أن توفيت

---

(1) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ١٤١

الشيخة رقية ، فحزن الناس ، وعم القاهرة حزن عميق على وفاة تلك الشيخة الصالحة ، وأخذ الناس يتحـدثون عن بركتها وكراماتها . ولنترك الجبرتى يعبر بقلمه عن المفاجأة التى حدثت بعد ذلك ، اذ أنهم « لما أرادوا غسلها رأوا شيئا معجرما بين أفخاذها ، فظنوه صرة دراهم ، واذا هو آلة الرجال : الخصيتان والذى فوقهما !! » . وفى جيب الشيخة رقية وجدوا ملقطا وبعض الأدوات تحفف بها شعر وجهها لتبدو دائما فى صورة المرأة ... الصالحة [1] . هذه هى رواية الجبرتى ـ وهو معاصر وشاهد عيان ـ وترك التعليق على هـذه القصة للقارىء وحده .

على أنه اذا كانت غالبية الصوفية منذ أواخر عصر سلاطين المماليك قد انحرفت عن جادة الصواب ، فانه ينبغى أن نذكر دائما أن هناك قلة منهم حافظت على صلاحها ومبادئها المثالية النقية ، وهؤلاء ظلت زواياهم « مراكز للعبادة والتثقيف وتطهير القلوب وتنقية الضمائر ، وتهيئة النفوس بعد تصفيتها لاذاعة الخير والمعروف [2] » .

* * *

وفيما يتعلق ببحثنا فاننا نرى أن فقراء الطائفة الأحمدية غلب عليهم فى أول أمرهم ـ مثل غيرهم من فقراء الطوائف الأخرى ـ طابع الاستقامة والصلاح ، وعاشوا نفس الحياة المثالية التى

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٤ ص ٢٩٢ (طبعة بولاق) .
(٢) توفيق الطويل : الشعرانى وعصره ص ١٠ ، التصوف فى مصر ص ١١٦

عاشها غيرهم من الصوفية فى أول أمرهم والتى تكلمنا عنها .
ثم حدث أن اشتد تيار الفساد ، فجرف فى طريقه كثيرا من زوايا وفقراء الأحمدية ، مثلما جرف غيرهم من طوائف الفقراء .

ويبدو أن الفساد تطرق الى الطائفة الأحمدية فى وقت مبكر يرجع الى أوائل القرن الثامن للهجرة . من ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة خمس وسبعمائة (١٣٠١ م) ونصه ، « وفيها أظهر ابن تيمية (شيخ الاسلام تقى الدين أحمد ، خطيب المسجد الأموى) الانكار على الفقراء الأحمـــدية ، فيما يفعلونه من دخولهم فى النيران المشتعلة ، وأكلهم الحيات ، ولبسهم الأطواق الحديد فى أعناقهم ، وتقلدهم بالسلاسل فى مناكبهم ، وعمل الأساور الحديد فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها . قام فى ذلك (ابن تيمية) قياما عظيما فى دمشق ، وحضر فى جماعة الى النائب ، وعرفه أن هذه الطائفة مبتدعة . فجمع له ولهم الناس من أهل العلم ، فكان يوما مشـــهودا ، كادت أن تقوم فيه فتنة ، واستقر الأمر على العمل بحكم الشرع ، ونزعهم هذه الهيئات ... » [١] .

هذا ما ذكره المقريزى بالحرف الواحد . ونخرج من هذا النص بعدة نتائج : أولها أنه لم يكد يمض على وفاة السيد أحمد البدوى ثلاثون عاما حتى كان للفقراء الأحمدية نفوذ كبير فى المجتمع الاسلامى فى الشرق الأدنى . وثانيها أن الانحلال أخذ يتطرق الى هذه الطائفة منذ وقت مبكر بحيث انتشرت بين أفرادها

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ٢ ص ١٦

البدع والخرافات . وثالثها : أن الطريق كان واحدا ومتشابها عندما فسدت ضمائر الصــوفية ، بحيث أن الأحمدية فعلوا ما فعلته الرفاعية من أكل الحيات والامساك بالنار المشتعلة ... ورابعها : أنه منذ أوائل القرن الثامن للهجرة وجد من الناس من أدرك فساد هذه البدع وخطورتها على الدين واستعانوا بالحكام فى تطهير المجتمع من شرورها .

واذا كان السلطان الظاهــر جقمق قد أبطل مولد السيد أحمد البدوى ، فان المؤرخ أبا المحاسن يحدثنا أن هذا السلطان بالذات أشتد فى منع الصوفية من عمل «مالايجوز فى زواياهم » [1] وفى هذا الربط اشارة واضحة الى أنه لا بد وأن يكون السلطان جقمق قد وقف على أمور مخلة بالآداب أو بالدين جعلته يتخذ قراره السابق . واذا كنا نسمع عن مشايخ الطريقة الأحمدية فى أول الأمر أنهم كانوا يجمعون بين الدين والعقل والزهد والحرص على تعاليم رائدهم السيد أحمد البدوى ، فاننا نجد مشيخة الطائفة الأحمدية فى القرن العاشر الهجرى وقد تولاها أطفال دون العشر السنوات من العمر مثل الأخوين برهان الدين ابراهيم الأسمر وشمس الدين محمد الأبيض .

ويبدو أن الأحمدية منذ القرن الثامن الهجرى لم يسلموا من نقد الناقدين . ومن المآخذ التى أخذت عليهم أنهم « يأخذون العهد على النسوان ، ويصير أحدهم يختلى بهن فى غيبة أزواجهن وتقول له يا أبى ويقول لها يا بنتى ... !! » . كذلك اشتهر فقراء

---

(١) أبو المحاسن : حوادث الدهور ، سنة ٨٥٢ هـ (طبعة كاليفورنيا) .

الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللائى يأخذن العهد عليهم ، حتى خصهم الشعرانى بالذكر فى معرض الحديث عن وقائع الزنا التى تحدث من جراء اختلاط الجنسين [1] . ومما أخذ على الأحمدية أيضا الضرب بالدف عند الذكر ... وغير ذلك من المآخذ التى حاول الحلبى أن يرد عليها ويبررها [2] . ولا نريد هنا أن نتعرض لدفاع الحلبى بالتأييد أو التفنيد ، وانما يكفى أن نشير الى أن مجرد الحرص على هذا الدفاع يوحى بأن هناك أوضاعا رآها البعض خاطئة واستحقت نوعا من التبرير والدفاع عنها من أنصار الطريقة .

* * *

والواقع أنه لا يوجد ثمة مبرر يجعلنا نستثنى فقراء الأحمدية من الانحراف العام الذى شمل الطرق الصوفية منذ أواخر القرن الثامن ، واستمر بعد ذلك طوال عدة قرون تالية . ويمكن لمن يتتبع هذه الظاهرة فى الكتب المعاصرة أن يجد اسم الأحمدية ضمن أسماء بقية الطوائف التى عمت الشكوى من انحرافها وأفعالها . فالجبرتى يحكى أنه حدث فى سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٩م) أن « مات الامام الولى الصالح سيدى على البيومى الأحمدى ... أخذ طريق الأحمدية عن جماعة ، ثم حدث له جذب ومالت اليه القلوب ، وصار للناس فيه اعتقاد كثير ... » ، وبعد أن يتحدث

---

(١) توفيق الطويل : التصوف فى مصر ، ص ٨١ ـ الشعرانى : العهود المحمدية ، ص ١٨٠

(٢) الحلبى : النصيحة العلوية ، ص ٨٠ وما بعدها .

الجبرتى عن أفعاله هو وجماعته ، واجتماعهم فى المشهد الحسينى كل يوم ثلاثاء فى صورة غير كريمة ، يقول « قامت عليه العلماء وأنكروا ما يحصل من التلوث فى الجامع من أقدام جماعته ، اذ غالبهم كانوا يأتون حفاة يرفعون أصواتهم بالشدة ... » ثم يتكلم الجبرتى عن أقوال وأفعال ذلك الشيخ الأحمدى فيذكر ما نصه « وكان يقول من منن الله علىّ وكرمه أنى رأيت الشيخ دمرداش فى السماء ، وكنت أرى النبى صلى الله عليه وسلم فى الخلوة ... وأخذنى الشيخ الكردى وأوصلنى الى مكة وأرانيها عيانا ، ودخلت على السيد أحمد البدوى وعنده النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان سبب ذلك التردد فى نزولى مولده ، فأغنانى الله بعد ذلك ببركة النبى . وكان قبل ألبسنى الزى الأحمر مرتين ، مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح ... » [1] .

ومرة أخرى يحكى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢٥ هى (أى فى عصر محمد على ، ١٨١٠ م) أن عثمان أغا المتولى أغات مستحفظان أراد أن يحتفل بتجديد مشهد الرأس — وهو رأس زيد بن على زين العابدين — « فأرسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفين بالأشاير ، وهم السوقة وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين ، كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية ونحو ذلك ، فاجتمعوا بأنواع الطبول والمزامير والبيارق والأعلام والشراميط والخرق الملونة والمصبغة ، ولهم أنواع من الصياح والنباح والجلبة والصراخ الهائل ، حتى ملأوا النواحى

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

والأســواق واتنظموا وســاروا وهم يصــيحون ويترددون ويتجاوبون بالصــلوات والآيات التى يحــرفونها ، وأنواع التوسلات ، ومناداة أشياخهم المنتسبين اليهم بأسمائهم كقولهم يا هو يا هو يا جباوى ويا بدوى ... » [1] .

أما عن الثروة الضخمة التى جمعها مشايخ الطريقة الأحمدية والمنتسبون اليها ، وخاصة خدام الضريح الأحمــدى بطنطا ، فيحكى الجبرتى كذلك عنــد كلامه عن على بك الكبير سنة ١١٨٧ هـ أن القائمين على سدانة الضريح الأحمدى كانوا أولاد سعد الخادم ، فعزلهم على بك الكبير لسوء سيرتهم وظلمهم « وأخذ ما أمكنه أخذه من مالهم وهو شىء كثير » [2] . ويبدو أن أولاد الخادم عادوا بعد وفاة على بك الكبير الى ســدانة السيد أحمد البدوى ، بدليل أن الجبرتى يصفهم عند كلامه عن الحمــلة الفرنسية بأنهم « متهمون بكثرة الأموال من قــديم الزمان » . وكان أن قبض عليهم الفرنســيون أكثر من مرة وأخذوا منهم أموالا طائلة تقــدر بآلاف الريالات « خلاف الأغنام والكلف » [3] . وهذه الثروة الطائلة التى جمعها سدنة ضريح السيد أحمد البدوى انما هى دليل على الانحراف ، لأنها تدل على مدى اســتغلالهم وظيفتهم فى الاثراء . ثم أين هى مبادىء السيد أحمد البدوى فى الزهد والفقر ؟ أليس الفقــر شعار الصالحين ؟؟ .

---

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٢٠

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٣٨٢

(١) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ١١١ – ١١٢

الفصل السادس

مولد السيد

ومن عاش بعدي سوف يشهد مولدا
به تجمـــع الأضـــداد له مثـــل
وتأتي له الزوار مـــن كل وجهـــة
رجالا وركبـــانا كـــأنهم غـــل

مدينة طنطا والسيد البدوى :

أشرنا من قبل الى أن السيد أحمد البدوى رضى الله عنه وفق توفيقا كبيرا فى اختيار طنطا مستقرا ومقاما له ، فهـذا الموقع بالذات يعتبر صرة الدلتا ، ومركز النشاط الاقتصادى فيها ، كما يصلح لأن يكون مركز الاشعاع الفكرى والروحى لأية حركة فكرية أو روحية تستـقر فيها . والى ميزة الموقع الجغرافى يرجع ــ فى رأينا ــ الجزء الأكبر من النجاح الذى أصابه الأحمدية فى نشر طريقتهم ، واستمالة كثيرين الى الدخول تحت رايتهم .

وقد ظهرت الميزات الفريدة لموقع طنطا فى العصور القديمة السابقة للاسـلام ، اذ ورد فى تاريخ بطاركة الاسكندرية أن طنطا كانت فى العصر المسيحى مركزا لأسقفية كبيرة ، وأن اسمها القبطى القديم كان طنيطاد . ولعل الأسـباب التى أملت على رجال الكنيسة القبطية اختيار طنطـا بالذات مركزا لأسقفية كبرى فى وسط الدلتا ، هى نفس الأسباب التى جعلت السيد أحمد البدوى رضى الله عنه يقصد طنطا مباشرة عقب مغادرته مكة ، ويختارها موضعا مختارا لدعوته . وقد سبق أن أوضحنا أننا لا نميل أبدا الى الاعتقاد بأن اختيار السيد أحمد البدوى لطنطا جاء من قبيل المصادفات ، وانمـا الرأى عندنا أن هـذا الاختيار قام على أسس وسوابق لا يمكن اغفالهـا . وبعبارة

أخرى فان السيد أحمد البدوى عرف كيف يختار الموقع الاستراتيجى الممتاز الذى حقق له ولطريقته نصرا مؤزرا ، وضمن له الزعامة على عديد الأولياء والمشايخ الذين تقاسموا البلاد عندئذ على شكل مناطق نفوذ كبيرة واسعة .

ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن طنطا عند نزول السيد أحمد البدوى بها فى القرن السابع الهجرى كانت قرية صغيرة مهملة . ولا ندرى السر فى ذلك بعد أن علمنا أنها كانت مركزا لأسقفية ، وبالتالى فقد كان لها شأن قبل الاسلام . وربما أدى كونها مركزا كبيرا للكنيسة القبطية فى وسط الدلتا قبل الاسلام الى نفور المسلمين منها ، مما عرضها فى العصر الاسلامى للاهمال والذبول .

والى السيد أحمد البدوى بالذات يرجع الفضل فى احياء طنطا ، وتحويلها من قرية صغيرة حقيرة الى مدينة ضخمة كبيرة ، تعتبر اليوم قصبة الدلتا ، لا قصبة الغربية وحدها . ومهما يقال من أن طنطا اليوم على جانب كبير من الأهمية نظرا لأنها ملتقى شبكة خطوط السكك الحديدية فى الدلتا ، أو أنها مركز اقتصادى كبير لتسويق القطن وصناعة منتجاته من زيوت وصابون ... فان كل ذلك مرتبط بالسيد أحمد البدوى ارتباط تنيجة بسبب . وكان من الممكن اتخاذ بلدة أخرى مجاورة ــ مثل سخا ــ مركزا للمواصلات والطرق البرية ، ونقطة تلتقى فيها شبكة خطوط السكك الحديدية ، وسوقا لتسويق محاصيل دلتا النيل ... ولكن شاء سوء حظ سخا أن السيد أحمد

البدوى لم يتجه اليها واتجه الى طنطا بالذات . بل ان سخا على عصر السيد أحمد البدوى ــ أى فى القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى ــ كانت أكبر مدن الغربية وبها دار الوالى ، كما ذكر ياقوت الحموى [1] . ولكن اقامة السيد أحمد البدوى فى طنطا جعل هذه القرية تتنفس وتنتعش وتنمو على حساب سخا ! ومن يدرى ، فربما كانت اقامة والى الغربية فى سخا سببا فى نفور السيد أحمد البدوى منها ، لأنه أراد أن يقيم فى بلد يكون هو السلطان فيه ، ولا سلطان فوقه ، وبذلك ينمو نفوذه دون أن يتعرض فى أدواره الأولى لضغط أو رقابة من جانب رجال الادارة والحكم .

وهكذا أخذت طندتا ــ أو كما أسماها العامة طنطا ــ تنمو فى سرعة مذهلة ، فكثر النازحون اليها ، والراغبون فى الاقامة فيها . وهل هناك من لا يرغب فى أن يعيش ويموت بجوار السيد أحمد البدوى صاحب المدد العظيم والكرامات المشهورة ؟ ثم جاءت الموالد الأحمدية كل سنة لتجعل من طنطا قبلة أخرى ، ومن مقام السيد أحمد البدوى كعبة جديدة ، يؤمها المريدون والمعتقدون وطلاب الحاجات من مختلف الأنحاء ، لا أنحاء مصر

(1) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ، جـ ٣ ص ١٩٦ (طبعة بيروت) . وجدير بالذكر أن سخا كانت عاصمة الغربية منذ العصور القديمة . وقد أفاض بطليموس فى الكلام عنها وأهميتها ، وكان اسمها عندئذ اكزويس **Xois** . انظر :
John Ball, Egypt in the Classical Geographers, ps. 109, 123,167—168.

فحسب ، بل أنحاء كثير من البلاد الاسلامية . وحسبنا فى هذا الموضع أن نستشهد بما ذكره السخاوى بالحرف الواحد « جاء الحجاج هذه السنة لسيدى أحمد البدوى من الشام وحلب ومكة أكثر من حجاج الحرمين !! » [١] . ثم ان هؤلاء الزوار والمقيمين كانوا فى حاجة الى من يقوم بخدمتهم وتوفير أسباب الاقامة لهم ، من تجار وصناع وأرباب حرف ... الأمر الذى جعل طنطا تتضخم بسرعة مذهلة لتتحول من قرية صغيرة الى مدينة كبيرة فى مدى عدة أجيال ، وذلك بفضل وجود السيد البدوى .

على أن الملاحظ أن طنطا ــ شأنها شأن كافة مدن العصور الوسطى لم تتسع وتنمو على أساس مخطط مدروس ، وانما كانت المبانى تقام حيثما اتفق وكيفما اتفق ، الأمر الذى جعل على باشا مبارك يصفها فى القرن التاسع عشر للميلاد بأنها « عديمة النظام ضيقة الحارات ، غير محكمة البناء ، كثيرة العفونات والرطوبات بسبب عدم تمكن الهواء والشمس من الدخول خلالها ، فلذا كانت كل سنة تكثر بها الأمراض ويتراكم فيها الوخم ، بعد الفراغ من الموالد وفى أثنائها ... » [٢] . ثم يذكر على مبارك أن أمر طنطا ظل على ذلك الوضع حتى كان عهد الخديو اسماعيل ، فشمل طنطا بعنايته « وأمر باجراء

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ١٧٦

(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٣ ص ٤٥ ــ ٤٦ (طبعة بولاق) .

التنظيمات فيها ، بتوسيعه الحارات وفتح الشوارع المستقيمة ، ورتب لها مهندس تنظيم وحكيم صحة ، وفتحت فيها عدة شوارع وحارات ذات اتساع واعتدال ... فحسن حالها وازدادت الرغبة فى سكناها ... حتى صار عدد أهلها كثيرا وكثرت فيها أنواع المتاجر » .

وكانت توجد غربى طنطا عندئذ أرض فضاء واسعة تابعة لديوان الأوقاف ، فصدرت الأوامر بتقسيم تلك الأرض وبيعها للراغبين ، ووضعت لذلك التقسيم رسوم بمعرفة على باشا مبارك نفسه ، أيام أن كان ناظرا على الأوقاف المصرية . ولم تلبث أن شيدت فى تلك الناحية « أبنية فاخرة وعمائر جليلة .. »[1] .

الجامع الأحمدى ونشأة المعهد الدينى :

واذا كانت طنطا قد نمت وازدهرت حتى تحولت من مجرد قرية صغيرة الى مدينة ضخمة كبيرة بفضل اختيار السيد أحمد البدوى لها واستقراره فيها حيا وميتا ، فانه كان من الطبيعى أن يحظى مقام السيد أحمد البدوى بمكانة كبيرة واهتمام عظيم على مر العصور .

وترجع البذور الأولى للجامع الأحمدى الى زاوية بناها السيد عبد العال . وقد قيل فى بناء هذه الزاوية أن السيد أحمد البدوى قال يوما لصاحبه « يا عبد العال ! لا بد وأن أبنى لك زاوية من الروشن الأعلى الى طرف الكوم » . فقال له

(١) المرجع السابق والجزء ، ص ٤٦

عبد العال « يا سيدى هذا الكوم عال علينا » . فرد عليه السيد أحمد البدوى « يا عبد العال انى أمرت الملك الأحمر أن يطيعك ! » . ثم يحكى السيد عبد العال فيقول أنه عقب وفاة السيد أحمد البدوى طلب من الملك الأحمر أن يريحه من ذلك الكوم « فأمر جنوده ، وكانوا يومئذ اثنى عشر ألفا ، فرفعوا الكوم وبدروه فى الهواء فى أسرع من طرفة عين !! » [1] . وكان أن بنى السيد عبد العال الزاوية وعمرها ، ورتب فيها الفقراء والمريدين ، والى جوار هذه الزاوية مباشرة كان القبر الذى شيده السيد عبد العال لأستاذه أحمد البدوى ، وشيد هذا القبر فى نفس المكان الذى عاش ومات فيه السيد أحمد البدوى ، وهو دار ابن شحيط .

ويبدو أن الزاوية والقبر ظلا على ذلك الوضع نحوا من قرنين وربع قرن من الزمان ، اذ لم نعثر على اشارة فى كتب التاريخ تدل على أن ثمة تغييراً امتد اليهما ؛ حتى كان عهد السلطان الأشرف قايتباى ، عندما نجد ابن اياس يقول فى حوادث سنة ٩٠١ هـ « وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى من البنيان ... وجدد مقام سيدى أحمد البدوى وبناه بناء حافلا ووسعه » [2] .

ومرة أخرى لا نسمع مدة طويلة ، عن أية تعديلات معمارية

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٨٢

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩٠١ هـ .

تجرى فى مقام السيد أحمد البدوى أو زاويته ، حتى كان القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) ؛ أى فى العصر العثمانى على عهد على بك الكبير . والمعروف أن على بك الكبير كان رجلا طموحا أراد الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وهى حركة ليست بالسهلة فى وقت كانت السلطنة العثمانية لا تزال تحتفظ بظل من سالف قوتها . لذلك يغلب على الظن أن على بك الكبير أراد أن يسترضى وليا كبيرا مثل السيد أحمد البدوى ويكتسب تأييده فيما أزمع القيام به ، وخاصة بعد أن طارت أنباء كرامات السيد أحمد البدوى فى مشارق الأرض ومغاربها . أو ربما أراد على بك الكبير أن يسترضى المصريين أنفسهم ليكتسب منهم سندا ضد السلطنة العثمانية ، فيبدو أمامهم فى صورة حامى حمى أولياء الله ، وبذلك يؤيده المتصوفة بما لهم من نفوذ واسع عند عامة الشعب .

وهكذا تحولت الزاوية الصغيرة ــ على يد على بك الكبير ــ الى مسجد ضخم يضم ثلاث قباب ، القبة الكبرى للسيد أحمد البدوى والقبة الغربية للسيد عبد العال خليفته ، والقبة الشرقية للشيخ مجاهد ، شيخ المسجد فى عصر على بك الكبير . وقد صنعت حول ضريح السيد أحمد البدوى مقصورة من النحاس الأصفر نقشت عليها سلسلة نسبه . ثم أنشأ على بك الكبير فى مواجهة الجامع سبيلا فوقه مكتب للصبية ، كما أنشأ قيسارية عظيمة ، أصبحت مركزا تجاريا محليا ، وأطلق عليها اسم

الغورية لنزول تجار غورية القاهرة بها للتجارة ، كما سيلى بالتفصيل [1] .

ثم ان على بك الكبير أوقف وقفين كبيرين على مشروعاته الخاصة بمقام السيد أحمد البدوى بطنطا ، وتوجد حجتا هذين الوقفين بارشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ؛ الوقفية الأولى بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١١٨٣ هـ ، وتشمل أراضى زراعية من قرى القوصية بولاية الأشمونيين ، تغل سنويا ٧١٨٩٧٥ اردبا من القمح ؛ فى حين أن الوقفية الثانية تاريخها ١٨ ذو القعدة سنة ١١٨٥ هـ ، وتشمل حوالى ١٧ ألف فدان من أجود الأراضى الزراعية بنواحى طنطا وبلتاج . هذا عدا العقارات المبنية من « وكايل وقيسارية وصهاريج وغيرها » ، مما أوقفه على بك الكبير على منشآت السيد أحمد البدوى بطنطا ، وكانت جميعا تغل ريعا صافيا قدره ٨٤٨٥٢٥ نصف فضة [2] .

وقد جعل على بك الكبير كل ذلك وقفا على الخلفاء بمقام سيدى أحمد البدوى ، وخدمة المقام ، والعلماء ، والقائمين به ، والمجاورين بالمسجد المشار اليه ، والعواجز والأيتام بالمكتب ، والمجاورين بالمكتب ، والفقراء ، وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية . ونصت الوقفية على أن يكون عدد المجاورين سبعمائة يقطنون بمسجد السيد أحمد البدوى ، ويتعاطون جراية يومية قدرها ستة أرغفة خبز قرصة للمجاور الواحد ، وفول

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٣٨٢

(٢) الجنيه المصرى يساوى ٣٠ نصف فضة تقريبا .

ثابت بعد صلاة الصبح وشربة برّ ؛ وفى رمضان تزاد الجراية فيدخل فيها « الأرز واللحم والمسلى والبصل والحمص والمصلح » . كذلك خصصت الوقفية مبلغ ٨٥ ألف نصف فضة يصرف سنويا فى ثمن كساوى تشترى لكافة العلماء والمجاورين والعميان والأيتام بمسجد السيد أحمد البدوى « من بفتة وزعابيط وقماش أبيض ، كل شخص بما يليق » أى حسب مقامه [١] .

على أن أهم من هذا كله فى نظرنا هو أن البذور الأولى للمعهد الأحمدى بطنطا ، بدأ غرسها فى عهد على بك الكبير .

ففى ذلك العهد بالذات — أى فى أواخر القرن الثانى عشر للهجرة — أخذ مسجد السيد أحمد البدوى يتحول الى مدرسة اسلامية على نمط الأزهر ، وذلك عندما رتب على بك الكبير عددا من الفقهاء والمدرسين والمعيدين للتدريس بالمسجد ، فأمه الطلاب والمجاورون الوافدون من كل ناحية ، وأمن لهم على بك الكبير حياتهم بأن خصص لهم « خبزا وجرايات وحساء يصرف لهم يوميا » . هذا الى أن على بك الكبير عهد بالقيام على أمور المسجد الى شيخ لقبه « شيخ الجامع الأحمدى » [٢] .

أما الدراسة فكانت دينية لغوية ، كما كان الحال فى جميع معاهد العلم فى مصر العثمانية ، فشملت التفسير والحديث والفقه والتوحيد وغيرها من العلوم الدينية واللغوية . وقد خصصت

---

(١) انظر حجتى وقف على بك الكبير — أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة (رقم ٧٤٣ — أوقاف) .

(٢) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، ص ٩٦ — ٩٧

وقفية على بك الكبير بتاريخ سنة ١١٨٣ هـ مائة أردب من القمح تصرف سنويا لعشرة علماء يقومون يوميا بالقاء عشرة دروس فى الجامع الأحمدى ، وذلك فى الحديث والفقه والنحو والتوحيد . أما وقفية سنة ١١٨٥ هـ فقد خصصت مبلغ ٢١٦٠ نصف فضة يصرف سنويا « فى معلوم رجل من علماء المسلمين المحدثين ، يقرأ فى المسجد المرقوم فى كل يوم درسا فى حديث البخارى للسادة المجاورين بالمسجد المذكور وغيرهم من أهالى الناحية المذكورة » .

والمعروف أن المدرسة فى نظم التعليم فى الاسلام تقابل الجامعة فى عرفنا الحديث ، ووظيفة المدرس بالمدرسة تقابل وظيفة الأستاذ الجامعي فى مجتمعنا الحديث . لذلك جرى العرف على أن يعين لكل مدرس فى مدارس العصور الوسطى معيد « يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس » [١] . وكان أن نصت وقفية على بك الكبير سنة ١١٨٥ هـ على تخصيص مبلغ ٧٢٠ نصف فضة يصرف سنويا « فى معلوم رجل معيد مقرىء » للمدرس الذى يقوم بتدريس القرآن ، ومثل هذا المبلغ أيضا لمعيد للمدرس الذى يدرس مادة الحديث .

وهكذا أخذ المسجد الأحمدى يتحول الى جامعة اسلامية ،

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ص ١٧١

أصبحت نواة للمعهد الأحمدى الكبير فى طنطا ، وذلك منذ أواخر القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) .

* * *

وبعد على بك الكبير بقليل تلاحقت الأحداث على مصر ، فلم يكد ينتهى القرن الثامن عشر للميلاد حتى نزلت الحملة الفرنسية بأرض مصر . ولم يسلم مقام السيد أحمد البدوى فى طنطا من عبث الفرنسيين أيام الحملة الفرنسية . من ذلك ما يرويه الجبرتى أنه حدث سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ ــ ١٨٠٠ م) عندما شاع خبر الصلح بين العثمانيين والفرنسيين أن وصل رجل « من الجزارين المنتسبين للعثمانية » من جهة الشرق لزيارة سيدى أحمد البدوى ، وهو راكب على فرس وحوله نحو الخمسة أنفار ، فى الوقت الذى كان بعض الفرنسيين بداخل طنطا . وعند وصول هذا الرجل من آل الجزار ، صاحت العامة بطنطا وزغردت النسوة وهاج الأطفال ، وظنوا أن انسحاب الفرنسيين غدا وشيكا ، فاعتدوا على جموع الفرنسيين الصغيرة التى كانت بداخل طنطا ، حتى جرح بعضهم . وكان أن انسحب الفرنسيون ، ولكنهم عادوا بعد ثلاثة أيام ومعهم آلات الحرب والمدافع ، فأحاطوا بالبلد وهجموا عليه ، وقبضوا على آل الخادم وهم سدنة الضريح وملتزمو طنطا ، وأخذوا منهم نحوا من ثلاثة آلاف ريال ، سوى « الأغنام والكلف » . وبعد أن حبسوهم بضعة أيام فى منوف ثم فى الجيزة عادوا بهم الى طنطا ، وقرروا عليهم ٥١ ألف « ريال فرانسة » ؛ وعلى أهل البلد مثل

هذا المبلغ ؛ ووزع المبلغ المطلوب على أهل البلد ، وعلى الدور والحوانيت والمعاصر وغيرها . واستمر الفرنسيون يسومون أهل طنطا سوء العذاب حتى نهاية العام ، وعند رحيلهم اقتحموا ضريح السيد أحمد البدوى وانتزعوا ما فيه من حلى تعرف باسم «عساكر المقام» ، وكانت من ذهب خالص ،وزنتها نحو خمسة آلاف مثقال [1] .

ثم كان أن تم جلاء الحملة الفرنسية عن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ليستبد محمد على بحكمها ويؤسس الأسرة العلوية التى ظلت تحكم البلاد قرابة قرن ونصف قرن من الزمان وتشير كل الدلائل الى أن حكام مصر من الأسرة العلوية اهتموا بالجامع الأحمدى والمعهد الأحمدى ، وذلك ان لم يكن من باب العقيدة ، فعلى الأقل كسبا للرأى العام وارضاء للشعور الدينى فى البلاد ، والظهور فى صورة الحكام الصالحين ...

أما عن الجامع الأحمدى ، فيفهم من كلام على باشا مبارك أن الحاجة صارت ماسة الى توسيعه فى القرن التاسع عشر للميلاد ، فهدم الجامع القديم أيام عباس الأول عند منتصف القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) وشرع فى بنائه من جديد ، حتى تم على عهد الخديو اسماعيل . وقد وصف على باشا مبارك الجامع عند تمامه فقال انه : « فى وسط البلد تقريبا ، يحيط به أربعة شوارع ، وفى ضلعه القبلى مقام قطب الأقطاب سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وعلى ضريحه

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٣ ص ١١١ – ١١٢

مقصورة من النحاس الأصفر فى أحسن شكل ، وقبة عالية مثل قبة الامام الشافعى ، وبداخله أيضا مقام تلميذه سيدى عبد المتعال ومقام سيدى مجاهد . وبه نحو ستين عمودا من الرخام الأبيض ... وللمسجد أربع منارات فى زواياه الأربع ، اثنتان كاملتان واثنتان مزمع على تكميلهما . وله سبعة أبواب : واحد بالضلع القبلى وآخر بالشرقى وثالث بالبحرى ، وأربع بالضلع الغربى . وله ميضأة متسعة جدا أكثر من عشر فى عشر . وحنفية حسنة ومرافق كثيرة . وبينه وبين الميضأة أبنية متسعة ذات أود كثيرة معدة لاقامة المجاورين بها . وله ساقية معينة ، بعد مائها عن سطح الأرض فى زمن الصيف عشرون مترا ... ومسطح الجامع بمرافقه أكثر من فدان ونصف ... وكان رسمه على هذا الوضع الجليل بنظر وملاحظة صاحب العلوم والمعارف ... البالغ فى فنون الرياضة منتهاها سعادة المرحوم بهجت باشا (المهندس) . وجميع مصارفه فى البناء وغيره من أوقافه ، فان له أوقافا جمة لا تحصيها الا الدفاتر [1] » ...

ونسمع بعد ذلك عن بعض حكام الأسرة العلوية أنهم اهتموا بعمل بعض المنشآت والتجديدات بالجامع الأحمدى . فعباس الثانى مثلا أتم تحسين الجامع وقوى بنيانه وجدد قبر نور الدين وعبد الرحمن ـــ وهما من اخوة السيد عبد العال ـــ ونقش على الباب القبلى عبارة تشير الى أنه أتم هذه الأعمال سنة ١٣٢٠ هـ

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٤٦

(١٩٠٢ م) . وفى عهد الملك أحمد فؤاد نظمت الطرق المؤدية الى الجامع الأحمدى وأزيلت المبانى القديمة التى كانت تعترض هذه الطرق ، كما وضع سور من الحديد حول الحجر الأسود ، الذى سبق أن أشرنا اليه ، وذلك لمنع العامة من تقبيله .

هذا عن الجامع الأحمـــدى ، أما الدراســـة به فقد أخذت تتطور وترتقى منذ أيام على بك الكبير حتى أدت الى قيام معهد كبير ملحق بالجامع وصار له شأن عظيم .

ذلك أن البذور التى وضعها على بك الكبير لم تلبث أن أنبتت فى تلك البيئة الصالحة ، فاستمر التدريس بصفة منتظمة فى الجامع الأحمدى وفق القواعد التى وضعها على بك الكبير فى حجته ، وأقبل الطلبة من مختلف الأنحاء على الدراسة بالجامع الأحمـــدى . ويدل على مدى ازدهار الدراســـة بهذا الجامع ما ذكره على باشا مبارك من أنه صار « له فى تدريس العلوم به شبه الجامع الأزهر ، ففيه نحو ألفى طالب غير المدرسين ، ولهم شيخ كشيخ الأزهر . وقد تداول مشيخة العلماء بالجامع الأحمـــدى قديمـــا وحـــديثا جملة وافرة من أجـــلاء العلماء وفضلائهم [1] » .

ولا يخفى علينا أن نظم الدراسة ظلت فى الجامع الأحمدى مثلما كانت عليه فى مدارس وجوامع العصور الوسطى ، الأمر الذى تطلب القيام بجهود متواصلة فى سبيل الاصلاح . وتمن

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٤٦

أول خطوة فى هذا السبيل سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) عندما وضع للجامع الأحمدى نظام للتعليم شبيه بنظام الأزهر ، فسجلت أسماء الطلبة الدارسين لأول مرة ، ونظمت أمورهم المعيشية بما يشبه نظام الأروقة بالأزهر ، مع تخصيص شيخ للاشراف على كل رواق ، وصارت تعقد امتحانات لاختبار مستوى الطلبة الدارسين . ثم عهد بالاشراف على التعليم بالجامع الأحمدى الى هيئة خاصة تتألف من شيخ الجامع ومشايخ الأروقة وجماعة من العلماء . غير أنه سرعان ما اتضح أن الجامع الأحمدى لم يعد يتسع للطلبة الدارسين فيه ، فضلا عن عدم انتظام الدراسة أحيانا بسبب كثرة الزوار الذين يدخلون الجامع ؛ ومن هنا بدأ التفكير فى انشاء معهد مستقل بمبناه يلحق بالجامع الأحمدى . وكان أن وضع حجر الأساس لهذا المعهد الأحمدى سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) على عهد الخديو عباس حلمى الثانى ، وافتتحه ذلك الخديو رسميا سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) . ومنذ ذلك الوقت توقفت الدراسة بالجامع الأحمدى وغدت فى المعهد . والمعهد الجديد مشيد على الطراز العربى ، وهو اليوم تحت اشراف الادارة العامة للمعاهد الدينية بالأزهر .

* * *

هذا عن طنطا والجامع الأحمدى والمعهد الأحمدى . على أنه اذا كان الناس قد قصدوا طنطا لزيارة السيد أحمد البدوى والتبرك به وتلقى العلم فى رحابه فان هناك مناسبات كانت تعج فيها طنطا

بالوفود ، وتضيق بمن فيها من الزوار ، وأعنى بهذه المناسبات موالد السيد أحمد البدوى .

الموالد ؛ نعمة ونقمة :

والمعروف أن الاحتفال بالموالد والعناية باحيائها ظاهرة قديمة لها وجهها الدينى ، وان كانت أهميتها الاقتصادية والاجتماعية تفوق فى حقيقة الأمر أهميتها الدينية . وقد عرف العالم المسيحى الموالد التى ارتبطت بأسماء القديسين فاحتفل الأوروبيون بمولد سانت دنيس فى فرنسا وسانت يعقوب فى كومبوستلا بأسبانيا ... وهذه الموالد كانت فى حقيقة أمرها أسواق تجارية ضخمة لها وزنها فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية [1] .

أما فى الاسلام ، فكان من الطبيعى أن يصحب انتشار تيار التصوف والاعتقاد فى الأولياء العناية باحياء الموالد فى الجهة أو البلدة التى بها قبر الولى . وكان الغرض الأساسى من اقامة هذه الموالد هو تكريم أصحابها واحياء ذكراهم ، بصرف النظر عن رعاية اليوم الذى ولد فيه صاحب المولد بالضبط لأن غالبية أولئك الأولياء لم يعرف تاريخ مولدهم بالدقة ولم يعرف شىء عنهم فى طفولتهم وصباهم ، كما سبق أن ذكرنا . هذا الى أنه كان لبعض أولئك الأولياء أكثر من مولد فى السنة الواحدة ،

---

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages-ps. 285,603,309.

كالسيد أحمد البدوى الذى كانت له ثلاثة موالد ، ولا يعقل أن يكون قد ولد ثلاث مرات .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الموالد ملأت فراغا ضخما فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية . فهى مواسم يترقبها الناس ويلتقون فيها ويتعارفون ويتبادلون الأفكار ويتناقلون الأخبار ؛ وهى أيضا بمثابة معارض شعبية ضخمة يحرص التجار على الاستعداد لها باستحضار البضائع والتفنن فى عرضها مما يؤدى الى تنشيط التجارة والصناعة ... هذا فضلا عن أنها فرص طيبة للترويح عن النفس ، فيحرص أصحاب الألعاب وأرباب الملاهى والفنون الشعبية ــ مثل خيال الظل ــ على التجمع فى الموالد لعرض ألعابهم وفنونهم .

على أن الانحلال الذى اعترى حياة التصوف لم يلبث أن ظهر بأجلى صوره فى الموالد ، حتى صارت هذه الموالد فى عصور الانحلال مرضا ابتلى به المجتمع المصرى منذ أواخر عصر سلاطين المماليك . ذلك أن الصوفية اعتادوا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى جمع الأموال اللازمة لموالدهم من الأغنياء ، وفرضوا هذه الأموال على القادرين فرضا ، حتى ضاق الناس ذرعا بهذا الوضع ، وقالوا : « لقد سئمت نفوسنا من كثرة سؤال هؤلاء المشايخ الذين يعملون الموالد ، فلم يتركوا عندنا عسلا ولا أرزا ولا عدسا ولا بسلة . وايش قام على هؤلاء أن يشحذوا ويعملوا لهم موالد !؟[1] » . ثم ان

(١) الشعرانى : لطائف المنن ، جـ ١ ص ١٦٦

الشعرانى انتقد أسلوب الصوفية فى استخدام القوة لجمع الأموال من أجل اقامة الموالد ، واعتبر طعام الموالد طعاما حراما لأنه يصنع بمال غير حلال ، ومما قاله فى ذلك الصدد : « مما من الله تبارك وتعالى على عدم أكلى طعام من يأكل بدينه من فقراء هذا الزمان ، ويجرح الناس ويسلقهم اذا لم يبروه بألسنة حداد ؛ لا سيما اذا عمل مولدا كبيرا فانه لا يكاد يحلل فيه ولا يحرم ، أى لا يحلل الحلال ويكتفى به ولا يحرم الحرام ويجتنبه . فالورع ترك الأكل من طعام هؤلاء لأنه لولا اعتقاد الناس فيهم الصلاح لم يعطوهم شيئا ؛ ومعلوم أن من يأكل الدنيا بدينه أقبح ممن يأكلها بدنياه !![1] » .

ثم ان هذه الموالد صارت مهرجانات عظيمة يجتمع فيها ما لا يحصى من النساء والصبيان والفساق ، فتنصب لهم الخيام الكثيرة حيث يحتسون الخمر ويرتكبون مختلف أنواع المنكر[2] . وقد عثر مرة صبيحة مولد الشيخ الأنبابى على أكثر من مائة وخمسين جرة خمر متناثرة فى المزارع المجاورة بعد أن شرب ما بها ليلة المولد ؛ هذا خلاف « ما كان فى تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر بذلك[3] » . وهكذا صارت المولد عند الناس « من جملة النزه يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون اليه أفواجا ، ومنهم من له سنون على ذلك ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٢) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، جـ ١ ص ٣٣

(٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤ ــ المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ٤٨٧

وهو لا يعرف باب الزاوية »[١] حتى أقاصى الصعيد ـــ وهى الجهات التى عرف أهلها بطابع المحافظة الشديدة ، لم يكن أهلها بمنجاة من عبث الموالد ، فنسمع عن أهل الأقصر فى عصر المماليك أنهم اعتادوا أن يقيموا بعض الموالد لمشايخهم ، فتأتى الناس من كل مكان « ويبذل فيه العزيز الغالى ، وتحضر أصحاب الشنوف والشبابات والدفوف وتختلط الرجال بالنسوان ! »[٢] .

وبين هذه المزايا والمساوىء للموالد ؛ يحتل مولد السيد أحمد البدوى بطنطا مكانة عاليـــة مرموقة ، بوصفة قوة فعالة ظلت تؤثر فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية لمصر طوال عدة قرون .

موالد السيد أحمد البدوى :

أفاض على باشا مبارك فى ذكر موالد السيد أحمد البدوى ، فرجح أن الأصـــل فى فكرة عمل مولد له انمـــا ينبع من مولد الرسول عليه الصـــلاة والسلام ، حيث أنه كان يحتفـــل عند السيد أحمد البدوى بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ويدلل على ذلك بأن وفاة السيد أحمد البدوى صادفت ثانى عشر ربيع الأول ، وهو وقت عمل المولد النبوى . وتبدو وجهة نظر على باشا مبارك صادقة الى حد كبير بدليل ما قاله عبد الصمد من أن أتباع السيد أحمد البدوى من السطوحية « حدث لهم بعد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٤٤٣ (طبعة كاليفورنيا)

(٢) الادفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، ص ٤١٦ — ٤١٨

مدة عمل المولد النبوى عنده ، وصار يوما مشهودا يقصد من النواحى البعيدة [1] » . أما كيف تحول المولد النبوى فى طنطا الى مولد أحمدى ، فأمر لا يصعب تفسيره فى ضوء الحقيقة التى سبق أن فسرناها عند الكلام عن كرامات السيد أحمد البدوى ؛ وهى أن بعض أتباع السيد البدوى حاولوا أن يجعلوا منه رسولا آخر لا يقل فى مكانته عن سائر الأنبياء ، واذا كان النبى محمد عليه الصلاة والسلام له مولد كبير يحتفل به المسلمون جميعا ، فلا أقل من أن يكون للسيد أحمد البدوى مولد كبير ، يأتى اليه الحجاج كل عام أكثر مما يذهبون الى الحرمين الشريفين ، على قول السخاوى كما سبق أن ذكرنا . يضاف الى هذا كله الرغبة العامة فى الاحتفاظ بذكرى ولى كبير ، وحرص أتباعه على الاستفادة من اسمه الرنان لجمع الأموال وتحقيق المكاسب .

ويحكى على باشا مبارك أنه كان للسيد أحمد البدوى ثلاثة موالد كل عام هى المولد الكبير والمولد الصغير والمولد الرجبى . أما المولد الكبير فيروى أنه سمع من بعض المشايخ أن الفكرة فيه جاءت من أن أتباع السيد أحمد البدوى لما سمعوا بوفاته حضروا على هيئة جموع كبيرة الى طندتا ليعزوا فيه خليفته السيد عبد العال . وكانت طنطا عندئذ قرية صغيرة لا تتسع لتلك الجموع الضخمة الآتية من شتى الأطراف ، فضربوا خيامهم خارج طنطا حيث يعمل المولد الكبير ، وأقاموا فى تلك الخيام

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٦٥

ثلاثة أيام . ولما فرغوا من تقديم العزاء وأرادوا الرحيل شيعهم الشيخ عبد العال ، فقالوا له : « هذه عادة مستمرة نحضرها هنا كل عام فى هذ الميعاد ان شاء الله تعالى » . واستمرت هذه العادة فنشأ منها المولد الكبير ، وكان فى الأصل ثلاثة أيام ، ولكنه ازداد بعد ذلك . وامتاز هذا المولد بأن خليفة السيد أحمد البدوى يركب فى موكب كبير فى آخر أيامه ، مرتديا البشت الأحمر الخاص بالسيد عبد العال ، وترمز هذه العادة الى ركوب السيد عبد العال لتوديع المشايخ الذين كانوا قد حضروا للعزاء .

وأما المولد الصغير فيرجع منشأه الى أن الشيخ الشرنبلابى أحد مشايخ الطائفة الأحمدية حضر مرة للزيارة مع تلامذته وأتباعه فى غير وقت المولد ، فأقام هناك فى طنطا عدة ليال فى الأذكار والعبادات ؛ ولم يلبث أن اتخذ ذلك عادة سنوية « لأن أصحاب الطريق اذا وقع لهم شىء مرة اتخذوه عادة » . وسمى هذا المولد الصغير فى أول أمره بالمولد الشرنبلابى .

وثمة مولد ثالث للسيد أحمد البدوى يعرف باسم المولد الرجبى نسبة الى الشيخ الرجبى أحد مشايخ الطريقة الأحمدية ؛ وكان قد خطر له أن يجدد العمامة التى على مقام السيد أحمد البدوى ، فاستحضر كافيا من الشاش المصبوغ باللون الأخضر ، وحضر به الى طنطا فى جمع حافل من جماعته ومريديه ، ودخلوا طنطا فى موكب صاخب من الفقراء ؛ فصار ذلك عادة تتكرر كل سنة وفيه تجدد العمامة . ولذا يعرف أيضا بمولد لف العمامة .

وهكذا صار للسيد أحمد البدوى ثلاثة موالد طار صيتها فى الآفاق واعتقد فيها عامة الناس اعتقــادا زائدا ، وصاروا يترقبون موعد كل منها للمشاركة فيها ، بحيث لم يعد يفوقها — كما يقول على باشا مبارك — فى الاحتفال والجمع غير موسم الحج الشريف [1] . ويعبر الجبرتى عن مولد السيد أحمد البدوى تعبيرا جامعا ، فيقول أنه أصبح « موسما وعيدا ، لا يتخلفون عنه اما للزيارة أو للتجارة أو للنزاهة أو للفسوق ، ويجتمع به العالم الأكبر وأهالى الاقليم البحرى والقبلى [2] » . وفى ضوء هذه العبارة التى ذكرها الجبرتى نستطيع أن تتبع أهداف موالد السيد البدوى من ناحية ، والأهداف التى قصدها الناس من التردد على هذه الموالد من ناحية أخرى .

الزيارة أو الهدف الدينى :

يذكر الجبرتى أن الهدف الأول من المشاركة فى مولد السيد أحمد البدوى هو الزيارة . ولا شك فى أن الهدف الدينى هو الأساس المفروض فى فكرة أى مولد من الموالد ، لأن المولد ليس الا المناسبة التى يجتمع فيها المؤمنون بشخص معين لاحياء ذكراه أو المؤمنون بفكرة معينــة لاحياء هــذه الفكرة . وقد فصلنا فى صفحات هذا الكتاب كيف أصبح السيد أحمد البدوى فكرة وعقيدة، اذ آمن الناس به واعتقدوا فى كراماته حيا وميتا .

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٢ ص ٥٠ — ٥١
(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٤ ص ٣

كذلك رأينا كيف أنه وجد حول السيد أحمد البدوى ومقامه فى طنطا جماعة من المتنفعين روجوا لهذه الفكرة ، وأطلقوا الاشاعات الضخمة حول السيد البدوى ومولده وكراماته ، ليستفيدوا من وراء تلك الجموع الضخمة التى تتردد على موالده . ومن ذلك ما نسبوه اليه أنه قال :

ألا أيها الزوار حجوا لبيتنا
وطوفوا بأستار له تبلغوا المنا
وفى يوم عيد الوصل أوفوا لنذوركم
كذا تفث فاقضوا وطوفوا ببيتنا
فهيا بني الحاجات سعيا لمنهل
ورثناه فى الدارين من فيض جدنا

ولعل هذه الأبيات واضحة فى معانيها ، بما تحويه من حث للناس على زيارة مقام السيد البدوى ، ليشهدوا منافع لهم ويوفوا نذورهم ويطوفوا بالبيت ــ بيت السيد البدوى ــ ؛ مع وعد صريح لأصحاب الحاجات بقضاء حاجاتهم [1] . ثم ان المتنفعين أحاطوا المولد الأحمدى بهالة كبيرة من الدعاية البراقة تظهر السيد أحمد البدوى فى صورة الغاضب على كل من يتخلف عن حضور مولده . من ذلك ما يرويه عبد الوهاب الشعرانى من أنه تخلف عن حضور مولد السيد أحمد البدوى سنة ٩٤٨ هـ ، وكان هناك بعض الأولياء ، فعادوا وأخبروه أن السيد أحمد البدوى كان يوم المولد يكشف الستر عن الضريح

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ١٢٢

ويقول : « أبطأ عبد الوهاب ما جاءنا ! » . ولا ندرى بالضبط هل أراد الشعرانى بهذه القصة الدعاية لنفسه أم للسيد البدوى !! . ومرة أخرى يروى الشعرانى أنه أراد فى سنة من السنين أن يتخلف عن حضور مولد السيد البدوى ، فاذا به يرى السيد البدوى « ومعه جريدة خضراء وهو يدعو الناس من سائر الأقطار ، والناس خلفه ويمينه وشماله ، أمم وخلائق لا يحصون ، فمر علىّ وأنا بمصر وقال : أما تذهب ؟ فقلت : بى وجع . فقال : الوجع لا يمنع المحب . ثم أرانى خلقا كثيرا من الأولياء وغيرهم ، الأحياء والأموات ، يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد ، ثم أرانى جماعة من الأمراء جاءوا من بلاد الافرنج مقيدين مغلولين ، يزحفون على مقاعدهم . وقال : انظر الى هؤلاء فى هذه الحالة لا يتخلفون ! . فقوى عزمى على الحضور ، فقلت له : ان شاء الله تعالى . فقال : لا بد من الترسيم عليك ! فرسم علىّ بسبعين عظيمين أسودين كالأفيال ، وقال لهما : لا تفارقاه حتى تحضراه » وعندما حكى عبد الوهاب الشعرانى هذه القصة على شيخه محمد الشناوى قال له : « سائر الأولياء يدعون بقصادهم ، وسيدى أحمد البدوى يدعو الناس بنفسه الى الحضور !! » .

ثم ان عبد الوهاب الشعرانى لم يكتف بما يرويه عن نفسه بخصوص حضور مولد السيد أحمد البدوى ، وانما يروى عن غيره قصصا مشابها . من ذلك أنه يحكى أن الشيخ محمد السروى بن أبى الحمائل تخلف سنة عن الحضور الى المولد

الأحمدى ، فعاتبه السيد أحمد البدوى قائلا « موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه ، وأصحابهم والأولياء رضى الله تعالى عنهم ، ما تحضره أنت ؟ » فخرج الشيخ محمد مسرعا نادما للحاق بالمولد ، ولكنه صادف فى طريقه الناس عائدين وقد انفض المولد ، فصار الشيخ يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه ! ! وهكذا أذاع الشعرانى بقصته هذه أن الرسول والصحابة والأنبياء جميعا يحضرون الى مولد السيد أحمد البدوى !!

وحتى يهون أمر الرحلة الى طنطا فى نظر سكان الصعيد وغيرهم من أهالى الأماكن النائية ، أشاع المنتفعون أن هناك من يأتى من الهند لحضور مولد السيد البدوى ، وأن هؤلاء يقطعون الطريق من الهند الى مصر فى خطوات يسيرة دون أدنى صعوبة ، وذلك بفضل كرامة السيد البدوى . من ذلك تلك القصة التى رواها عبد الصمد ، والتى يقول فيها ان رجلا غريبا نزل على بعض المشايخ فى مصر ، فسألوه « من أى البلاد أنت ؟ » فقال « من الهند » . قالوا له « ما حاجتك فى مصر ؟ » قال « حضرنا مولد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه » . قالوا له « متى خرجت من الهند ؟ » قال « خرجنا يوم الثلاثاء ، فبتنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (فى المدينة) وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه بطندتا » . فتعجب المشايخ من ذلك وقالوا

« الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله تعالى » . ثم نظروا اليه وسألوه « من عرفكم بسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه فى بلاد الهند ؟ » فقال الغريب « يا لله العجب ! أطفالنا الصغار لا يحلفون الا ببركة سيدى أحمد البدوى وهو من أعظم أيمانهم ! وهل أحد يجهل سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ؟ ان أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر الجبال والبلاد يحضرون مولده !! » .

ثم ان جماعة المنتفعين لم يكتفوا بنشر هذه الأساطير عن أهمية مولد السيد أحمد البدوى ، بل نشروا أيضا كثيرا من القصص عن الكرامات الأحمدية التى تحدث بمناسبة المولد . فمن حج الى مقام السيد أحمد البدوى فى مولده فهو آمن ، ولا بد أن تقضى حاجاته وتتحقق رغباته . وفى نفس الوقت حذروا المعارضين لفكرة المولد الأحمدى وأنذروهم سوء العاقبة . من ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر جقمق سمع بما يحدث فى المولد الأحمدى من « محرمات ومفاسد كثيرة بسبب اختلاط الرجال بالنساء » ؛ فاستفتى العلماء فى ابطال المولد ، فأجابوه الى ذلك ما عدا الشيخ المناوى فانه امتنع عن الافتاء بذلك . فلما استدعاه السلطان وناقشه فى أمر الغاء المولد قال الشيخ المناوى « ما أجترىء على الفتيا بذلك ، فان سيدى أحمد البدوى سيد كبير وعنده غيرة ، وهو لا يرجع عن هؤلاء الجماعة الذين سعوا فى ابطال مولده ، ويا مولانا السلطان سوف ترى ما يحصل لهم من الضرر بسبب سيدى أحمد البدوى ! »

ويعلق السيوطى على ذلك بأنه لم يمض قليل حتى تعرض الذين أفتوا ببطلان المولد لأضرار بليغة ، فبعضهم عزل من منصبه ونفى ، وبعضهم هرب الى دمياط ، وبعضهم حبس وضرب ..» [1]

التجارة أو الهدف الاقتصادى :

كان الهدف الثانى الذى حدده الشيخ عبد الرحمن الجبرتى من زيارة المولد الأحمدى هو التجارة . والعامل الاقتصادى فى الموالد يبدو مستترا وراء العامل الدينى ولكنه فى الواقع هو العامل الأساسى الحيوى الكامن وراءها . فالموالد صارت أسواق جامعة يستعد لها التاجر للبيع مثلما يستعد لها المشترى للشراء . ويقول الدكتور زكى مبارك انه كان لمقام السيد البدوى تأثير شديد جدا فى ربط الأقاليم المصرية بعضها ببعض . فقد كان كثير من أهالى الصعيد لا يرون القاهرة ولا يعرفون شيئا عن مصر الشمالية الا بمناسبة مولد السيد البدوى . « وأغلب الظن أن التجار فى الأقطار الفرنسية والانجليزية والألمانية يحسدون مصر على مقام السيد البدوى ، ويودون لو نقلوه بزواره وأتباعه ومريديه كى يظفروا بسوق رابحة قليلة النظائر والأمثال » [2] .

---

(۱) اختلفت الكتب فى تحديد السنة التى ألغى فيها المولد الاحمدى ، فعبد الصمد قال فى الجواهر انها سنة ۸۵۲ ، والحلبى قال فى النصيحة انها سنة ۸۵۱ هـ . أما ابن اياس فيقول فى حوادث سنة ۸۵۰ هـ « وفيها رسم السلطان باعادة مولد سيدى أحمد البدوى بعدما كان بطل » . مما يوحى ان المولد ابطل سنة ۸٤۹ هـ . ومهما يكن من أمر ، فان الشىء الثابت أنه أبطل لمدة سنة واحدة وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر جقمق .

(۱) زكى مبارك : التصوف الاسلامى ، جـ ۱ ص ۲۸۷

ومن الطريف أن على باشا مبارك يحكى كيف أقبل الأجانب على الاقامة بطنطا « وازدادت الرغبة فى سكناها ، فسكنها كثير من أهل الوطن والأغراب من شوام وأروام وفرنساوية وانكليز وطليانية ونمساوية ومالطية ويهود ، حتى صار عدد أهلها كثيرا ، وكثرت فيها أنواع المتاجر !! »[1] . ومن هنا نلاحظ أن على باشا مبارك يربط بين اقبال الأجانب على سكنى طنطا ، وبين نشاط التجارة فيها . ومن الواضح أن اليهود وغيرهم ممن أقبلوا على سكنى طنطا لم يفعلوا ذلك اعتقادا فى السيد البدوى وكراماته وانما جريا وراء المال والتجارة ؛ ولن يتردد اليهود أبدا فى نشر الشائعات والقصص عن كرامات السيد أحمد البدوى ، اذا كان ذلك سيعود عليهم بالنفع والمال !! هذا الى ما يقوله على باشا مبارك فى موضع آخر من أن موالد السيد أحمد البدوى « لا يساويها مولد من موالد الدنيا فيما نعلم ، مع ما اشتملت عليه من أنواع المتاجر وكثرة الانفاق ، سيما بعد حدوث السكة الحديد ؛ فلها هناك محطة مزدحمة الى الغاية ، وفى أوقات المولد يكون ازدحامها فوق الطاقة !! » . ولا ندرى ما حاجة زوار المولد الأحمدى الى السكة الحديد ، ما دام بعضهم يأتى من الهند الى طنطا فى ثلاث خطوات ، عن طريق المدينة وبغداد !

وقد ذكرنا أن على بك الكبير أنشأ فى طنطا قيسارية عظيمة تكون بمثابة سوق للتجار ، وأسماها الغورية « لنزول تجار

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٣ ص ٤٦

أهل الغورية بمصر فى حوانيتها أيام مواسم الموالد المعتادة لبيع الأقمشة والطرابيش والعصائب »[1] . ومعنى ما ذكره الجبرتى أن النشاط التجارى فى طنطا لم يحتكره التجار الذين أقاموا واستقروا فيها ، وانما كان يحدث فى وقت المولد الأحمدى أن ينزح كثير من تجار القاهرة وغيرها الى طنطا ، لأنهم لن يجدوا سوقا أربح وأكثر نشاطا من هذا السوق . ففى موسم المولد الأحمدى يجتمع البائعون والمشترون من جميع أنحاء البلاد ؛ كل بائع مؤمن بأنه بفضل بركة السيد أحمد البدوى سيبيع بضاعته بأحسن الأسعار ويحقق لنفسه أوفر الأرباح ؛ وكل مشتر موقن أنه بفضل بركة السيد أحمد البدوى سيحصل على كل ما يحتاج اليه من أفضل البضائع بأرخص الأسعار . فالفلاح الذى يحتاج الى شراء دابة أو ماشية أو ثوب من القماش أو نعل لقدميه أو قطعة من المصاغ لزوجته ، عليه أن ينتظر الموسم الكبير ، موسم الشراء والبيع ، وهو مولد السيد أحمد البدوى ...

وكان لا بد للحكومات المتعاقبة فى مصر من الاستفادة من هذه الحركة التجارية من ناحية ، ومن فرض رقابة عليها لحماية المتعاملين من ناحية أخرى . من ذلك أن الحكومة أخذت تفرض ضرائب على المتاجر التى تباع فى المولد الأحمدى ، فيحكى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٦ م) ــ أى فى العصر

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٢٨٢ (بولاق) .

العثمانى — أن كاشف الغربية من قبل ابراهيم بك الوالى كان يجبى على « كل جمل يباع فى سوق المولد نصف ريال فرانسة »[1] . ومن ناحية أخرى فان الجبرتى يروى فى العام التالى مباشرة (١٢٠١ هـ) أن كاشف الغربية وكاشف المنوفية نزلا « الى طندتا لأجل خفارة مولد السيد أحمد البدوى »[2] .

وتدل الأخبار المتناثرة فى كتب التاريخ على أن زوار مولد السيد أحمد البدوى كانوا دائما هدفا للصوص الذين رأوا فيهم صيدا ثمينا ، فهم اما تجار يحملون ما غلا ثمنه وخف حمله ، واما زوار أتوا الى المولد وقد فاضت جيوبهم بالمال لتقديم ما عليهم من نذور أو لشراء مطالبهم من سوق المولد . وقد انتشرت فى أنحاء مصر فى العصور الوسطى ومطلع الحديثة قبائل عديدة من العربان أو الأعراب — ما زلنا نرى بقاياهم فى بعض المحافظات وبخاصة الشرقية والبحيرة والجيزة والفيوم والمنيا — وهؤلاء غالبا ما اشتغلوا بالسلب والنهب وقطع الطريق ، حتى حجاج بيت الله لم يسلموا من عبثهم ، فكانوا يتربصون لهم فى الصحراء الشرقية ويسلبونهم مالهم وقوتهم ، وربما أرواحهم[3] . ولم يغفل هذا النفر من الأعراب عن زوار السيد أحمد البدوى ، فدأبوا على التربص لهم وسلبهم أيام المولد ، رغم الشائعات التى أطلقها

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ١٠٤

(٢) المرجع السابق ونفس الجزء ص ١٣٩

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، ص ٤٢ وما بعدها .

المريدون عن أنه من كرامات السيد أحمد البدوي « أن كل من تعرض من قطاع الطرق لزواره فى المولد قتل وذهب ماله فى ذلك العام عن قرب ، ولو كان المتعرض جمعا كثيرا »[1] . حتى كبار القوم كانوا يخشون على أنفسهم من فتك العربان بهم عند ذهابهم الى المولد الأحمدى ، فيروى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٣ م) أن المحروقى ذهب لزيارة مولد السيد أحمد البدوى « وأخذ معه عدة كثيرة من العسكر خوفا من العربان »[2] . ومرة أخرى يحكى الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٩ هـ أنه حدث فى شهر صفر أن عاد الناس ممن ذهبوا الى المولد الأحمدى « ومنهم عرايا ومجاريح وقتلى ، وقد وقفت لهم العرب وقطعت عليهم الطرق ، فتفرقوا فرقا فى البر والبحر ، وحصر العرب طائفة كبيرة منهم بالقرطيين ، وحصل لهم ما لا خير فيه ... »[3] .

« النزاهة » أو الهدف الاجتماعى :

هذا هو الهدف الثالث من أهداف التردد على موالد السيد أحمد البدوى ، كما ذكرها الجبرتى . ولا شك فى أن كثيرين ممن أقبلوا على المشاركة فى مولد السيد أحمد البدوى ، كانوا يرون فى ذلك فرصة للترفيه عن أنفسهم والاستمتاع بمباهج

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٧١
(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ٢٢٥
(٣) المرجع السابق ونفس الجزء ، ص ٢٩٥

الحياة . ولعل في هذا تفسير لما حفلت به الموالد من ملاهي وألعاب ومساخر ، صادفت اقبالا لا يقل عن الاقبال على ضريح السيد البدوى نفسه . وقد عرف أهل مصر على مر العصور بحبهم للطرب واللهو ، حتى وصفهم الرحالة ابن بطوطة في عصر المماليك بأنهم « ذو طرب وسرور ولهو »[1] . لذلك كانت فرصة المولد الأحمدى لا يمكن أن تمر دون أن يستغلها أرباب الملاهي في الكسب ، ودون أن يستغلها الزوار في الترويح عن أنفسهم . ففى مولد السيد أحمد البدوى كان يجتمع « أصحاب الخيال » — أى خيال الظل — فضلا عن أرباب الألعاب مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك ... وكلها كانت تتم بطريق المقامرة والرهان ، فيراهن الشخص على هذا أو ذاك من الحيوانات . وبالاضافة الى هذا كله وجد في مولد السيد البدوى عدد كبير من البهلوانات والحواة الذين تسلى الناس بألعابهم ، والدبّابة الذين يلعبون بالدببة والقرادة الذين يلعبون بالقرود ... وما زال كثير من آثار هذه النواحى باقية في موالد السيد أحمد البدوى حتى اليوم ، بالاضافة الى الحلوى الوطنية التى تنسب الى السيد البدوى وتسمى « حلاوة السيد » ، مما يدل حقا على أن المترددين على المولد الأحمدى انما كانوا ينشدون قسطا من « النزاهة » على حد تعبير الجبرتى .

وفى ذلك الجو الذى هو خليط من الدين والدنيا ، كان

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ص ٧٠

يتم التعارف بين كثير من العائلات والأفراد ، وربما أدى هذا الاختلاط الى نوع من الترابط أو المصاهرات . بل ان كثيرا من الناس كانوا يحرصون على أن تتم احتفالاتهم السعيدة فى موسم المولد الأحمدى ، وذلك من باب التبرك والتفاؤل . ففى المولد الأحمـــدى من كل عام تتم عشرات من حالات عقد القران ، ويختن مئات من الأطفال الذين يصـــحبهم أهلهم وذووهم الى مولد السيد حتى تتم عملية الختان تحت اشراف السيد وفى ظل بركاته .

ومن المعروف أن جو السرور والمرح والترفيه له حدود ، اذا تجاوزها انقلب الجو الى خلاعة ومجون وفسوق . وكثـــيرا ما ينسى الناس هذه الحدود فى المناسبات العامة عنـــدما تغلب عليهم روح الجماعة ، مما يؤدى الى ظهور كثـــير من المفاسد الخلقية . ويبدو أن بعض المترددين على المولد الأحمدى رأوا فيه فرصة للتحلل من قيود الأخلاق والآداب العامة ، مما أدى الى ظهور الموبقات التى جعلت الجبرتى يقول بأن بعض زوار المولد كان هدفهم « الفسوق » . بل ان فقراء الأحمدية أنفسهم استباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة النـــاس وأكل أموالهم بالباطل فى موسم المولد الأحمـــدى ، ودعواهم فى ذلك « أن الغربية بلاد السيد البدوى ، ونحن من فقرائه ، فكل ما نأخذه حلال لنا !! » . وعندما عمت الشكوى مما يحـــدث فى المولد الأحمدى من موبقات ، لجأ السلطان جقمق الى ابطال المولد عند منتصف القرن التاسع للهجرة بناء على فتوى العلمـــاء ، كما

سبق أن ذكرنا . ولكن السلطان جقمق لم يستطع أمام ضغط الرأى العام أن يستمر فى ابطال المولد أكثر من عام واحد ، فعاد المولد وعاد معه كثير من المفاسد ، الأمر الذى جعل الشيخ الشناوى فى القرن العاشر للهجرة ينادى بابطال هذه البدع [1] .

ويبدو أن جماعة المنتفعين أحسوا ببعض الحرج مما كان يحدث فى الموالد الأحمدية من خلل وخروج عن الآداب العامة ، وعندئذ واجهتهم مشكلة عويصة ، هى كيف يسكت السيد أحمد البدوى عن هذه الانحرافات ولا يؤدب الخارجين ، وهو القطب الكبير الذى زادت كراماته بعد وفاته عما كانت عليه فى حياته ؟ « واذا كان هذا المدد العظيم والتصريف النافذ بعد الموت ، فكيف لا يتصرف فى دفع أصحاب المعاصى عن حضور مولده ؟ » ولكنهم لم يعدموا تبريرا لتلك المشكلة : فقالوا أولا أن ما يحدث فى مولد السيد أحمد البدوى خرج عن دائرة التكليف لأنه فى مقام لا تكليف فيه ، وهو البرزخ ! ، وثانيا أنه من عناية الله أن من حضر مولد السيد بمعصية يتوب الله عليه ولو بعد حين ! ، وثالثا أن الغالب على حال سيدى أحمد البدوى بعد وفاته البسط ، والمبسوط ــ كما جاء فى رسالة القشيرى ــ قد يكون مبسوطا لا يؤثر فيه شيء بحال من

(١) الشعرانى : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٦ ؛
توفيق الطويل : التصوف فى مصر ، ص ٨٠

الأحوال [1] ! وبناء على هذه الفتوى ، فان كل ما كان يحدث فى مولد السيد أحمد البدوى ان لم يكن جائزاً فان السيد نفسه لم يتأثر به ، فضلا عن أن ذنبه مغفور ... والعاقل من عرف زمانه !!

وهكذا لم يكتف المنتفعون بالسكوت عما كان يحدث فى المولد الأحمدى من خلل وعبث ، وانما شجعوا ذلك العبث بأن وعدوا جميع المذنبين فى المولد مغفرة سريعة بفضل عفو السيد البدوى وسعة صدره ! من ذلك أنهم نسبوا الى السيد أحمد البدوى أنه أباح ما يحدث فى مولده من اختلاط الرجال بالنساء ، وأنه قال ان « ذلك يحدث فى الطواف (حول الكعبة) ولم يمنع أحد منه !! » . كذلك أذاعوا أن السيد أحمد البدوى وعد بالعفو عن كل من يرتكب سوءا فى مولده ، فقال « وعزة الربوبية ، ما عصى أحد فى مولدى الا وتاب وحسنت توبته ، واذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار ، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى ؟ ؟ » [2] . والعجيب أنهم نسبوا هذا الكلام الى السيد أحمد البدوى فى حين أن المولد الأحمدى لم يكن له وجود فى حياته وأنه لم يحتفل به الا بعد وفاته ، فمتى قال السيد أحمد البدوى اذن ؟ لعله أملاه على بعضهم وهو فى القبر ، وقد رأينا أنهم ادعوا الكلام معه وسماع صوته وتلقى تعليماته بعد أن انتقلت روحه الى رضوان الله

---

(١) عبد الصمد : الجواهر ، ص ٦٦ ــ ٦٧

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٩

تحديد أوقات الموالد الأحمدية :

لا يوجد هناك أى سند شرعى لتحديد مواعيد الموالد الثلاثة للسيد أحمد البدوى ، فلا هى اتفقت مع تاريخ ميلاده ، ولا هى وافقت تاريخ وفاته ؛ وانما روعى فيها فقط أوقات النيل والرى والزراعة لتمكين أكبر عدد من الفلاحين من حضور الموالد وجيوبهم عامرة بالمال بعد الحصاد وبيع المحاصيل . ولعل الظاهرة الغريبة الجديرة بالتأمل العميق ، هى أن الموالد الأحمدية مع كونها مناسبات دينية ارتبطت بالاسلام ، وصاحبها قطب كبير من أقطاب الاسلام ، الا أن الوضع جرى منذ قرون بعيدة على أن تحدد مواعيد هذه الموالد بالأشهر القبطية وحدها ؛ وهى الأشهر التى لا يعرف الفلاح المصرى سواها فى حياته الزراعية . وهكذا صار موعد المولد الكبير شهر مسرى والصغير فى أول برموده والرجبى قبل الصغير بنحو شهرين [1] .

وازداد عجبنا عندما اكتشفنا أنه حتى اليوم لم يعن المهتمون بأمر المولد الأحمدى والقائمون عليه والمنتفعون من ورائه ، لم يعن هؤلاء بذكر التاريخ الهجرى عند تحديد موعد المولد ، ولو بطريقة صورية لمجرد احترام مظاهر الدين . وقد رجعنا الى الملف الخاص بمولد السيد أحمد البدوى فى وزارة الأوقاف ، وتتبعنا الخطابات الواردة من مشيخة الجامع الأحمدى الى الوزارة لطلب الترخيص باقامة المولد ، وراجعنا هذه الخطابات

---

(١) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١٣ ، ص ٥٠

فى العشرين سنة الأخيرة ــ منذ سنة ١٩٤٧ حتى اليوم ــ فلم نجد خطابا واحدا فيه ذكر للتاريخ الهجرى ولو بين قوسين . ولا أدرى ماذا كانوا يخسرون لو قالوا فى كتبهم انه مطلوب الترخيص بعقد المولد فى ١٢ أكتوبر الموافق مثلا ٢٠ من المحرم. ولكنهم لم يفعلوا ذلك أبدا . ومن شاء أن يتأكد فعليه أن يرجع الى ملف مولد السيد أحمد البدوى بادارة المساجد بوزارة الأوقاف ويتتبع الموضوع كما تتبعناه . ان اللغة التى يفهمها الحريصون على عقد المولد الأحمدى من جماعة المنتفعين هى لغة المال ، لغة القطن ، وهذه اللغة لا تعرف فى حسابها الأشهر العربية ... ومرة أخرى نردد قول الشعرانى : العاقل من عرف زمانه !

ولعل التطور الحديث الذى اعترى تحديد تواريخ الموالد الأحمدية هو استخدام الأشهر الافرنجية بدلا من القبطية فى الخطابات الرسمية المتعلقة بتحديد موعد هذه الموالد . وبمراجعة هذه التواريخ نجد أن الموعد المختار للمولد الكبير هو عادة النصف الأول من أكتوبر ، وقد يتقدم قليلا الى أواخر سبتمبر أو يتأخر قليلا الى أواخر أكتوبر . أما الموعد المفضل للمولد الرجبى فهو عادة شهر ابريل من كل عام ، وقد يتقدم قليلا الى أواخر مارس أو يتأخر قليلا الى شهر مايو . أما المولد الصغير أو الشرنبلالى فقد ضعف الاهتمام به تدريجيا حتى اختفى اليوم ؛ ولعله كان لا يأتى بايراد كبير محترم يوجب الحرص على احيائه .

والواقع أن اختيار مواعيد الموالد الأحمدية يدل على فطنة وذكاء وبعد نظر . فالمولد الكبير يكون فى اكتوبر ، النيل هادىء وقد اطمأن الفلاح من ناحية خطر الفيضان ؛ والفلاح انتهى من جمع المحصول الصيفى — وبخاصة القطن والذرة — فهو فى فترة راحة نسبية قبل أن تستبد بجهوده الدورة الشتوية ، وفى الوقت نفسه يكون قد باع القطن وامتلأ جيبه بالمال ، مما يحقق لجماعة المنتفعين مولدا ذاخرا . ولما كان القطن يمثل المحصول الرئيسى للفلاح ، الذى يجنى منه ربحا دونه ربح أى محصول آخر ، فقد جرى العرف على أن يكون طبق اللحم هو الطبق المفضل فى المولد الكبير .

أما المولد الرجبى فيكون فى ابريل ، أى بعد فراغ الفلاح من جمع المحصول الشتوى وبخاصة القمح والفول ، فيكون فى فترة راحة نسبية قبل أن تستأثر بجهوده الدورة الصيفية ، وقبل أن تغمر مياه الفيضان الأراضى وتجعل انتقاله وسفره متعذرا ، فضلا عن أنه يكون عامر الجيب بعد بيع محصول الشتاء ، وبالتالى يمكن الاستفادة منه فى طنطا . والأكلة المفضلة فى هذا المولد هى الفطائر (المشلتت) نظرا لتوافر القمح فى ذلك الوقت من جهة ، ولأن ايراد القمح دون ايراد القطن ، فلا يسمح بالتوسع فى أكل اللحوم من جهة أخرى ! ! .

موقف الحكام من السيد أحمد البدوى ومولده :

ظهر السيد أحمد البدوى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، وفى ذلك العصر بالذات ذاع صيته وانتشرت طريقته وشاعت

كراماته . ونعرف عن سلاطين المماليك فى مصر أنهم شايعوا حركة التصوف ، وذلك للأسباب التى سبق شرحها . من ذلك ما يرويه المؤرخ أبو المحاسن عن السلطان برقوق أنه رتب للمدرسة التى أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية ، وقرر لهم المرتبات الكثيرة [1] . أما أمراء المماليك فلم يقلوا عن السلاطين مشايعة لحركة التصوف ، فحكى مثلا عن الأمير حسام الدين لاجين أنه « يحب الفقراء ويجمعهم على سماطه » [2] بل ان الأمير طوقاى العمرى المتوفى سنة ٨٠٠ هـ « كان نقيب الفقراء » [3] . وقد رأينا كيف أن ابن بطوطة وصف أمراء مصر فى القرن الثامن الهجرى بأنهم « يتنافسون فى بناء الزوايا » [4] .

على أننا استبعدنا أن يكون للسلطان الظاهر بيبرس أو للسلطان الناصر محمد بن قلاوون صلة مباشرة بالسيد أحمد البدوى ـ كما أشرنا . والسبب فى ذلك ـ كما سبق ـ هو أن السيد أحمد البدوى كان محدود الشهرة فى ذلك الدور الأول من أدوار تاريخه فى طنطا ، بحيث يصعب القول بأن سلاطين المماليك تهافتوا عندئذ على طلب رضائه دون غيره من المشايخ السابقين الذين كانوا أوسع نفوذاً أو أكبر جاها فى مختلف أنحاء البلاد . ويبدو لنا أن شهرة السيد أحمد البدوى لم تتسع الا فى أواخر أيام حياته ان لم يكن بعد مماته ، وأن الطريقة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٦٠٠

(٢) ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، جـ ١ ص ٢٢

(٣) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٠ هـ .

(٤) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ص ٧١

الأحمدية لم يزدد نفوذها فى المجتمع المصرى بشكل خطير الا فى عهد دولة المماليك الجراكسة بوجه خاص أى فى أواخر القرن الثامن للهجرة (٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ م) . ففى ذلك العصر نجد فى المراجع التاريخية اشارات واضحة الى أن السيد أحمد البدوى وطريقته ومقامه فى طنطا أخذت فعلا تسترعى أنظار السلاطين والحكام . من ذلك ما نسمعه من أن خوند شكرباى زوجة السلطان خشقدم غلب عليها التصوف ، فاتبعت الطريقة الأحمدية ونسبت اليها ، وأصبحت تعرف بخوند شكرباى الأحمدية ، ثم انها ذهبت أكثر من مرة لزيارة ضريح السيد أحمد البدوى فى طنطا . وعندما توفيت « لم يغط نعشها ببشخاناه على عادة الخوندات ، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء ، وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية بوصية منها » [١] . وبعد ذلك نسمع أن السلطان الأشرف قايتباى عنى عناية كبيرة بمقام السيد أحمد البدوى فى طنطا . ويذكر ابن اياس أن السلطان قايتباى « زار سيدى أحمد البدوى رحمه الله تعالى ورضى عنه » [٢] .

ثم كان أن سقطت دولة المماليك وغدت مصر ولاية عثمانية ، فحرمت مصر فى ذلك الدور الجديد من تاريخها من زعامتها التى تمتعت بها فى العالم الاسلامى طوال عصر المماليك ، وانتقلت

---

(٢) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥٩ — أبو المحاسن النجوم ، جـ ٧ ص ٨٠٩

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ؛ حوادث سنة ٨٨٨ هـ .

الخلافة من القاهرة الى استانبول ، وأصبح لا شغل للولاة العثمانيين فى مصر الا ارهاق الأهالى وجمع الأموال بمختلف الطرق . وكان سدنة مقام السيد أحمد البدوى فى طنطا — من أولاد الخادم — قد حققوا ثروة ضخمة وجمعوا مالا وفيرا ، فغدوا منذ العصر العثمانى مطمع الحكام من العثمانيين والمماليك جميعا . وهكذا دأب الحكام العثمانيون والمماليك ، ثم الفرنسيون على فرض الأموال على أولاد الخادم فى طنطا . واذا كان على بك الكبير قد صادر أموالهم فانهم عادوا الى الانتعاش ، بدليل ما يرويه الجبرتى من أن الفرنسيين على أيام كليبر قبضوا على عميد آل الخادم المسمى مصطفى الخادم « وطالبوه بالمال ، وفى كل وقت ينوعون عليه العقاب والعذاب والضرب ، حتى على كفوف يديه ورجليه ، ويربطونه فى الشمس فى قوة الحر ، والوقت صيف ، وهو رجل كبير الكرش ، فخرجت له نفاخات فى جسده ، ثم أخذوا خليفة المقام أيضا وذهبوا به الى منوف ... » [1] .

وبعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، لم يكن العثمانيون والمماليك أقل شرها وطمعا فى أموال رجال السيد البدوى بطنطا . ويبدو أن الاشاعات الكثيرة عن الثروة الطائلة التى جمعها أولاد الخادم من النذور والموالد ، جعلت كل أمير وحاكم يجد فيهم كنزا لا يفنى . ومن ذلك ما يرويه الجبرتى فى حوادث

---

(1) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ١١١ — ١١٢ — بولاق .

سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٤ م) : « وفى ٢٣ ربيع الأول ، سافر جوخدار البرديسى الى ولاية الغربية ، وكان شاهين كاشف المرادى هناك يجمع الفردة وتوجه الى طنتدا ، وعمل على أولاد الخادم ثمانين ألف ريال ، فحضروا الى مصر ومعهم مفاتيح مقام سيدى أحمد البدوى هاربين ، وتشكوا وتظلموا ، وقالوا لابراهيم بك لم يبق عندنا شيء ، فان الفرنساوية نهبونا ، وأخذوا أموالنا ؛ ثم ان محمد باشا أرسل المحروقى فحضر دارنا وأخذ منا نحو ثلاثمائة ألف ريال ، ولم يبق عندنا شيء جملة كافية ... » [1] .

ومع ذلك فان ايمان الناس بالسيد أحمد البدوى لم يتزعزع ، واقبالهم على مولده لم يضعف . وكانت غالبية الناس يفضلون ركوب المراكب فى النيل من بولاق الى طنطا ، لأن هذا الطريق بالذات بدا أكثر أمناً من خطر العربان ، وأقل مشقة على المسافرين [2] . لذلك جرت الأوضاع بأن يشتد الزحام فى ساحل بولاق قرب موسم السيد أحمد البدوى ، ويرتفع ايجار المراكب بسبب كثرة الضغط والطلب . ويحكى الجبرتى أنه حدث سنة ١٢١٨ هـ أن خرج محمد على باشا الى ساحل بولاق وصحبته بعض رجال حرسه ، فنصبت له خيمة لطيفة على شاطىء النيل . وصادف أن كان ذلك الوقت هو موعد اجتماع الناس للسفر بالمراكب من بولاق الى طنطا لحضور مولد السيد أحمد البدوى.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ ؛ سنة ١٢١٨ هـ) .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ٢ ص ١١١

فلما رأى محمد على باشا تلك الجموع الغفيرة من الناس ، ظن أنهم حضروا لتحيته والترحيب به « والفرجة عليه » ، ولكنه علم بعد ذلك حقيقة الأمر [1] .

وعندما استقرت الأمور لمحمد على باشا فى مصر ، لم يشأ أن يحرم أفراد أسرته من الفرجة على مولد السيد أحمد البدوى وزيارة مقامه ، فأذن لولده الكبير « ابراهيم باشا » سنة ١٢٢٠ هـ بالسفر لزيارة مقام السيد أحمد البدوى بطنطا ، وأرسل صحبته عددا كبيرا من الأتباع والجند ، كذلك سافر عدد كبير من حريم كبار القوم « فى هيئة لم يسبق مثلها فى تختر وأثات وعربات ومواهى وأحمال وجمال وعسكر وخدم وفراشين » . وطبعا لم يتحمل محمد على نفقات سفر هذا الموكب الضخم ، وانما فرضت أموال وكلف على البلاد لتغطية تلك النفقات الباهظة [2] .

ومهما يكن من أمر ، فان مقام السيد أحمد البدوى بطنطا حظى بعناية كبيرة فى عصر الأسرة العلوية ، من الحكام والمحكومين سواء . وقد رأينا دليلا على هذه العناية فى اصلاحات عباس باشا الأول واسماعيل باشا ، وهى الاصلاحات التى تناولت مقام السيد أحمد البدوى بوجه خاص ، ومدينة طنطا بوجه عام . وليس أدل على ازدياد شهرة السيد البدوى من حرص السلطان العثمانى عبد العزيز ــ عند زيارته للديار المصرية سنة

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٢٥٩
(٢) المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٣٥٤

١٨٦٣ م (١٢٧٩ هـ) — على زيارة مقام السيد أحمد البدوى فى طنطا . وقد جاء فى أخبار هذه الزيارة أن السلطان ومعه الخديو اسماعيل وكبار القوم ركبوا القطار من الاسكندرية فى طريقهم الى القاهرة « ولما مروا على طنطا ورأوا ازدحام الأقدام على محطتها ، ونظروا مآذن الجامع الأحمدى تعلو آفاقها ، طلب عبد العزيز بعض ايضاحات عنها وعن أهميتها ، فأجابه اسماعيل الى طلبه ، وقص عليه ما يعمل فيها أيام المولدين الأحمديين الأصغر والأكبر »[1] ويضيف دوان چورچ — فى كتابه الكبير عن عصر اسماعيل — ما نصه : « ووقف القطار فى طنطا وذهب السلطان لتأدية الصلاة فى ضريح الشيخ أحمد البدوى ؛ وكانت الشمس قد غربت عندما بلغ الركب السلطانى مدينة القاهرة[2] » .

وسواء كانت هذه الزيارة لضريح السيد أحمد البدوى قد تمت فعلا أو لم تتم ، فان السلطان عبد العزيز لم يقنع بتلك اللفتة العابرة ، وأبدى رغبته فى زيارة أطول عند عودته من القاهرة الى الاسكندرية . وفعلا أقيم له صيوان فخم بجوار محطة طنطا . ولكن السلطان عبد العزيز رجع عن عزمه فى آخر لحظة — ربما لضيق الوقت — واكتفى بايقاف القطار قليلا قبالة ذلك الصيوان

---

(١) الياس الايوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، جـ ١ ص ٣٤

(2) Douin George : Hist. du Regne du Khedive Ismail, Tomel, p. 13 (Rome 1933)

فى طنطا « لكى تتمكن الجماهير الغفـيرة المزدحمة هناك من استجلاء وجهه البهى والقيام بفروض الدعاء له » [1] .

وليس أدل على استمرار مكانة السيد البدوى واعتقاد النـاس فيه وحرصهم على حضـور مولده من أن الحكومة اضطرت الى دعوة مجلس شـورى النواب فى دور غير عادى فى صيف سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) ؛ ولما كان ذلك الوقت يصادف موعد مولد السيد أحمد البدوى ، فان الحكومة خشيت عدم تكامل عـدد الأعضاء بسبب تغيب معظمهم فى طنطا لحضـور المولد . وأخيرا لم تجد الحكومة بدا من عقد المجلس فى طنطا ذاتها ، فاجتمع الأعضاء فى طنطا برئاسة عبد الله باشا عزت يوم الأثنين ١٧ رجب سنة ١٢٣٩ ، وهناك فى رحاب السيد أحمد البدوى ناقش الأعضاء الموضوع الخطير المعروض عليهم ، وهو خاص بمسألة المقابلة [2] .

بل ان الخديو اسماعيل عندما أراد أن يجمع مالا من أعيان البلاد ، لم يجد فرصة أطيب من المولد الأحمدى بطنطا . ففى ذلك المولد يضمن الخديو اجتماع أعيان البلاد جميعا من ناحية ، كما يضمن وفرة المال بأيديهم من ناحية أخرى ، لأن كلا منهم ذهب الى المولد وقد ثقلت جيوبه بالمال . وكانت حكومة اسماعيل قد استردت تفتيش الوادى من شركة قنـاة السويس عقب تحكيم الامبراطور نابليون الثالث ، وتبلغ مساحة هذه الأطيان

---

(١) الياس الايوبى : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٥٢

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، جـ ٢ ص ١٧٩

بالشرقية ٢١٩١٨ فدانا . وأراد اسماعيل أن يزين للأعيان فكرة شراء هذه الأطيان ليستفيد من أثمانها ويستغل الأموال المتجمعة فى مشروعاته الخاصة والعامة التى توسع فيها ، ومنها انشاء بعض المدارس . لذلك اهتدى اسماعيل الى فكرة ماكرة ، فدعا أعيان البلاد « الى مأدبة كبرى فى المولد الأحمدى بطنطا ... وحسن لهم أن يشتروا تفتيش وادى الطميلات المؤجر للشركة الفرنساوية ، وأن يجعلوا ريع هــذا التفتيش وقفا على تعليم أبنائهم فى مدارس تنشأ لهذا الغرض ، فجادوا بالمال الكثير . وكان الذى يدفع ٥٠٠ بنتو يومئذ يحق له الجلوس على المائدة الخديوية ، والذى يدفع ٤٠٠ بنتو يحق له الجلوس على المائدة التى يرأسها رئيس الحكومة اذ ذاك ، والذى يدفع أقل من ذلك يجلس على المائدة التى تليها . وكان أقل مبلغ يدفع اذ ذاك مائة بنتو ودافعهــا يجلس على آخر مائدة يرأســها مدير المديرية وقتئذ [١] . » وقد ذكر أمين باشا سامى هذه الواقعة ، وأشار الى « ما تحصل من التبرعات فى الوليمة التى أقيمت فى مولد السيد أحمد البدوى بطنطا ، وشرفها سمو الخديو اسماعيل وأنجاله ونظار دواوينه ، وحضرها أيضا أعيان من وجهاء القطر كله من مسلمين ومسيحيين وموسويين ، وتباروا بدفع التبرعات بكرم حاتمى [٢] » ...

***

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ٢ ق ١ ص ٤٤ — ٤٥

(٢) أمين باشا سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل ، م ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠

واذا كان مولد السيد أحمد البدوى ما زال محتفظا حتى اليوم بجزء كبير من أهميته ورونقه ، فانه حبذا لو استغل الحكم المحلى هذه الفرصـــة السنوية فى نشر التوعيـــة الثورية بين المواطنين . وان معرضا كبيرا لانجازات مجتمعنا الثورى يقام فى طنطا فى موسم المولد الأحمدى لأجدى عشرات المرات وأقوى أثرا فى قلوب عقول نسبة كبيرة من أهل الريف من معارض تقام كل عام فى القاهرة والاسكندرية . وما أعظم ندوات ودروس للتوعية فى النواحى الاجتماعية والصحية والثقافية والسياسية تقام كل عام فى موسم مولد السيد أحمد البدوى بالذات بدلا من الخرافات التى يرويها الرواة وينشـــدها المنشدون ، والتى ان لم تضر البلاد والعباد ، فلن تفيدهم شيئا ...

والحمد لله رب العالمين

موضوعات الكتاب

الصفحة

الصفحة

دار مصر للطباعة
٢٢ شارع ... الفجالة

أعلام العرب
الكتاب القادم

المأمون
الخليفة العالم

بقلم

الدكتور محمد مصطفى هدارة

الناشر : مكتبة مصر بالفجالة

دار مصر للطباعة

الثمن : ١٠ قروش